يوسف سامي اليوسف

تلك الأيام

الجزء الرابع

تمهيد

ظهرت الأجزاء الثلاثة الأولى من هذا الكتاب الذي أحاول من خلاله أن أشهد على زمني أو أن أرسم له صورة ناجية من كل زيف أو تزوير. ولئن كان الجزء الأول والثاني مفعمين بأخبار الحوادث الخاصة والعامة، وكذلك بوصف الوقائع التجريبية والعينية، فإن الجزء الثالث لم يكتف بسرد الممارسة العملية، بل أضاف إليها وصفا للشعور أو استبطاناً لسريرة الذات. ويجنح هذا الجزء الرابع صوب ذلك الاتجاه نفسه، فيكرس معظم صفحاته للتعبير عن الذات ومحتوياتها وجدلها مع هذا الطور التاريخي الموغل في التوتر، أو في إحكامه للحصار الذي يضربه على الروح. إذن، ينبغي من وجهة نظري، ألّا تظل السيرة الذاتية مسرداً لأحداث صغيرة أو كبيرة حدثت خلال حياة المرء، بل لا بد لها من أن تتجاوز ذلك إلى التنقيب في لجج النفس والشعور وما يحتويه الوجدان من توترات محتدمة وتساؤلات عارمة ومتباينة أو متعددة الأنماط، وكذلك من قلق ورغبات مجهضة وأفكار ذاتية حساسة وميول لم تجد لها إشباعاً كافياً في أي يوم من الأيام. ولعل شهادة المرء على الافتراس الجاري في العالم يومياً أن تكون عنصراً من عناصر السيرة الذاتية في العصر الراهن، وذلك لأن الافتراس هو أكبر حادثة بين جميع الحوادث اليومية على سطح هذه الأرض. فالقوي يأكل الضعيف في وضح النهار، ودون أن يأبه بالآلام التي يسببها له العدوان وما يصحبه من نهب وتدمير. وهذا كله يعني أن ينصب شطر كبير من السيرة الذاتية على الباطن، بل أن تكون حصة الداخل أكبر من حصة الخارج، أو مساوية له تقريباً.

وبودي أن أقدم مثالاً من شأنه أن يوضح فكرة الاهتمام الذاتي أو الوجداني في سيرة المرء وتفضيله على الاهتمام بالحوادث الفعلية الكبيرة أو الصغيرة. ففي هذا الجزء الرابع ثمة فصل عنوانه «رسالة إلى سيدة». ولم يذكر الفصل اسم السيدة ذات الصلة، ولكنها حين تطالع الكتاب سوف تعرف أنها هي التي تتوجه إليها الرسالة نفسها. وقصارى الأمر أن هذه الرسالة لا تقل أهمية عن أي حادث كبير في حياتي، أي إنني أعلق عليها أهمية كبيرة وذلك لأنها تنطوي، ضمراً أو جهراً، على حكاية حب قديم يأبى أن يبيد فيما يبيد، على حد عبارة جميل بن معمر. ولا مرية في أن هذا الحب الراسخ لا يقل حجماً عن ولادتي أو عن وفاتي. فما دام يتمتع بهذا الثقل وهذه الديمومة، أفلا يستحق اهتماماً أكبر من اهتمامي بأي حادث من حوادث حياتي، ولنقل أكثر من فترة جنديتي التي انتهت منذ ثمان وأربعين سنة؟

ولقد حاولت في هذا الجزء الرابع أن أرسم صورة للذات وما تعانيه في هذا الطور التاريخي الذي لا يشبه أي طور تاريخي آخر بتاتاً. فلقد أوغل في عبادة المال أو تطرف، حتى صار المال صنماً معبوداً في الأرض. ومع أن عبادة المال عريقة في الزمان، إلا أنها لم يكن لها هذا العرام وهذه الشدة الراهنة في أي يوم

من الأيام. فلقد استطاع هذا الزمن أن يجعل الروح وسيلة للمادة بدلاً من أن تكون المادة وسيلة في خدمة روح الإنسان. وههنا بالضبط يكمن لب المعضلة، أو يكمن مصدر البؤس كله. إن المال، أو المكافئ التجريدي للسلعة، هو بيت القصيد، أو صانع التوتر والاضطراب في الحياة الحديثة برمتها، ولا يلوح على الأفق أي مؤشر من شأنه أن يبشر بأي انفراج. بل العكس هو الصحيح، وذلك لأن ضغط المال على الفرد آخذ بالتفاقم يوماً عن يوم. ولهذا فقد خسرت الحياة عذوبتها وسلاستها التي كانت لها قبل أربعين سنة.

ولهذا، فقد اهتممت في هذا الموضع بتصوير الشعور المتوتر الذي أعيشه وأكابد محتواه حتى لكأنه الجحيم. وقد عبرّت هذه المكابدة عن نفسها في كثير من الأحيان عن طريق التساؤل الذي يعكس قلقاً عارماً لا يجد له أية تهدئة مهما بك نوعها. ولا يخفى أن في باطن هذا القلق يندرج سخط على الحياة ليس باليسير. فالحياة في هذه الأيام من التوتر بحيث يجوز للذهن أن يشبهها بالكابوس. ومما هو واضح أنها ما عادت تحتوي على الحد الأدنى من الهناء الذي يملك أن يسوغّها أمام الوجدان. ويلوح لي انها تتجه باتجاه المزيد من التوتر الساحق لروح الإنسان، وهو من لم يعد له أي حول أو طول في هذه الأيام العصيبة.

وفي مثل هذا الظرف المتعب، أو حتى المنهك، فإن من حق المرء، أو من واجبه، أن يتخذ موقفاً نقدياً من الحياة هدفه الأول استبار ما تنطوي عليه من سلب لا وظيفة له سوى أن يكون عقبة كأداء تحول بين الإنسان وبين السعادة والابتهاج. فما الجداء من أن أعيش في هذه الدنيا المتوترة لأمارس الشقاء بدلاً من الهناء، وما خير حياة بغير فرح ولا سرور؟ بل ما خير حياة أبرز ما فيها مشاهدة الجرحى والقتلى على شاشة التلفزيون كل صباح ومساء؟ فمنذ سنة 2001 لم تتوقف حمامات الدماء في منطقتنا بتاتاً. ما هذا؟ ما هذه الحرب الصليبية الجديدة التي يشنها الغرب على الشرق الإسلامي، حتى وإن كانت بغير صليب ولا دين؟

أو لم يبلغ البشر إلى طور البلوغ بعد، على الرغم من هذه السن العالية؟ ولئن كانت البشرية لم ترشد حتى الآن، فهل يرجى لها أي رشد في قابل الأيام؟

إذن، مما هو شديد الأهمية حقاً أن يصف كاتب السيرة انعكاس الحياة الكلية على الذات أو على الوجدان، أي أن يعرض النفس من حيث علاقتها بزمانها وظروفها قبل كل شئ. إن العلاقة بين الذات وعالمها، أو بين المرء وشروطه، أو قل إن كيفية تفاعله مع زمنه، هي الموضوع الجوهري للسيرة. وهذا يعني أن كاتب السيرة، كالكاتب الأدبي، ولا سيما الروائي، لا يسجل تقريراً عن مجرى الأحداث الخاصة ولا العامة، بل يخلق حياة لا وجود لها خارج شعوره الخاص. أما الماضي فيتعامل معه بوصفه مصبا من مصبات الحنين. وفي الحق أن هذا الحنين موضوع كبير من موضوعات كل سيرة تبتغي أن تشرح المحتوى الجوهري لكاتبها حصراً

وقصارى المذهب أن الذاتية، وليس الموضوعية، هي الأس الأول للسيرة الناجحة أو الراغبة في تقديم مضمونها بوصفه فلذة من روح العصر. ولا أدل على نفاسة الذاتية ونقاء جوهرها من أنها رسخت علاقة الإنسان بالإنسان، وذلك من خلال الإخاء والأمومة والصداقة والحب، كما عملت على توطيد صلة الإنسان بالجمال والوطن والجوار، وكذلك بالعاملين على تحسين الحياة البشرية وجعلها شيئاً مما يستسيغه روح الإنسان ويرضاه.

* * *

في تقديري أن الأفكار لا تند عن الاندراج في فصيلتين اثنتين: أفكار ذهنية وأخرى وجدانية. أما الفكرة الذهنية فهي تجريدية أو صورية ولا تحرك العاطفة، وأما الفكرة الوجدانية فهي تلك التي تغلغل في السريرة وتؤثر على الشعور حتى لا يظل هنالك فرق بين الفكرة والعاطفة التي تنفعل بها. وههنا قد يجوز الذهاب إلى أن الفكرة الذهنية تنتسب إلى الفلسفة، والفكرة الوجدانية إلى الأدب، ولا سيما إلى الشعر، بالدرجة الأولى. فمثلاً، تهيمن الأفكار الذهنية على فلسفة كل من كانت وهيغل، بينما تهيمن الأفكار الوجدانية على فلسفة كل من شوبنهور ونيتشه. وعندي ان شوبنهور، الذي ركل هذه الدنيا الشاحبة في زمن المال والصناعة، هو ذروة الفلسفة الأوربية الحديثة منذ ديكارت حتى اليوم.

وفي الصلب من مذهبي أن الفكرة الوجدانية، أو الذاتية، أنفس وأنبل من أختها تلك. ولهذا فقد تعمدت أن يجئ كتابي الراهن، بأجزائه الأربعة، طافحاً بالأفكار الوجدانية الوثيقة الصلة بالحياة والتجربة الحية التي يعيشها الناس بالفعل. إنها أفكار روحية تنبثق من صميم النفس، وتعبر عن رغبة عارمة تهدف إلى احتضان مساحة العيش اللامتناهية، أو مداه الذي يجهل الحدود والسدود.

وبما أن حياتي الشخصية لا تحتوي إلا على حفنة صغيرة من الأحداث، فقد عمدت إلى الأفكار أملأ بها الجزء الثالث والجزء الرابع من الكتاب الراهن. أما أخبار العالم التي عايشتها فقد سردتها على نحو موجز سريع، وذلك لأن «تلك الأيام» ليس كتاباً في التاريخ، مع انه يبذل جهداً ملموساً كي يكون شهادة على العصر الذي عشت فيه.

وعل أية حال، فإن أكبر حدث جرى إثر صدور الجزء الثالث، سنة 2008، هو تلك الجريمة الشنيعة التي ارتكبتها الصهيونية في غزة بين الأيام الأخيرة من كانون الأول، وبين العشرين من كانون الثاني في العام التالي. ولقد كانت مشاهد القتل والدمار على شاشة التلفزيون مريعة ومثيرة للأسى. وكانت صور الأطفال القتلى من الشناعة والفظاعة بحيث تمزق نياط الفؤاد. وهذه هي الصفة الأولى

للصهاينة منذ مطلع أمرهم. إنهم مولعون بدماء النساء والأطفال ولعاً تتضاءل أمامه همجية المغول والتتار.

وقد تؤشر هذه الحقيقة إلى أن اليهودي كائن معاد للحياة. وذلك ما يدفعه دوماً إلى قتل النساء، ينابيع الحياة، وإبادة الأطفال، حوامل المستقبل الحي. وهذا هو الصهيوني الذي دعمته الوحوش الأورو ـ أمريكية الحاقدة على العرب، والتي لا تشبع إلا إذا اغتذت بلحوم البشر، ولا ترتوي إلا إذا شربت دماءهم. ألم تبلغ الوحشية بالأورو ـ أمريكيين حداً جنونياً حينما ضربوا اليابان بالأسلحة النووية. فالمبدأ الذي يحكم تاريخهم هو هذا: نعيش نحن، ولتمت البقية، أو فلتخص وليقذف بها إلى رصيف التاريخ؟ فما من حضارة على الأرض، منذ عصر الكهوف حتى اليوم، قد أساءت لخصمها، أو لآخرها، كما فعل أولئك الغربيون المجرمون الذين ترمدت ضمائرهم وفقدوا إنسانيتهم حتى صاروا كالوحوش المفترسة، لا يهمها شئ سوى غرائزها الجسدية. ومع أن الغربيين اليوم منتصرون في العراق، وذلك لسبب محلي لا يخفي حتى على الأطفال، وليس لأنهم صناديد، فإن الوضع في أفغانستان مختلف جداً. فقد يجوز الظن بأن المقاومة في ذلك القطر تكبدهم خسائر فادحة يومياً، أو ربما صح القول بأن الحرب سجال بين الطرفين. والتكتم الإعلامي الذي يفرضه الغربيون هو نفسه آية على أن الوضع ليس في صالحهم تماماً.

ولا مراء في أن الغربيين وصهاينتهم يقفون وراء الأحداث في السودان والصومال معاً. ولا هدف لهم من ذلك سوى تخريب قطرين عربيين يملكان إمكانيات مفتوحة من اجل نمو مفتوح. وكان دور المؤسسات الدولية قذراً حتى ليجوز القول بأنها ليست سوى مؤسسات إمبريالية لا هدف لها إلا إرغام الأمم المستضعفة على الركوع أمام الأمم اللاحمة. وهذا يعني أن الأمم المتحدة، بفروعها كافة، لا تخرج عن كونها منظمة إمبريالية حقيرة أو صفيقة.

فالمذكرة التي أصدرتها المحكمة الدولية بحق الرئيس السوداني، والرامية إلى اعتقاله وجلبه أمام تلك المحكمة نفسها، هي برهان ناصع أو حاسم على حقارة تلك المؤسسة الدولية بأسرها. فلماذا لم يوقفوا رؤساء أميركا المجرمين الذين ارتكبوا أبشع المجازر في العديد من بلدان العالم، ولا سيما في العراق؟ ولماذا لم يوقفوا رؤساء الصهيونية الذين جزروا الشعب الفلسطيني وما زالوا يجزرونه حتى اليوم؟ إن الغربيين يمارسون الإرهاب منذ الحروب الصليبية، أو أقله منذ اكتشاف أميركا. ومع ذلك فإنهم يتهمون خصومهم بأنهم إرهابيون ومخربون ومعادون لروح الإنسان.

* * *

أما على الصعيد الشخصي، فانا ما زلت أعاني من الأمراض، ولا سيما احتباس السوائل الذي اعتاد على أن يدهمني فجأة بين الفينة والفينة. ولقد تبين اليوم في آب (2009) أنني مصاب بتضخم في القلب. ولهذا، فإنني أقاسي من وجع فظيع في صدري. ولا غلو إذا ما زعمت بأنني واحد من ذلك الصنف الذي لا يحيا ولا يموت. فلشدة وطأة الألم على جسدي في الآونة الأخيرة، ولاسيما على جوف صدري، بتّ أتمنى أن يكف قلبي عن نبضه المنهَك، لأخرج من هذه الدنيا الخمجة المذرة الى أبد الآبدين. وفي ظلال هذه الحال، رحت أناجيه بهذا البيت من الشعر الذي قلته منذ شهرين تقريبا:

تعطل، أيها القلب الحنون،

فجملة هذه الدنيا شجون

كما أنني ما زلت أعيش في عزلة نسبية، ألفتها وتكيفت معها، حتى صارت تروقني كثيراً، بل صرت أفضلها على الاختلاط بالناس، وذلك لاعتقادي بأن العزلة وحدها مبدعة أو مثمرة، أو ذات قدرة على الابتكار. ولكنني ما زلت أنشر بعض المقالات في هذه الصحيفة أو تلك. كما نشرت سنة 2008 كتيباً عنوانه «دمشق التي عايشتها» تحدثت فيه بالدرجة الأولى عن بعض جوامع دمشق بوصفها انجازات حضارية فنية شديدة الرقي.

ولكنني لم اخرج من محافظة دمشق إلا مرتين، منذ أواخر سنة 2004 وحتى هذا اليوم. وفي المرة الأولى زرت مدينة القنيطرة المدمرة، وذلك لأول مرة منذ ما قبل احتلالها. وتذكرت شرخ شبابي، فلقد عشت فيها سنتين (1963 - 1965). وكانت زيارتي لها في السابع عشر من نيسان سنة 2008. وفي المرة الثانية سافرت إلى حمص لأزور بعض الأصدقاء، ولا سيما غادة اليوسف التي كانت تعيش في مخيم اليرموك منذ زمن طويل، والتي كانت تحاول أن تكتب الشعر في الثمانينات. ولقد تعرفت عليها سنة 1976، أو في السنة اللاحقة، وظللت ألتقي بها، ولو لماماً، حتى سنة 1986، يوم غادرت دمشق إلى حمص، فانقطعت أخبارها عني انقطاعاً تاماً. ولكنها اتصلت بي هاتفياً، وعلى نحو مفاجئ، في أواخر سنة 2006، وأبلغتني أنها صارت قاصة وأنها نشرت بعض الكتب. كما نشأت بيني وبينها مراسلات استمرت حتى اليوم. وأحسب أنني أرسلت لها عشرين رسالة، أو زهاء ذلك، ولكن العدد سوف يزداد في المستقبل.

وحدثت زياتي لحمص في التاسع عشر من نوار سنة 2009. وأنفقت هنالك ثلاثين ساعة بالضبط، قابلت خلالها بعضاً من كتاب تلك المدينة بينهم عبد الكريم الناعم وممدوح سكاف، وهما شاعران مشهوران. والجدير بالتنويه أن حمص التي أعرفها قد تغيرت تغيراً كبيراً جداً، فتضخمت حتى ما عدت أعرف شوارعها إلا قليلاً، وذلك بعدما غبت عنها إحدى عشرة سنة تماماً.

وفي شهر نوار نفسه، ولكن لا أذكر ما إذا كان ذلك قبل زيارتي لحمص أو بعدها، تعرفت هنا، في مخيم اليرموك، على امرأة تجاوزت منتصف العمر، اسمها ندى، من مدنية سلمية. وقد نشأت بيني وبينها صداقة إنسانية أو أخوية عميقة وحميمة. ومما هو لافت للانتباه أن هذه الصداقة الأصلية قد نشأت وترسخت بسرعة فورية قصوى. ويلوح لي أن وطأة الاغتراب شديدة على روح ندى في هذه البيئة العجماء التي تفتقر إلى عنصر الصدق، بل إلى كل ما هو ناجٍ من التزوير.

أما الذي أعجبني في هذه المرأة الطيبة فهو أنها تجسيد للعذوبة والبراءة ونقاء السريرة. بل يسعني الزعم بأنها الطهارة نفسها مجسدة أمام مقلة العين. أضف إلى ذلك أنها واسعة الاطلاع، ولا سيما على الكثير من كتاب العالم العربي الراهن. ولعل مما هو واضح تماماً أن سلمية بلدة تعج بالمثقفين المبدعين وغير المبدعين. وربما كانت هذه الحقيقة هي ما يفسر سعة اطلاع ندى على الثقافة المحلية وغير المحلية.

وقد يحالفني السداد إذا ما قلت بأنني وندى روحان مغتربان، اهتدى كل منهما إلى الآخر، وأخذ يؤنسه ويأتنس به في سواء هذه العجمة البكماء، أو داخل هذه المدن الشديدة الافتقار إلى كل ما هو حميم. فالصادق والإخائي لا يحضران إلا على ندرة ههنا في هذا الخزان البشري الشديد الشبه بالمحشر، والذي يتنفس فيه الناس السخام والغازات السامة.

فلعل مما هو صادق في ذهني أن مدن العالم الراهن، وهي التي دمرها تكدس الأموال والجشع والكذب، حتى صارت خمجة عفنة كالبيض المذر، لم تعد قادرة على الإنجاب بالإنسان إلا لماماً وحسب. فما دمر العالم الحديث سوى الشره أو النهم. وافتقار الناس إلى الحد الأدنى من الحكمة الكفيلة بتحسين الحياة. وبسبب هذا الدمار المتفشي في النسيج كله، فإن من كنّ مثل ندى البريئة، والنقية كشعاع الشمس، لن يواجهن سوى الاغتراب ومرارة الضياع في هذه البيئات الخالية من الروح والعناصر الإخائية. فماذا يستفيد الإنسان إذا ربح العالم وخسر نفسه؟ ومع ذلك كله، فإنني سوف أظل موقناً بوجود الإنسان الحقيقي في كل زمان ومكان، على الرغم من هذا الاتضاع الكلي وهذا الخراب الشامل الجسيم.

وعندي أن هذا العمار ليس سوى دمار زوّر نفسه في هيئة خادعة. ولا أدل على ذلك من أن الأديب اليوم منسي على قارعة الدرب لا يأبه له أحد إلا في أندر الأحيان. فماذا عساه أن يكون مصير ندى ومثيلاتها المغتربات في بيئة من فولاذ؟ ولعل أهم ما في أمر هذا الدمار أنه لم يستبق من النفائس إلا النزر اليسير، بل ما هو أقل من ذلك بالفعل. ولكن هذا النزر اليسير قد يصلح تعويضاً عن هذه الخسائر الكبرى بأسرها. كما أن الالتقاء به، وبكل ما يملأ ويعني، قد يفضي إلى النجاة من الاغتذاء بلحاء الحياة بدلاً من لبابها.

وتستتلي جملة هذه الحقائق ما فحواه أن القيم التي تخدم إنسانية الإنسان، والتي لا ترى فيه إلا غاية الغايات قاطبة، أو الغاية التي تنبغي أن تخدمها جميع الوسائل دون استثناء، هي التي تستحق ان توضع في المرتبة العليا من سلم القيم الأخلاقية على الدوام، وذلك إذا ما أريد لهذا العالم أن يصير صالحاً لاستضافة روح الإنسان. وبما أن هذه العقيدة الفاخرة هي إنجاز شرقي في أصله الرفيع، ولا سيما في «فصوص الحكم» لابن عربي، فإن في ميسور المرء أن يؤكد إنسانية الشرق ونبله الروحي في مواجهة همجية الغرب التي تنم عن جنون متأصل في نفوس أهله الأوباش. فهي همجية عاتية تمارس الإرهاب والمجزرة والابتزاز على الأمم المستضعفة، أو المغلوبة على أمرها، في زمن الصناعة والأدوات الشديدة التطور، والتي استعبدت جميع البشر، وفي الآفاق كافة، خلال هذا الطور التاريخي الأجرب المرير.

* * *

ويخيل إليّ أن العالم سوف يظل على هذه الحال الكئيبة، أقصد حال الجريمة والإرهاب، على مستوى التاريخ، وحال الضياع والتشيؤ والاغتراب، على مستوى الفرد، ما دام اليهود الأوغاد يتصرفون به على هواهم. فلا ريب عندي في أن وجود اليهود هو برهان حاسم على سقوط العالم وشرته وتمرغه في الأوحال الموبوءة، وذلك لأنهم يعتقدون بأن بقية الجنس البشري ما خلقت إلا لكي تخدمهم وتلبي رغباتهم، وهي اليوم تخدمهم بالفعل وتذعن أو تستخذي أمام مشيئتهم الإبليسية الحقيرة، وذلك بعدما أعادوا صياغتها وفقاً لمبدأ المطاوعة، فراحوا يوجهونها كما يحلو لهم. ومن عجب أن تمتثل العروق الابتكارية الخلاقة والمترعة بالحيوية والدماء المتدفقة في الشرايين لهذا اليهودي الأصفر الكالح والشديد الشبه بالطرح أو بالمسلول.

وهذا يعني أن اليهود داء عضال أصيبت به البشرية منذ زمن لا يدريه أحد قط. فلقد انحط الجنس البشري جملة من المرات، أقدمها يوم اخترع السلاح المعدني، وآخرها يوم اخترع السلاح النووي الاجتثاثي والإجرامي في آن واحد، أما أهمها على الإطلاق فكان يوم أفرز اليهود في زمن يتعذر تحديده. فلا ريب عندي في أن اليهود علامة اتضاع في تاريخ البشرية، وذلك لأنهم تجسيد للنهم والخبث والمكر وجميع أصناف النذالة. ومن الأعاجيب والغرائب أن تدعمهم وتؤيدهم أمم كثيرة جداً. (لسنا نعرف حجم المساعدات التي تقدمها الصين والهند واليابان للغيتو الصهيوني.) ولا يكمن وجه العجب في العدد الكبير لتلك الأمم القميئة وحده، بل في أن جميع البلدان التي ساندتهم لا مصلحة لها البتة في تلك

المساندة اللئيمة. وهنا بالضبط يكمن وجه العجب: أن تدعمهم أمم كثيرة جداً لا تستفيد منهم قط. ففي صلب الحق أن الغيتو الصهيوني لم ينفع الغربيين مقدار حبة خردل في أي يوم من الأيام. ومع ذلك فإن الغرب كله، بل العالم بأسره، مستنفر بغية السهر على أمن هذا الغيتو الذي لا لزوم له بتاتاً.

ولهذا، فإن للذهن السليم أن يتساءل عن السبب الحقيقي الذي دفع جميع أولئك الأنذال كي يقفوا مع الصهيونية ضدنا، أي ضد شعب صغير فقير أعزل، فهيأوا لهم شروط الظفر حتى أوهموهم بأنهم قد انتصروا على سبعة جيوش عربية في عام النكبة. ونسي الجميع، باستثناء الفلسطينيين، أن الجيوش التي ناوشتهم لتذر الرماد في العيون، هي جيوش يملكها الإنجليز الملتزمون بوعد بلفور، أي بإنشاء صنف من أصناف الغيتو على ارض فلسطيننا الغالية.

والأهم من ذلك هو أن اليهود لم يهزموا العرب بهذه الطريقة الماكرة، أي بواسطة قوة الإرغام الإنكشارية، إلا بعدما هزموا أوروبا وأميركا وجعلوهما أداتين حادتين للهيمنة على العالم. ولهذا، فإنني أتحدى رؤساء الغربيين أن يحرروا بلدانهم من هيمنة اليهود وسطوتهم واستغلالهم لإمكانيات القارتين العاتيتين. فلا ريب عندي في أنهم يرضخون لشكل ما من أشكال قوة الإرغام الإنكشارية، شأنهم في ذلك شأن العرب. ولهذا، فإنك تراهم على شاشة التلفزيون أشبه بالخصيان منهم بأهل الكرامة والنبل.

وأياً ما كان جوهر الشأن، فإنني أعتقد جازماً، بأنه ما من خلاص لهذا العالم المسكين إلا بعد زوال اليهود من رقعته الحية. كما أن منطقتنا المنكوبة بالأنذال سوف لن تعرف الهدوء والاستقرار ما داموا يحتلون مركزها بالضبط، أو نقطة اتصال آسيا بأفريقيا. فقد دخل التوتر والاضطراب إلى هذه المنطقة منذ أن دخلها اليهود. وفي الحق أن اللعنة المغولية التي أنزلوها بالعراق من شأنها أن تذكر المرء باللعنتين اللتين حلتا به على يد كل من هولاكو وتيمورلنك.

كما تزامن دخولهم إليها مع ظهور النفط فيها على وجه التقريب. ومما لا يخفي أن النفط زادها توتراً واضطراباً وسوء حال، وذلك لأنه قد حرّض جميع أمم الأرض، فتكالبت علينا تكالب الأكلة على قصعتها، ولا سيما خلال غزو العراق الذي دهمته جيوش أتت من الجهات الأربع متهافتة على النفط، أو على الطاقة التي تنبع منها كل حياة حديثة. فمما هو صادق في ذهني أن النفط واليهود هما العاملان الصانعان للشدة والاحتدام في العالم العربي الحديث. ولهذا، فإن أسخف فكرة عندي هي تلك التي تنص على أن العقل يحكم العالم. وكل من لا يدرك أن قوات السطو المسلح هي التي تحكم العالم منذ بدء الزمان حتى اليوم، فهو ذهن بغو لا يزيد نضجاً عن ذهن طفل غرير.

وعندي أن وجود اليهود في منطقتنا مرهون بوجود النفط الذي يلهطون منه حصة كبيرة جداً قد تضارع حصة العرب مجتمعين. فها هم يرفلون في مخمل الرغد والرفاه، أو يعيشون في «مهد عيسى»، كما يقول أحد أمثالنا الشعبية. فإذا زال النفط زالوا، أو انحسروا أو تقلص ظلهم. وهم معتادون على السرقة والابتزاز والانتحال أينما حلوا، ولا سيما بواسطة الربا والتجارة والاحتكار. فلقد انتحلوا لغة كنعان وسموها اللغة العبرية زوراً وبهتاناً، كما اغتصبوا أرض كنعان وسموها باسم كنعاني معناه «أسدير إيل». وإيل هو الله في اللغة الكنعانية. هذا فضلاً عما سرقوه من الثقافة البابلية وأودعوه في توراتهم. فلولا بابل لما كان للتوراة أن تكون بتاتاً. وفضلاً عن هذا، فإن الكبالا، أو تلك الطريقة الصوفية التي يتبناها اليهود وينسبونها إلى أنفسهم، هي، عند الفطين، ابتكار بابلي محض دون أدنى ريب، وذلك لأن الطرائق الصوفية لا تنشأ ولا تنضج الا في المدن الكبرى وحدها.

ومن جهة ثانية، فإن وجودهم سوف يظل مرهوناً بقدرتهم على ممارسة القتل والإجرام. فحين لا يعودون قادرين على ارتكاب الجرائم، فإن كيانهم القميء سوف يضمر ويضمحل فيتلاشى أو يذوب ويختفي إلى أبد الآبدين. وهذا هو حال الكائن الأورو ـ أميركي الذي يسعك أن تنعته بأنه قاتل محترف. فحضارته سوف تزول من الوجود يوم يصير عاجزاً عن ممارسة الإرهاب والعدوان والمجازر.

بيد أن المشروع الصهيوني الإجرامي يعاني من مفارقة حادة جداً. فعلى الرغم من الطاقة اللامحدودة التي شحنه بها الغربيون وهم صاغرون أو راغمون، فإنه لا يزيد عن كونه إنجازاً تافهاً ولا قيمة له ولا لزوم بتاتاً. أضف إلى هذا أنه قد جاء بمثابة شائبة تشوب منطقتنا كالعكر في الماء، أو لعله أن يكون عنصرا طفيلياً غريباً عن هذه المنطقة التي تتمتع شخصيتها بحد ما من حدود التجانس والتماثل. فهو أشبه بعلقة تغتذي بدم حيوان آخر لا يملك البتة ان يتخلص منها حتى ولو عنت كثيراً. ولسوف يبقى ذلك الكيان المصطنع غريباً وطفيلياً ومعزولاً وتافهاً، أو قميئاً من الناحيتين الكمية والنوعية، حتى بأذن التاريخ باستئصال شأفته، أو بمحوه من سجل الوجود.

ومن فاحش الغلط أن يظنوا بأن السلاح الذي بنى كيانهم المفتعل هو كل شئ في حركة المشروع البشري. ففي الحق أن أس الحياة البشرية هو الحيوية والفعل المثمر، وليس السلاح الذي أثبت التاريخ أنه كثيراً ما يلاقي سلاحاً آخر شديد القدرة على إحالته إلى حطام. وهذا هو بالضبط ما جرى لروما وآشور، أو لسواهما من القوى التاريخية العاتية. فما من شئ راسخ أو حصين أو يملك القدرة الكافية على الصمود في وجه سياق الحدوث الجارف. والنسق العالمي المستتب اليوم سوف يصير قابلاً للخلخلة حين تناهضه القوى التاريخية المتضررة من

وجوده وسيادته على الشعوب، وذلك ابتغاء زحزحته وتنحيته جانباً، أو حتى ابتغاء إحالته إلى خبر من أخبار كان.

وقصارى المذهب أن البشرية اليوم أمام خيارين: فإما ان تتخلص من اليهود ومن لؤمهم وخبثهم ومكرهم وخساسة طبعهم، أو من نفوذهم المستبد والمشوّه للشخصية الإنسانية بأسرها، دون أن يواجهوا من يردعهم أو يصدهم عن العبث بمصير الأرض، وإما أن تظل سادرة في بؤسها وتضعضع أوصالها إلى أجل غير مسمى.

وأخيراً، أود أن أنوه بأن كتابي هذا هو شهادة على زماني هذا، أعني أنه شهادة على زمان اللصوص والمتطفلين واليهود والسفلس والايدز والتلوث بالسخام وغير السخام، أو على سقم الحضارة الحديثة وعقمها وضآلة شأنها، أكثر مما هو مسرد لسيرة حياتي الخاصة أو الشخصية، وهي الخالية من أي حدث جسيم.

ولكن أهم ما لدي على الإطلاق فهو الدعوة إلى احترام إنسانية الإنسان، بل إلى تقديسها وتبجيلها وعدم السماح لأي مريض بإهانة الهوية البشرية دون وجه حق، أو باتخاذها وسيلة إلى أية غاية من الغايات، مهما يك نوعها. ولعل من شأن هذا الالتزام بالماهية الإنسانية أن يحثني على أن أهيب بكل امرئ من أهل الأرض، أياً كان عرقه أو دينه أو لغته، أن يصطف داخل خندق الخير منحازاً ضد خندق الشر، تماما كما أهاب زردشت بالناس قبل ثمانية وعشرين قرناً من الآن.

الفصل الأول

هواجس وأفكار

هـا أنـا ذا أكبـر وأشـيخ بالتـدريج، ولا سـيما بعـد أن تجـاوزت السـبعين عـام (2009)، ولا محيد لـي عن أن يصطادني عما قريـب فـخ العجـز والركـود الآسـن البليد، إن طال العمر وامتد حتى الثمانين أو نحوها. فمما هو في البداهة عنـدي أنـه لن يحـدث شـيء إلا مـا هـو مركـوز سـلفا فـي طبـاع الكائنـات، أو فـي ضـمائرها المستترة ونواياها المكنونة في تلافيفهـا التـي لا يراهـا إلا القـادرون علـى اختـراق الظلمات أو المستورات ببصائرهم النورية.

فالمضمرات، وهي الجنينية على الدوام، أو المصمتة والعديمـة الشـفافية، هـي الينابيع التي ينبع منهـا كـل واقـع حـي أعطـي لمقلـة العـين، ويبـدو أن ثمـة سـجالاً ديمومياً بـين الواقـع والمضـمر، فكـل منهمـا يفـرز الآخـر ويغذيـه، ولكـن دون أن يسمحا للبصر برؤية هذه الحقيقـة. وهـذا يعنـي أن مـا هـو كـائن بالفعـل يـدمره مـا سوف يكون؟، وهو لا يكف عـن تـدميره بتاتـاً، حتـى ولـو لدقيقـة واحـدة. فالشـباب تفنيه الشيخوخة وتزيله من الوجود، حتـى لا يبقـى منـه أي أثـر، مهمـا يـك طفيـف الحجم أو المقدار.

وأيا ما كان الأمر، فإني شديد الاقتناع، في هذه الأيام، بأن الشـباب وحـده هو الحياة التي تستحق أن تعاش عن جدارة، أما الطور الشائخ فلا يزيـد عـن كونـه برهة وساطة بـين الحيـاة والمـوت، ولهـذا فـإنني أراهـا لا لـزوم لهـا قـط. ويصـح المذهب نفسه على المرض الذي هـو خلطـة تمـزج الحـي بالميـت، فالمسـافة التـي تفصل بين الحياة والموت هي انـدياح مطلـق لا يلجمـه لجـام، ولكنهـا تمحّـي حتـى درجة العدم في الشيخوخة والمرض الشديد، فكـأن الخطـين المتـوازيين قـد التحمـا في نقطة واحدة، أو حتى كأن الثلج والنار قد اجتمعا في إناء واحد.

ومما هو صادق في ذهني أن الشيخوخة هي الضريبة الباهظة جداً، والتي ندفعها للقدر، أعني لطبع الأشياء، عن الشـباب الـذي نكـون قـد عشـناه واسـتهلكناه سلفا. وربما أصاب المرء إذا ما لاحظ أن كل شيء نفيس له ثمن بـاهظ يعادلـه فـي الكفة الأخرى. ومما هو ناصع أن الحياة أطوار، وأن كل طور يباين أي طور آخر إلى حد ملموس. فأين الشيخوخة من الطفولة ذات القوام الأهيف الأملد الرشيق؟ أو قل أين الخشب من الذهب.؟

ولكن، هل يستحق الشباب، الذي هو شيء نفـيس لذيـذ، دون أدنـى ريـب، بل ليس أنفس منه شيء بتاتاً، وبكل جزم وتأكيد، هل يستحق أن ندفع من أجله هـذه الضريبة الشديدة الضخامة والباهظة التكاليف على مستوى الشعور؟ وهـل أصـاب لا مارتين أم أخطأ حين قال في إحدى قصائده بأن الأبديـة نفسـها لا تسـاوي سـاعة

ألم واحدة؟ والأبدية في تلك الثقافة الأوروبية هي الجنة في ثقافتنا نحن العرب، سكان الصحاري والواحات والأودية النهرية.

ولئن سألني أحد عن حالي، فإن في ميسوري أن أجيبه بهذا السؤال الشارح للأمر: ماذا عساه أن يكون حاله ذاك الذي يتناول بضعة عشر دواء كل يوم؟ وها أنا ذا أتلاشى وأذوب سنة إثر سنة. فالإنسان كائن يمّحي بالتدريج؟ وهذه حقيقة من شأنها أن تبعث الامتعاض والتقزز في شعور الحّساسين. إن جسدي يتفسّخ ويتزنخ ويحيل حياتي إلى صنف من أصناف الاعتلاف بالتبن والزؤان.

ومما زاد الطين بلة أن الأرض كما أراها لا تقل عن كونها مرتعاً لجميع أشكال الزعارة والشر والعدوان. فالأقوياء ينهشون الضعفاء ويفترسونهم ويلتهمون لحومهم في وضح النهار، وبلا خجل أو حياء أو ردع من ضمير. ولهذا، أعتقد بأن الإنسان هو أكثر الوحوش وحشية وقدرة على الافتراس. وهذه حقيقة تزعجني كثيراً وتحتم عليّ أن أشعر بأنني شيء بين الأشياء، ليس إلا. وإذا ما تشيأ المرء فإن الحياة لا تظل جديرة بأن تعاش.

وفي شعوري أن الكون يشيخ حين أشيخ ويموت حين أموت، حتى لو ظل على حالة وتابع مسيرته اليومية دون أن يعبأ بمصير ي كله. فلا محيد عن مكابدة الشعور بالاغتراب، ما دام العالم لا يكترث به إلى هذا الحد اللامبالي. فيالي من نافل أو زائد عن الحاجة، لأن الكون يملك أن يسير في دربه من دوني، أو من دون الاعتماد عليّ ولو لهنيهة عابرة. فوجودي وعدمي هو اللا فرق في آن واحد.

ولهذا، أراني اعتقد بأن المغترب الأصلي (المعري، مثلا) هو وحده الإنسان على الأصالة، وذلك لان العالم لا يصلح مضافة للروح، ولا سيما المرهف الحساس. أما ما هو زائف فلا قيمة له البتة، اللهم إلا أنه يملك أن يبرز قيمة الأصيل وأهميته، وذلك لأن الأشياء لا تدرك حقائقها إلا بواسطة أضدادها. فلولا الظلام لما استوعبنا نفاسة النور وروعة جماله.

ولعل أهم ما في أمري اليوم أنني أفقد سمعي وبصري شيئاً فشيئاً، وبغير أي كابح من شأنه أن يكبح هذا التدهور أو هذا الخسران المستمر. وربما كان داء السكري هو السبب الأول لفقدان السمع والبصر الذي أكابده في هذه الأيام. ومما يحز في نفسي كثيراً جداً أنني ما عدت قادراً على المطالعة لمدة طويلة، وفقاً لعادتي التي اعتدتها منذ طفولتي حتى عهد قريب، وذلك بسبب هذا الضعف الذي ألم بعيني كلتيهما، ولا سيما العين اليمنى التي فقدت ثمانية أعشار طاقتها البصرية أو أكثر. وهذا يعني أن هنالك عدداً من الكتب الشديدة الأهمية، التي لم أطالعها حتى الآن، سوف لن أطالعها البتة، ولا سيما كتاب شاتو بريان، «مذكرات مما وراء القبر» الذي لم يترجم إلى العربية، والذي لم أعثر له على أية ترجمة انجليزية، مع أنني بحثت عنها كثيراً جداً. وفي وجداني أن هذا الحرمان من

القراءة الطويلة هو مصيبة قائمة بذاتها، وذلك لأن الكتاب كان طوال عشرات السنين عزائي الأول في هذه الدنيا التي تكاد أن تكون بغير عزاء. فالمطالعة الطويلة لا تعلم وحسب، بل هي تقاوم السأم والشعور بالفراغ قبل كل شيء، كما أنها تخلق في المرء شعوراً فحواه أنه يمارس إنسانيته وأصالة ماهيته. ولكن أهل الرأي قد كانوا على حق عندما قالوا بأن «العمر كله لا يكفي للتلمذة». أجل، ثمة كتب هامة جداً، وخاصة مؤلفات وولتر بيتر وجون رسكن، لم أقرأها بعد، ويبدو أنني لن أقرأها إلى الأبد. (قرأت كتاباً واحداً من مؤلفات بيتر).

كما أنني أكابد طنيناً في أذني كلتيهما، لا يبرحهما بتاتاً، سواء في الليل أو في النهار، إلا إذا استطعت أن أنام بعمق. وهذا حادث قلما يحدث، بل هو لا يحدث إلا لماماً في هذه الأيام. ولكنني ألفت بؤس الطنين هذا وتكيفت معه، إلا في حالات الهيجان الانفجاري الإبليسي. وفي مثل هذه الحال، أراني أهرع إلى الطبيب باندفاع شديد يشبه اندلاع الزوبعة الهوجاء، وذلك لأنه يكون قد تضخم حتى صار جحيماً بالفعل.

ولقد أجريت لي عملية قسطرة قلبية، وذلك في شهر آذار، سنة 2007، فثبت أنني مصاب بنقص التروية وكذلك بقصور في الشريان التاجي ليس باليسير. ولهذا، فقد دخلت غرفة العناية المشددة في مشفيين أثنين ثلاث مرات، وذلك بين تشرين الأول سنة 2006 ونوار سنة 2007. وكانت الأولى بسبب تختر الدم، والثانية بسبب احتباس السوائل، أما الثالثة فعلتها سوء التنفس.

وخلاصة المعضلة أن عضلة القلب هي من الضعف بحيث لا تملك أن تطرد السوائل إلى خارج البدن. ولقد فوجئت حينما علمت بأن الجسم يتخلص من تلك المواد بفضل نبض القلب، أو بفضل حركته وقوته أو قدرته على الضخ.

إن أفظع ما أخشاه في هذه الأيام الشائخة هو احتباس السوائل في البدن، وذلك بسبب الوهن المحايث لتلك العضلة التي تصنع الحياة. ولقد قاسيت من هذا الداء ووجدته أسوأ مرض عشته في حياتي كلها. ولهذا، فإنني لا أراه إلا بوصفه كابوساً يهيمن عليّ أيما هيمنة، بل ينيخ بكلكله على صدري فيرعبني ويغث بالي. أما إذا قيض له أن يحدث بالفعل، فإنه، بكل جزم، لا يقل عن كونه الجحيم نفسه.

ولا غلو إذا ما صرحت بأن المرض هو اللعنة التي لا تبذها أي لعنة أخرى، أو قل إنه السلب الذي لا يضارعه أي سلب آخر، مهما يك نوعه، وبسبب احتباس السوائل، الذي أخشاه أكثر مما أخشى الامبريالية والصهيونية، فقد عدلت الكوجيتو الديكارتي القائل: «أنا أفكر، إذن أنا موجود»، بحيث يتناسب مع هذه الآفة التي من طبعها أن تضغط على القلب تبتغي توقيفه عن ممارسة النبض.

* * *

ها أنا ذا أحقن نفسي بهذا القول المخّدر، أو الهادف إلى السلوان: على الهيف أن يتحمل الجلف. وهو مذهب دأبت على إعادة صياغته بهذه الصيغة: على اللطافة أن تتحمل الجلافة. ورددت هذه الكلمات الخمس عدداً من المرات لا يحصى، ولكن دون أن أشعر بوجود أي عزاء في متناول اليد. ففي هذا العالم من السماجة والقباحة ما هو كفيل بان يجعل كل سلوى شيئاً طفيف التأثير. ولا يبلغ إلى هذه الحال إلا من كان حساساً أو شديد الطيبة في آن معاً. فإذا كبر العقل صغرت الدنيا وصغرت معها قيمة حياة المرء أو قيمة وجوده، أو كما قال الشاعر: «فسيان التهائم والنجود»؟

ولئن كان ثمة من فعل نفيس في هذا العالم فهو تعاطف المرء مع بؤس البشر، ولو أن مثل هذا التعاطف قد صار نادراً في هذه الأيام. وبالبداهة ينبثق هذا التعاطف النبيل من الوجدان الحي والمهموم بهم الحياة، ولهذا، تعودت دائما على أن أنظر إلى الوجدان بوصفه أنفس عنصر في الشخصية الإنسانية بأسرها. فلقد كان ابن عربي شديد الأريحية حين قال في الفص الثامن عشر من «فصوص الحكم» بأن «الشفقة على عباد الله»، أي على الناس جملة، هي السمة الأعلى بين سمات الإنسان الذي بلغ إلى رتبة الإنسانية. وهذا يستتلي ما فحواه. أن من الواجب «مراعاة هذه النشأة الإنسانية وأن إقامتها أولى من هدمها». وينبع هذا القول من المذهب الإنساني، وينطوي على رفض الحروب وتجريم مرتكبيها، كما ينطوي انطواء ضمنياً على وجوب الاعتناء بالبشر، ولا سيما من قبل أولياء الأمور، بل من قبل أهل الكمال بالدرجة الأولى، إذ لا كمال البتة حين لا يكون المرء مهموماً بهموم البشر وما يقاسون من تعاسة في حياتهم المكدودة الخالية من الحرية إلى حد مرعب.

فلست أرى لوجود المرء من هدف قبل مساعدة الناس على تحمل هذا الشقاء المرير، وهذا هو الفعل الأصيل الذي لا تطيقه إلا النفوس المطهمة الأصلية. نعم، الإيثار في مواجهة الأثرة والأنانية وعبادة الذات. وفي نحلتي أن وعي البؤس هو الأنبل والأكثر قيمة بين أشكال الوعي المختلفة كافة. فحين أرى القمع يسفع الوجوه بلونه الأسود الكامد، فإن قلبي يوشك أن يتفطر.

أما عن القلق وما يجر من أرق، فحدّث ولا حرج. إن تعبي بأسره يتكثف اليوم في الأرق وحده. فهنيئاً لكل من ينام ويشبع نوما. ثم إن الأسئلة التي يكتظ بها دماغي الشديد التوتر، والتي يفرزها من تلقاء نفسه، كما تفرز الزهرة العبير والنحلة العسل، لا يجد لها أجوبة في أي موضع قط، ولا حتى عند المعري الذي أراه التجلي الأمثل للقلق والتوتر والاضطراب في تاريخ الثقافة العربية برمتها. فلا يملك الإنسان المرهف الحساس، أو ذاك المتحدر من سلالة المعذبين بالفطرة، مع أنه قد يحن بحرارة وشوق إلى جرعة صغيرة أو كبيرة من فرح أصلي، إلا أن يشعر بأن الحياة كابوس والكون أحجية أو متاهة، فضلاً عن انه كتلة شر لا يقبل

الأمّحاء ولا الدحر ولا التقليص. ومع ذلك، فإن الحياة الأصلية لا بد لها من أن تصير النضارة والخصوبة والحيوية، وإلا فليس بوسعها أن تكون سوى التشيؤ الذي من شأنه أن يجتث الذات ويطوح بها إلى هاوية العدم.

وعبثاً يجوس العقل لجج الوجود وأغواره السحيقة ليكتنه أي مغزى أو فحوى، بل ليكشف عن أي موطئ قدم صلد يقف عليه المرء بطمأنينة خضراء. فما الذي يسعه أن يوقف مسلسل القتل اليومي الذي يمتد على سطح كوكبنا المسكين من أقصاه الأيمن إلى أقصاه الشمال، حتى لكأنه زلفى تتزلف بها إلى مولوخ، الوثن الذي يتعبد له القتلة والسفاحون، تلك الأمة المعتوهة المصابة بحمى القتل، والتي تسمى الولايات المتحدة؟

ولكنني شعرت بالغبطة وشفاء الغليل يوم أقدم ذلك الصحفي العراقي على لطم الرئيس الأمريكي بحذائه الذي دخل التاريخ، فهذه هي القيمة الفعلية لأولئك الجرذان الذين يحترفون مهنة القتل. إنهم يملكون أسلحة نووية، أما نحن فلا نملك سوى أحذيتنا نلطمهم بها، ولتمطر السماء حجارة. فهذا الكائن الأمريكي هو شبه إنسان، ليس إلا. وأهم صفاته أن ضميره ميت، ولهذا فإنه يستحق اللطم بأكثر الأحذية اهتراءً. وحين أقدم الزيدي على ذلك الفعل الأصيل، فإنه لم يلطم المعتوه وحده، بل لطم أمركا كلها، أو لطم عصرنا بأسرة، أقصد عصر الصناعة التي جعلت من اليهودي سيداً للكرة الأرضية كلها.

ويبدو أن أية محاولة لكبح جماح هذا المسلسل المخزي، أقصد مسلسل إراقة الدماء، لا يشبه إلا محاولة الهيمنة على اندلاق العاصفة. ولئن لم تكن هناك أية قوة تملك أن تشكم ما يجري من شرور، فهل تلوح على قوس الأفق الكلي أية بارقة أمل أو نسمة عزاء؟ ولكن، يا إلهي، لماذا كانت الأمور على ما هي عليه ولم تكن على أي نحو آخر.

فلا افتئات على الحقيقة إذا ما صرحت بأن الوعي الحساس، مهما يتأجج وينهك نفسه في التنقيب عن ينبوع للفرح أو للسعادة في الزمن الراهن، فإنه لن يعثر إلا على السراب وحده، ولكن شريطة ألا يكون المرء شديد البلادة والاستتباب. أما اللاوعي، الذي هو حال الأطفال ومن لم يبلغوا إلى رتبة البلوغ الذهني، فهو الصانع الوحيد للسعادة في هذه الأيام، بل حتى في هذه الحياة الدنيا الفقيرة إلى ما هو ذو بال. فلقد أصاب المتنبي حين أعلن أن العاقل يتعذب حتى في النعيم، بينما ينعم الجاهل مع أنه مغمس في البؤس والشقاء. وهذا يعني أن العقل هو الجحيم، أو صنف من أصنافه الكثيرة. والراجح عندي أنه ما من أحد يكره الحياة، ولكن المعضلة الكبرى تتلخص في أن الحياة الأصلية لا ينالها الناس، أو غالبيتهم العظمى، وأنا واحد من هذه الغالبية التي لم تنل إلا القليل من المباهج، أو مما هو ذهبي الجوهر حقاً. فكما قال أبو الطبيب:

ومن لم يعشق الدنيا قديما؟ ولكن لا سبيل إلى الوصال.

ولهذا بالضبط قالت البوذية: تشتهي ولا تنال، ذاك هو الجحيم. فالعوز أو النقص، وضمنه المرض، الذي هو نقص يحل بالصحة أو بالجسم، هو أهم ما في أمر هذه التجربة التي نعيش.

وذات مرة صرّح المعري، أجل المعري الكبير العظيم المدهش حقاً، والذي لا أعرف شاعراً أكثر منه قلقاً واضطراباً، بأنه ما نبذ الدنيا إلا لأن أفراحها ومباهجها قد «خنسن» عنه، فعاش محروماً مما يفرح النفس. فقد جاء هذا البيت في لزوميات أبي العلاء:

ولم أُعرض عن اللذات إلا لأن خيارها عني خنسن.

ولكنني أحسب أن هذا التصريح لم يكن سوى نزوة وحسب، وذلك لأن طبع الرجل مغاير لهذا أشد المغايرة.

وفي مذهبي الجانح إلى الاكتفاء باليسير أن الحياة قد تكون شديدة البساطة، كما قد تكون معطاة للإحساس على نحو فوري ومجاني، أو بغير أي جهد: الدفء المشمس في يوم شتائي، زهرة يانعة تنمو في البرية، نسمة باردة في ليلة صيفية، طفل يعبث من حولك فيحيل المكان إلى بهجة مرئية بالعين. فلقد أجاد جرير كثيراً حين قال:

يا حبذا جبل الريان من جبل
وحبذا ساكن الريان من كانا
وحبذا نفخات من يمانية
تأتيك من قبل الريان أحيانا

وعندي أن هذا هو أعذب الشعر وأكثره حلاوة وطلاوة، وذلك لأنه منسوج من البساطة، كما انه ناج من كل زيف أو تزوير. ويروقني البيت الثاني بخاصة، لا لأنني مولع بالأنسام وحسب، بل لأنه صورة لما تهب الطبيعة بالمجان أيضاً. وينطبق على هذين البيتين كليهما ذلك المبدأ الذي يسمونه «جماليات البسيط»، وهو المبدأ القادر على أن يخلق في النفس نشوة منعشةً عبر الاتصال بما أعطي

لها على نحو فوري. ولقد بلغ الشعر التراثي أوجه في الطور الأموي الذي عاش فيه جرير، وذلك لأنه اعتمد هذا المبدأ دون سواه من مبادئ النبوغ الشعري. وهو مبدأ تخلى عنه الطور العباسي الذي عمد إلى التشكيل المعقد المصطنع، وإلى الاهتمام بالصورة أكثر من اللازم، فخسر شطراً لا يستهان به من العذوبة، بسبب ميله إلى التقنية التي هي آفة الآداب في كل زمان ومكان.

وقد يكون اللحن البسيط شديد القدرة على التأثير في النفس. أما اللحن المركب، أو اللحن الأعمق الذي لا يستطيعه الهواة، فلا بدله من أن يكون مزيجاً من عاطفة الحب ووجدان الموت لكي يصير إنجازاً فذاً ذا قيمة عالية. فإذا ما اتحد هذان العنصران اللذان يؤلفان طرفي الحياة التي تبدأ بالحب وتنتهي بالموت ـ فالإنسان سليل الحب ـ إذا ما اتحدا في صيغة واحدة متراصة متلاحمة، كان الفن الأصلي العظيم، وذلك لأن المؤثر (اللغة، الصورة، اللحن) يكون قد بلغ إلى جوف الأعماق في النفس البشرية. ولهذا، اعتقد بأن مسرحية «هاملت» هي أعظم مسرحيات شكسبير، وذلك لأن شخصية هاملت نفسها تجسدّ وحدة الحب والموت بوضوح جلي أمام الالباء. وتليها مسرحية «عطيل» التي هي شكل لحب مجهض يقطفه الموت على نحو لا عقلاني حتمته طبيعة الأحداث.

*　　*　　*

وما من شيء البتة يملك أن يهدّئ قلقي أو توتري المكروب، حتى ولا هدأة الصباح التي ترين على حارتنا كل يوم. ولا أجا في الحقيقة إذا ما قلت بأن النوم هو الفعل الأكثر عسراً ومشقة بين جميع الأفعال التي أقوم بها في هذا الطور الشائخ من أطوار عمري. فأنا لا أنام إلا بعد لأي، أو بعد أن يجلدني الأرق حتى العياء، ودون أية رحمة. ولئن نمت فإنني سرعان ما استيقظ. أما إذا نمت لمدة طويلة، فإن ذلك لا يكون إلا على ندرة فقط.

ومن سوء حظي أنني أينما ذهبت فقد لا أعدم كلباً ينبحني، أو كلبة تهر في وجهي، أو بقرة تخور، أو حماراً ينهق من حولي، ولكن دون أن أعرف لذلك العدوان سبباً مقنعاً سوى اعتقادهم بأنني أجيد عملاً لا يجيدونه بتاتاً. ومما هو في الغرائب حقاً أن مثل هذا الامتهان أو العدوان كثيراً ما يجري حين أنتظر من الآخر إخاءً صادقاً ومودة سمحاء. وعندئذ أشعر كما لو أنني أصبت بالكسوف. فكيف نطلب المبهج فلا يأتينا إلا المزعج؟ وكيف لا يتيسر لآفاقنا إلا أن تكون مكفهرة أو مطموسة بالقتام؟ ويلوح لي أن سخط الذهن على الواقع هو حال دائمة لا خلاص منها في أي يوم من الأيام.

ولكن الأدهى والأمرّ بين جميع الأحوال هو أنني «أقضي النهار أكابد السأما» وذلك لاعتقادي الجازم بأنه ما من شيء يستحق أن يفعل. تعبت من العيش، أو من هذا التكرار اليومي الممل، والذي لا أجد له أية ثمرة قط. سئمت حتى من التنفس، بل مللت من كل شيء. ففيم هذا الكدح اليومي المرهق الذي لا مردود له إلا تزجية الفراغ، حتى لكأن الحياة ليست شيئاً آخر سوى تسلية، ولكنها تسلية مأسوية بكل وضوح. فكثيراً ما أسمع صوتاً يتصادى في فضاء نفسي ويقول: ما هذا السخف الذي يسمى الحياة؟ ولماذا تتعب نفسك؟ وهل هنالك ما هو جدير بالكدح والإرهاق؟ وما جداء هذه الزوبعة الهوجاء التي تؤلف قامة التاريخ؟

ثم إنني محاط بالأمية والغوغائية معاً، بل يُحْدق بي فراغ يمتد حتى يغمر المجرات كلها. فيا له من كون تافه وعقيم هذا الكون الذي نراه بالعين المجردة. ومع تفاهته وبؤسه فإن وجوده يثير الاستهجان، ولا أقول الدهشة، وذلك لأن الدهشة متعة، أو هي تنطوي على فلذة من اللذة. إنه يمثل تحدياً للعقل لا يملك أن يستجيب له. فمن أين أتت المادة؟ أزلية؟ ولكن أنى للذهن البشري أن يتصور الأزل، أو اللا بداية؟ كيف تكونت الأشياء؟ كيف ظهرت في الفضاء الفارغ، أو كيف جاءت إلى الوجود العيني الذي لا يقبل مراء ولا ريباً بأي حال من الأحوال؟ وحتى الريب نفسه من شأنه أن يؤكد الوجود، وذلك لأن الوجود لا يتيسر له أن يكون عدماً، وإن كان ينطوي على العدم. ويبدو أن جميع الماهيات التأسيسية قد تند عن التحديد. ألا يشعر اللبيب بأن الجمال واحد من المستورات المحجوبة عن ذهن الإنسان؟ أليس من المحال تعريف الجمال؟

لولا الألم لقلت: خلاء وحسب. الوجود صنو العدم، أو قل بوضوح إن الوجود والعدم سيان، كلاهما خلاء أو فراغ ينداح وينداح إلى ما لا نهاية. أو يعقل هذا؟ ألسنا أمام وليمة من رماد؟ «كأن العقل منها في عقال». سخف وخواء، ولا شيء سوى ذلك. ولئن لم يكن هذا الشعور صادقاً في نظر الجميع، فإنه صادق في نظري خلال هذا الطور الشائخ الكئيب. ولكنه لم يكن صادقاً عندي يوم كنت شاباً، ولاسيما عندما كنت أمارس الغرام الصبوي اللذيذ.

ومما يسع المرء أن يلاحظه اليوم هو أن رابطة الصداقة بين الناس صارت واهية أو نادرة في هذا الزمان الذي راح يعبد المال ويتخذ من السلعة وثناً يقدسه الجميع. ولعل في الجواز أن يقال بان الفرد المتميز لن يكون إلا معزولاً أو مهجوراً بعد الآن. وان يكون المرء مهجوراً، ذاك أمر له فحوى أو دلالة: الحياة مختلة حقاً في هذه المدن الخاثرة التي لا تقل أي منها عن كونها صنفاً من أصناف المحشر. كما أننا في هذه البلاد نجهل الصداقة الأصلية المتينة أو الملتزمة والعميقة في آن واحد، مع أننا منفتحون كثيراً جداً، حتى في الزمن الراهن. وعندي أنه ما من سبب حقيقي لهذه الحال سوى عبادة المادة، أو تأليه الأموال والبضائع.

ولقد ساءت العلاقات الاجتماعية إلى حد بائس. فأكاد أن اعتقد بأن مداناة المرء لمعظم الناس لا تقل عن أنها صنف من أصناف التلوث المقيت، أو لعلها أن تضمر رغبة مكتومة في سريرة النفس خلاصتها النزوع نحو التمرغ في الوحل. ومما يشجعني على الجنوح صوب هذا المذهب أنني لمست لدى بعض البشر حجماً من المرض النفسي، ولا سيما من الأنانية والنرجسية، هو من الضخامة بحيث لا يتوقعه المرء بتاتاً، أوما كان له أن يكون في الناس قبل جيل واحد. ولعل من شأن هذا الحجم الضخم أن يخفض حيوية المرء وأن يفلّ عزيمته ويثلم مضاءه. فكثيراً ما ترى كائناً تظنه طافحاً بالطيبة والبراءة، ولكنك لدى المداناة والاحتكاك الطويل تكتشف أنه منسوج من اللؤم وخساسة الجوهر.

يقيناً ثمة أناس، أو كائنات من أشباه الناس، لا يطيقون أن يروك تلبس قميصاً جديداً، أو قادراً على أن تكتب جملة مفيدة، مع أنهم عاجزون عن أي فعل أصيل، ولكنهم يطيقون أن يروا لصاً سرق المليارات من المال العام، ويخنسون أمامه دون حراك، لأنه قادر على أن يهشم جماجمهم. كما يطيقون أن يروا الناس يقتلون يومياً في غزة والعراق وسواهما دون أن يبالوا بذلك كله. ويبدو أن الغيرة أو الحسد داء لا شفاء للبشرية منه. وهذا ما قد عززّ لدي الرغبة في الاعتزال، أو في الاستنكاف عن التماس مع كل ما يحمل عدوى الاتضاع. ولكن المفارقة الحادة هنا تكمن في أن الناس كائنات لا يستطيع المرء أن يعيش وإياها بهدأة بال، كما انه لا يستطيع أن يعيش من دونها ولو لأسبوع واحد فقط.

ترى، هل أكف عن لبس أي قميص جديد أنيق لأن بعض الناس يستاؤون إذا ما رأوني ألبس قميصاً جديداً؟ أأكف عن نشر كتاب لي لأن هنالك من لا يطيقون أن انشر كتاباً؟ يقيناً إنني أكره أن أزعج أحداً، أياً كان، ولكننا في زمن الطباعة والنشر. حتى الأميون قد اخذوا ينشرون الكتب. فلماذا إذا يجب عليّ أنا وحدي أن أتوقف عن النشر؟ أفلا أكتب لأن نفراً من الناس يغتاظون إذا ما كتبت؟ وأنا لا أجد أيما عزاء لي إلا في الكتابة، مع يقيني سلفاً بأن الناس قلما يطالعون ما أكتب. ولكن أهم ما في الأمر أن الكتابة نفسها فعل لذيذ، شأنها شأن كل عمل خلاق يملك أن يقنع المرء بأن يخضور الحياة ينساب في شراييه الغضة.

وربما جاز لي أن أزعم بأنه ما من قيمة استثنائية لأي مجتمع إلا إذا كان يصلح كحاضنة لكتابة أدبية وفكرية عالية المستوى، حاضنة تعمل باتجاه تحرير الفرد ورفع القيود عن روحه كي تنطلق باتجاه الإبداع أو الابتكار الذي أراه عتلة ترفع الحياة إلى أسمى الآفاق. فأنا أومن بأن المجتمع الذي لا يملك أن يعزز الفنون والآداب والأفكار الرفيعة المقدار ليس سوى تجمع همجي يسكنه المحل والذبول. ترى، ماذا عساها أن تكون قيمة مجتمع تهيمن عليه عصابة من التجار والمترسملين، بينما يشعر فنانه بأنه غريب عنه غربة المسيح بين اليهود، كما كان يشعر المتنبي أو يقول؟

ومما هو مؤسف اشد الأسف حقاً أن ليست هنالك خامات في الطور الراهن تستطيع أن تنتج حياة أمتن واصلب من هذا الهلام الخاثر الموهون. نعم، ليست هنالك خميرة وليس هنالك بذار يقدر على أن يثمر المستقبل المأمول أو ينتجه ويرسخه إلى الحد المقبول. إننا جميعاً ننتظر أن يجيء المستقبل الزاهر، ولكنه لا يجيء إلا على ندرة وحسب، حتى كأن الزمن الكلي راكد متأسن، ويجهل أيما حراك، اللهم إلا أن يكون ذلك صوب الوراء. وهذا يعني أن اختلالاً كبيراً قد ألم بالحياة البشرية فأفقدها كل ما كانت تتمتع به من عذوبة وحلاوة.

وفي تقديري أن الظروف الخارجية هي التي تتحمل المسؤولية الكبرى عن هذا الشعور المتصلب أو المتشنج. وإن كان لطبعي إسهام في هذا الرفض للوجود، فهو يأتي بالدرجة الثانية بعد الشرط الموضوعي المتخثر. فربما أخطأ ذلك الشاعر الفلسطيني الذي ادعى ذات يوم إنك وحدك الملوم إذا لم يغنّ الكناري لك، وكأن الواقع لا لوم عليه ولا تثريب. فالإنسان، دون أدنى حاجة إلى الجدل، كائن مشروط. ولهذا، أراني أو من بأنه ما ثمة إلا الجبر والإرغام ووهم الحرية. أجل، إن الحرية (ما عدا الحرية المدنية القابلة للزيادة والنقصان) لا تزيد عن كونها مقولة سكها الوهم خلال غيبوبة الوعي. فما دمت لم اختر ولادتي، ولن أختار وفاتي، كما أنني لم أختر الفقر والكثير من الحوادث الكبرى التي عشتها، ولا سيما المرض، فعن أية حرية يتحدث المتوهمون أو المتشدقون؟

ولكن طبع الأشياء شديد المكر والخبث والقدرة على الاحتيال. فقد استطاع أن يزوّر الأمر وأن يوهمنا بأن الجبر هو الحرية ذات الثوب الأملس ذي الألوان الزاهية. ومع ذلك كله لا بد من التأكيد على أن الأشياء لن تزهر بين يديك، ولن تلبس لك زينتها إلا إذا سقيتها حناناً ينبع من سويداء فؤادك حصرا، ولكن دون إغفال الشروط. ولولا اللاوعي لما كان في الميسور أن تنطلي هذه الخدعة على البشر. فاللاوعي إغماء أو غيبوبة نسبية تصيب العقل إصابة دائمة، مع أنه أنفس النفائس كلها. ولا بد لي من الاعتراف جهراً بأنني كثيراً ما تلغيني هذه الغيبوبة، ولا سيما عند شدة حاجتي إلى عقلي الذي قد يتركني في بعض الأحيان نهباً لأوباش وأوغاد ينخرهم سوس اللؤم وخساسة السليقة. وعندئذ يقتنص روحي كائن غبي تافه من أشباه البشر. وإنه ـ وايم الحق ـ لحادث جلل أن يتمكن الخسيس من اقتناص النفيس. فالذي قتل المتنبي، مالئ الدنيا وشاغل الناس، بدوي «لا تعرف قرعة أبيه من أين»، كما يقول المثل الشعبي.

ولقد أدلى الشاعر الآنف الذكر نفسه بهذا القول في إحدى قصائده: هرمت، سئمت من المجد، لا شيء ينقصني. هنيئاً لك، يا درويش، أيها الشاعر المرموق، ما دمت لا تحتاج إلى أي شيء. أما أنا فلم أسأم من شيء بمفرده، وينقصني كل شيء تقريباً. ولكنني سئمت من الجملة بأسرها، من الكلية كلها، ومن انتظار مجيء الأشياء التي قد تعزّي النفس وتحمل لها السلوان، ولكن دون أن تجيء

بتاتاً. وفي حسباني أن المرء إذا مات مشبعاً ومظفراً، ولا ينقصه شيء، فإنه قد يموت مرتاحاً، أو قد يرضى بالموت ويتلقاه دون أن يشعر بالكثير من الكآبة، وربما رأى فيه عندئذ ضرباً من ضروب الخلاص. فمما هو جائز أن تكون التخمة أساً لسأم لا يطاق ويتطلب مخرجاً كأنه معضلة تستدعي الحل أو الخلاص.

* * *

في الماضي كان هنالك الزهاد الذين يعيشون في البراري والغابات، أو ينامون تحت الشجر، وأحياناً في الكهوف وما إليها، ويقتاتون بالعشب والجنادب. أما اليوم فما من أحد يقنع أو يشبع أو يكتفي بالقليل. ومن الغرائب ألّا يكون هنالك أحد يعنى برفض هذه التفاهة العديمة القيمة والسريعة الزوال. ومع أن الحياة تركل كل امرئ في قفاه يومياً، فإنه يبتلع الإهانة ثم يمضي إلى جشعه الذي لا يشبع، وإلى أنانيته التي يعبدها، حتى لكأن الركلة حافز يحفزه إلى المضيّ قدماً نحو المزيد من الرضا بهذه الدنيا الدنية. وههنا أراني أتذكر بيتاً لأحد الشعراء يقول:

أرى أشقياء الناس لا يسأمونها ولو أنهم فيها حفاة وجُوَّع.

يا إلهي كيف يمكن للمرء أن يستمرئ هذه الحياة، مع أنها طافحة بالمنغصات الهائلة؟

ولكن، أليس مما هو خانق ألا يكون هنالك على سطح هذا الكوكب المشحون بالضوضاء أحد تحنّ إليه النفس وتشتاق؟ أليست حياةً خاثرة عقيماً تلك التي تعاش على هذا النحو الناشف أو الخالي من الشوق والحنين؟ ففي الحق أنني يندر أن أتوق إلى إي إنسان بعينه، بل أكاد ألا أتوق إلى أي متاق بتاتاً. ولكن عليّ أن أكون صادقاً تمام الصدق. ولهذا يجب عليّ أن أعترف بأنني ما زلت أحن إلى امرأة بعينها، وأود أن أتكتم على أسمها. بيد أن حنيني إليها ما عاد دائم التوقد كما كان من قبل، بل هو يجيء على هيئة نوبات تشتعل ثم تخمد حتى تستحيل إلى رماد، وبكثير من السرعة. فلا بد للحب من أن يشيخ على نحو تلقائي حين تشيخ النفس والجسد.

وربما جاز الزعم بأن البشر يموتون قبل أن يموتوا. ولكن ما يثير استهجاني هو أن المبهج سريع التبخر من الذاكرة، أما المزعج فيرسب في قعرها ويترسخ هنالك لا يريم.

بيد أنني أكابد حنيناً وطانياً أو نكوصياً دائم التقهقر باتجاه ماض غابر قديم جداً، أو نحو عهد الكهوف، بوم كان الوعي البشري لا يزال في بداية فجره، أو

أقله إلى طور الأساطير الوثنية في الحضارات العالية التي تجاوزت الرعي والزراعة باتجاه الحرف والتجارة، فأنا أسمع نداءات صادقة تأتيني من قبل جميع الأزمنة، ولا سيما تلك الموغلة في القدم، كما أحبذ جميع العصور التي سبقت البخار، بل حتى زمن البخار الذي سبق الكهرباء، وهي التي أنارت العالم وأطفأت روح الإنسان.

فليت الذهن لم يخترع هذه الطاقة الجحيمية، أو لم يعممها، اذن لظلت الحياة أفضل، أو أقل سوءاً مما هي عليه الآن، ولما كنا نحن الفلسطينيين قد خسرنا وطننا لصالح أكثر الناس خسة ونذالة فمما لا يقبل مراءً أن هذا العرام الذي تعيشه الامبريالية طوال السنوات المائة والأربعين الأخيرة هو من نتاج الصناعة، بل حصراً من نتاج الكهرباء التي أنتجت هذا العالم الحديث كله. ولو لا هذه الصناعة التي طورت السلاح إلى أن صار صنواً لجهنم لاستطاع الفلسطينيون أن يطردوا اليهود من فلسطين بالعصي والحجارة والسكاكين. ولعل في الميسور الزعم بأن عالمنا الراهن قد أصيب بالهرم لشدة ما تطور ونضج. فكل شيء حي يدمره نضجه الخاص.

ولهذا، فإن التطور، وليس أي شيء آخر، هو ما سوف يخلص الشعوب من الإمبريالية والصهيونية كلتيهما، وذلك لأن الاتجاه صوب الشرق هو اتجاه صوب الغرب في آن معاً، أو قل إن الإفراط في تطوير الصناعة سوف يؤدي إلى انهيارها. وإذا ما انهارت الصناعة انهارت معها المجتمعات الامبريالية التي تضطهد الشعوب وتنهبها وترتكب فيها أشنع المجازر والشرور. وهذا يعني أن الخلاص يكمن في التطور نفسه حصراً وتحديداً.

* * *

وأكاد أجزم بأن أولى الحقائق التي ينبغي أن نعرفها عن الإنسان (النفس) هي هذه الحقيقة الشديدة النصوع: الإنسان كائن أناني مهموم على الدوام بغاياته الخاصة. قل كل يعمل لأنانيته. أما غايته الكبرى فهي السيادة والبروز والتفوق على سواه من الناس، أي أن يحوز القوة بأنماطها كافة: الصحة والمال والنفوذ والسلطة والمعرفة. ولهذه الغاية بالضبط باع فاوست روحه للشيطان. أجل، باعها ليحوز أقصى أمداء القوة، وربما فعل ذلك كي يقاوم ما يعانيه من شعور بالصغار، فالإنسان لا يطيق أن يعيش مطموس القسمات، أو بغير أية قيمة أو أهمية، أو قل إن هذا هو حال الغالبية العظمى من البشر.

فما من مثنوية موضوعية في الحياة الحيوانية بأسرها، ومن ضمنها الحياة البشرية، قبل مثنوية القوة والضعف. وكل ما هو محرّم قد حرّم على الضعفاء

وحدهم، أما الأقوياء فلهم كل ما تطاله أيديهم كما أن شدة التحريم تتناسب طرداً مع شدة الضعف. ومن خصائص القوة أن تعربد، أو أن تظل تصول، أو تتدفق، حتى تستهلك نفسها، ما لم تشكمها قوة أخرى تبذها زخماً، فتضع لها حداً يحدها ويرغمها على التقلص والامحاء.

وهذا يعني أن القوة هي السيادة التي تجعل المرء مخدوماً وليس خادماً لأحد، كما تجعله قادراً على أن يمنح الحياة لمن يشاء. وهذا يعني أن مالك القوة، أو صاحب السيادة، شديدة الشبه بالإله المهيمن على كل شيء. وههنا تملك أن تدرك السبب الذي جعل الناس يبجلون الرجل المتفوق والمرأة المتفوقة، كما تملك أن تلاحظ تكالب الغالبية العظمى من الناس على المال والنفوذ في هذه الأيام. وكلنا يعرف قول الرسول: «المسلم القوي خير من المسلم الضعيف....».

فما عبد الإنسان شيئا سوى القوة، أو سوى أنانيته، سيّان، وذلك لأن القوة وحدها تملك أن تشبع حاجته إلى النفوذ والبروز والتسلط على الآخرين. ولكن الميل إلى حيازة القوة يختلف من فرد إلى آخر. فهناك من يحب النفوذ، وهنالك من يحب النقود، وهنالك من هو متطرف، وهنالك من هو معتدل، بل هنالك من هو خامل كثيراً أو قليلاً. ولكن هذا الرصد الذي أقدمه لطبيعة الحال لا يتضمن دعوة إلى عبادة القوة، تلك العبادة التي دعا إليها نيتشه، ذلك الواهم الكبير الذي منح الحرب قيمة جلى، وكأن البشرية بحاجة إلى المزيد من المصائب والشقاء. يقيناً، إن الذي يلزم البشرية بإلحاح هو نزعة إنسانية أو إخائية طيبة ونبيلة تسعى إلى تحسين الحياة التاريخية عبر التخفيف من ويلاتها وكوابيسها الخانقة للبشر.

وبما أن عبادة القوة هي أصل الشرفي هذه الدنيا، أو ينبوع البؤس البشري في كل مكان وزمان، وذلك لأنها سبب العدوان والهمجية والنهب والاستغلال، فقد عمدت بعض الأديان في الشرق إلى تجريد الإنسان من قواه بواسطة الزهد وتعذيب الجسد، الزهد بالدنيا أو رفضها والتنكر لها، وتعذيب الجسد بالجوع والتبتل والحرمان. أما الغاية من ذلك فهي كفه عن الشرور بتجريده من طاقته التي هي وقود حركته أو مصدرها الوحيد.

فالشرور التي تملأ الأرض حتى الجمام تنبثق من الأنانية والشراهة والاندفاع بإفراط صوب حيازة القوة بغير حدود، أي صوب الهيمنة على الآخرين وتركيعهم. فمن الجشع الذي هو التجلي الأكبر للأنانية المعتلة أو المختلة، تندلق جميع الشرور التي يصنعها البشر على سطح هذا الكوكب المسكين. وربما جاز الزعم بأن الأنانية والشراهة لا تكفيان تماماً لكي يجيء الشر إلى الوجود، بل ينبغي أن تضاف أليهما القوة ليكمل الثالوث الصانع للشرور في الحياة بعامة، وفي الحياة التاريخية بخاصة. فمن أبرز خصائص القوة أنها تندفع ابتغاء التضخم، ثم ابتغاء المزيد من التضخم، أي أن القوة نفسها تجنح دوماً صوب حيازة القوة.

بيد أن العنصر النبيل في ماهية الإنسان لا يتجلى في هذه الحقيقة الأولى التي تتخلص بعبادة القوة وتوثينها، بل هو يتجلى في الألم الذي قد يرغم أعتى العتاة وأنذل الأنذال على أن يرعوي ويتعاطف مع المتألمين. إننا قد لا نبتهج إذا ما شاهدنا إنساناً مبتهجاً، ولكننا نتألم، ولو قليلاً، حين نرى إنساناً يتألم. هنالك بيت شعر مشهور لابن عبد القدوس فحواه أن الجنازة والعرس (أو الزفة) إذا التقيا، فإن العرس يصمت، بينما تبقى الجنازة على حالها. وهذا يعني أن الألم أعمق من الفرح بكثير. ولعل ذلك البيت الشعري أن يلخص فلسفة الألم بكاملها. أما معناه النهائي فهو أن الألم هو الإيقاع الأكبر في السمفونيا البشرية كلها.

وليس بالصدفة أن يكون الألم أكبر كاشف لماهية الإنسان. ففي الحق أن الفرح عرضي في الحياة، أما الألم فمصيريّ بكل ما في هذه الكلمة من معنى. ثم إن الألم هو بؤس البشر على أوضح شكل ممكن. وهو يؤكد ما فحواه أن حجم الشقاء شديد الضخامة والمقدار. ولهذا فإنه الأتون، أو الجحيم الدنيوي، الذي يحرق فيه الناس وهم أحياء. فيا طالما سفحت البشرية من دموع خلال مئات القرون والأجيال الغابرة، ولكن دون أية جدوى، أو دون أي مردود. وهذا يعني أن آلام الناس تجهل الحدود، وذلك لأن الشرور لا نهاية لها بتاتاً. ثم إن دموع البشرية لم تجد فتيلاً، فقد ظل العالم مرير المذاق، على الرغم من تطوره الطويل الذي لم يحسن شيئاً باستثناء الأدوات. فقد ظلت النفس، أو مصدر الشر، هي هي منذ عصر الكهوف حتى اليوم.

* * *

ولعل مما هو ناصع لكل عين بصيرة أن الإنسان كائن مركب، أو شديد التعقيد في بنيته الباطنية واختلاط عناصره النفسية، بل هو غني جداً بالمكونات التي تؤلف قوامه الداخلي. ولا ريب عندي في أنه أعقد بكثير مما ظن كل من ماركس وفرويد اللذين يحتاجان إلى الكثير من النضج. فمع أنهما نقلا صورة النفس من الخيال إلى الواقع، فإن نظرية كل منهما قد جاءت ساذجة إذا ما قورنت بنظرة الأقدمين الذين رأوا النفس بوصفها سراً من الأسرار الوجودية المكتومة، وذلك لشدة استتارها واستعصائها على الإدراك العلمي أو المنهجي المفضي إلى يقين. ولكم كان ابن عربي إيحائياً حين قال: «أنت الطلّسم الأعظم والقربان الأكرم»، أي إنك أنت اللامفهوم بالضبط، أو الطلسم الذي لا يتيسر لأحد أن يفك رموزه أو يكتنه ماهيته بكامل جملتها أو فحواها.

يقيناً، إن الإنسان أكثف من أن يفهم تمام الفهم، بل هو أعقد من أن ينصاع لأي تحليل شامل. ومما يزيد في الطين بلة أننا لا نملك أن نميز بين السبب والنتيجة.

فمثلاً، اخترع اللغة فاخترعته اللغة. وربما جاز الظن بأنه اخترعها ليخترع نفسه ويطورها إلى أفق رفيع المستوى. فمن المحال أن تكون هنالك نفس بغير لغة، أي بغير عقل، وذلك لأن اللغة واللوغس، أو العقل، شيء واحد. وهو ليس كائناً لغوياً وحسب، بل إنه كائن عاشق على الدوام أيضاً. كما أنه يكره النهاية ويتمنى الديمومة والبقاء أو الاستمرار. أما اللذة الجسدية وغير الجسدية، فتسحره تمام السحر. ولكنه يمقت الألم والوجع ويتمنى ألا يمسّاه بتاتاً. ومع أنه لا يطيق العدم، فإنه ليس أمامه سوى اتجاه واحد، وهو الاتجاه صوب العدم أو القبر. وهذه حقيقة تلوعه أو تنغص عيشه، حتى وإن ظهر بمظهر الراضي المطمئن. ومما لا يخفى أن هذه الحقائق التي يضمها في بنيته الباطنية هي عناصر شديدة التباين بكل وضوح.

ولا يجوز الذهاب إلى أن لذائذ الإنسان جسمية كلها، بل هو مأهول بغريزة التلذذ بما هو صوري محض في ماهيته النفسية. ففي الحق أن الإنسان هو الكائن الاستصواري الوحيد على الأرض. وهذه الغريزة اللاذة هي التي طورت الآداب والفنون والأفكار التي عتقها الزمن على مهل، بل طهاها على نار لينة. ومن فاحش الغلط أن يزعم أحد، كما فعل فرويد، بأن هذه اللذائذ النفسية هي بدائل عن اللذائذ الجسدية، وذلك لأن اللذائذ لا تقبل الاستبدال. فالماء لا يغني عن الطعام، والطعام لا يغني عن الماء أيضاً. والإنسان تسحره الأخيلة والأجواء النائية عن الواقع، وذلك لأنه يضيق ذرعاً بالمياومة المحدودة أو الفقيرة بالعناصر الممتعة أو المبهجة. ولهذا، فإنه يعشق الأساطير والحكايات والروايات والقصص، بل كل ما ينتسب إلى النائيات أو يأخذ إليها، بفضل قدرته على منح المتعة الفاتنة أو اللذة المنعشة في عالم لذائذه محدودة أو شحيحة.

ولا يخفى على أحد أن الإنسان كائن يحب السياحة والخروج من المألوف إلى اللامألوف، أو من سياق حياته الرتيب إلى سياق مترع بالبكارة والنشوة التي تصنعها الجدة أو طاقة الابتكار. ولهذا قيل: «اغترب تتجدد.» وربما كانت الرغبة في كسر الرتوب، أو الجنوح إلى العيش في الأجواء الخيالية، هو الينبوع الذي تنبع منه المجازات اللغوية وجميع أصناف البديع الرامي إلى جعل اللغة عذراء باستمرار.

وفي تخميني أن مبدأ السياحة التي هي شكل من أشكال الحرية، أو الميل إلى التجدد والخروج من المألوفات لضيقها، والجنوح إلى الأخيلة لسعتها، هو الذي يملك أن يفسّر لنا ولع الأطفال بالحكايات، بل ولع الناس طراً بكل ما هو ليس من فصيلة الواقع. ويبدو أن نزعة السياحة والحنين إلى الغرائب هما اللذان جعلا «ألف ليلة وليلة» أكثر الكتب رواجاً أو مبيعاً في عدد كبير من بلدان العالم. ومن شأن هذه الحقيقة أن تؤكد ما فحواه أن السياحة عنصر تركيبي ثابت في بنية النفس

التي تحتوي على الكثير من العناصر الراسخة رسوخ الأطواد. ففي الحق أن ذلك الكتاب نفسه سياحة في ممالك الخيال.

وربما كان جلياً لكل مقلة باطنية أن السياحة نتاج لميل النفس إلى التفتح ابتغاء استقبال الحياة الوافدة من الخارج إلى الداخل. فالنفس تتفتح على الأشياء كما تتفتح الأكمام على الأنسام. إنها الرغبة في الاتصال، بل في الالتحام بالموضوعات التحاماً مترعاً بالحيوية ونضارة الوجدان.

إنه التطلع الدائم صوب ينابيع الأنوار. ولعل من شأن هذا الميل إلى الالتحام أن يؤكد ما فحواه أن يخضور الحياة يملأ الشرايين. ولكن نزعة السياحة هذه ليست غراماً، ولا تغني البتة عن الغرام، مع أنها شديدة الشبه بالغرام، وذلك لأن الشيئين انفتاح على موضوع يقع خارج الأنا.

ثم إن انتشار «ألف ليلة وليلة» في الزمن الراهن، مع أنه يتحدر إلينا من عصور موغلة في القدم، وكذلك من عدة أماكن على سطح هذا الكوكب، هو آية أو بينة ناصعة تمام النصوع، ومؤكدة تمام التأكيد، على أن النفس البشرية تأهلها عناصر ثابتة لا تتبدل بتبدل الأماكن والأزمان. فالنفس تحب أن تسحر، ويحوز هذا الكتاب قدرة هائلة على أن يخلبها ويجذبها. (قرأته أربع مرات في حياتي.)

ذات يوم طرح ماركس هذا السؤال: «لماذا يسحرنا الفن اليوناني، نحن الذين نعيش في زمن الصناعة، مع أنه قد أنتج في طور العبودية؟» ولكن الرجل لم يجب عن سؤاله هذا، مع أن الإجابة يسيرة بالفعل. يسحرنا الفن اليوناني لأنه جاء من صميم النفس البشرية المشترك والذي لا يتغير بتاتاً. فالنفس قد لا تغير سوى لحائها وحسب، أما لبها فثابت على الدوام لا يعنو لأي تحويل أو تبديل.

لقد جاء الفن اليوناني، مثل «ألف ليلة وليلة» ومثل كل فن أصيل، وكذلك مثل الموسيقى والغناء والرقص والخمرة التي تملك أن تحيل النفس على اللامألوف، أو على حال عذراء تملك أن تقاوم الرتوب، جاء من الراقة المشتركة بين جميع البشر الذين عاشوا في أي مكان أو زمان، أو من الثابت النسبي الذي يتغير ببطء شديد جداً. وبسبب وجود هذه الثوابت الراسخة في الأغوار، فإنني أجنح إلى الريب في أن يتمكن أحد من أن يلحد تمام الإلحاد، حتى وإن ادعى أنه ملحد بلا حدود.

* * *

أما أنا فيساورني شعور دائم بأنني أحتاج إلى الالتقاء بالمنجزات الفنية وتأملها وتذوق محتوياتها. فإذا ما أردت الاستمتاع بالفن ذهبت إلى الجامع الأموي لأتأمل

رحابته وفخامته الملكية، أو إلى جامع الشيخ محي الدين، لأستمتع بجمال قبته ومئذنته الفاتنة. وكثيراً ما نظرت إلى كل من هذين الجامعين العظيمين وكأنه جواب عن سؤال الوجود حصراً، أعني سؤال الغاية التي يبتغيها الإنسان من وجوده، أو يضعها نصب عينيه. إنها إنجاز الأفكار والفنون والآداب وكل ما يصقل الشخصية ويهذبها. وإن مجتمعاً لا يرتب نفسه بحيث يستجيب لهذه المهمة هو مجتمع منحط بالضرورة. فالكمال هو الطلبة النهائية للإنسان.

ولكنني، إذا ما أردت الاستمتاع بالجمال، فإنني أذهب إلى بلودان، أو إلى وادي بردى، وربما ذهبت إلى جبل الشيخ والمجرى الأعلى لنهر الأعوج، حيث الرياح في بعض الأحيان، ولاسيما بين عرنة ودربل، تتبدى وكأنها تلقي مرثاة على مسامع الكون، أو ترثي عالماً نخرته شيخوخته الخاصة به، فاتضع أيما اتضاع. وما من أحد يدري ما إذا كان سوف يصعد من جديد أم يظل في بطن الحضيض ساكناً لا يريم. ولكثرة ترددي على تلك الأماكن، ولاسيما على وادي نهر بردى، فقد صار بيني وبين الأشياء ألفة وحنو أو تعاطف متبادل دائم. وراقني كثيرا أن أطل من تلة النبي هابيل على الوادي الأخضر، ولاسيما في الربيع، أو في نيسان حصراً. فالمشهد لا يخلو من جاذبية، أو من قدرة على الخلب، وأنا أحب الذرى والأماكن المرتفعة حباً جماً.

* * *

ويلوح لي أن بحث الإنسان الدائم عن مكانته أو عن رتبته الخاصة، أو قل عما يشبع أنانيته، هو واحد من أبرز أنشطته وأعماله، إن لم يكن أبرزها على الإطلاق. فهو في الغالب لا يطيق أن يكون هامشياً نافلاً، أو عرضياً، أو منفياً إلى حيز الذلة والمسكنة. ويبدو أنه ما من إنسان إلا ويشتهي السلطة والجبروت، حتى الخانعون والدونيون. وهو إذ يفعل ذلك فإنه لا يستجيب لأنانيته وحسب، بل يؤكد أهميته وقيمته الخاصة أيضاً. إن الإنسان معني بالقيمة الذاتية، أو بالكرامة والشرف والرفعة، تماماً بقدر ما هو معني بالمال والحب والخلود، أو البقاء في الحياة بدلاً من الغوص في العدم. وربما جاز الظن بأنه ينشط باتجاه التفوق ابتغاء أن يقنع نفسه قبل سواها بأنه حي أو موجود، وليس عدماً ولا نكرة، أو قريباً من الحيوانات.

ثم إن الرغبة في التألق واللمعان، أو في أن تتحول النفس إلى قدوة يقتدي بها الناس ويصيرون أتباعاً لها ويتخذون منها نجمة تهديهم سواء السبيل، هي التي تحث الفرد، ولاسيما الفرد الفريد، على أن يثبت حضوره الكفؤ في الواقع التجريبي الحي. ولا غلو إذا ما زعمت بأن الإنسان يرغب على نحو لا شعوري

فـي أن يصـير شمسـاً أو قمـراً أو نجمـة قطبيـة ترشـد المسـافرين فـي الليـل، أو السائرين على درب الحياة. وما أقصده بالضبط أن يصير بارزاً مثل الكواكب التي تشع دون انقطاع. فمن المحال ألّا يكـون للنـور تـأثير علـى بـاطن الـنفس المكتـوم، علماً بأن النور هو الشرط الأكبر لوجود العقل في الإنسان.

وربما استطاع التمحيص أن يكتشف صورة جبل شـاهق تـربض فـي سـريرة كل إنسان سليم العقل. وهو يتخذ من هذه الصورة رمـزاً بـدئياً صـامتاً لرغبتـه فـي العلو والسمو، أو فـي الابتعـاد كثيراً عـن أي مستوى خفيض، ولاسيما مستوى البهائم والمنحطين. ولـدى دراسـة شـعر المتنبـي بأنـاة وتمحـيص، فـإن المـرء قـد يكتشف صورة جبل مبثوثة في قاع لغته، ولاسيما مجازاته. كما قد يلاحـظ صـورة سـيف أيضـاً، وكـذلك صـورة حصـان يسـبح فـي الآمـاد. ولا يخفـى علـى أحـد أن المتنبي شديد الميل إلى البروز، بل شديد الرغبة في التحول إلـى زعـيم مطلـق، أو إلى قدوة للعالم بأسره. ولدى دراسة شعره ينبغي الانتباه إلى صورة الشمس وإلـى اتخاذه لها رمزاً يرمز إلـى المركـز الكـوني الـذي يتمنـى هـو نفسـه أن يمثلـه تمـام التمثيل. كما ينبغي الانتباه إلى صورة البحر الذي يراه مصدراً للخير، والذي يمـت إليه بصلة من نوع ما.

ومع ذلك، فإن الإنسان، وهو الكـائن المتشـبث برمـوز الشـموخ والتـألق معـاً، تحتّم عليه بنيته الداخلية، أو طبعـه، أن يكـون مخادعـاً محتـالاً وغارقـاً فـي الكـذب حتى سمت الـرأس، وذلـك خدمـة منـه لأنانيتـه التـي قلمـا يخـدم سـواها. أجـل، إن الإنسان كذوب ولا يوثق به إلا لماماً وحسب. فكما قال هاملت، إن الإنسان الطيـب هـو فـرد واحـد بـين عشـرة آلاف فـرد. وفـي الحـق أن معظـم الـذين سـخروني لأغراضهم الخاصة قد حاولوا إيهامي بـأنهم يعملـون هـذا العمـل الغـادر مـن أجـل مصلحتي الخاصة، ليس إلا.

كما أن الإنسان، دون مراء، كائن مثنوي، شأنه في ذلك شـأن جميـع الكائنـات الأخرى، بل لعله أن يكون الحامـل الأكبـر للإنشـعاب فـي هـذه الـدنيا. فهـو سـخيّ وبخيل في آن معاً، شجاع وجبان، ذكـي وغبـي، طيـب وخبيـث.. الـخ. ومـن أبـرز صفاته أنه خيـالي وواقعـي فـي صـميم ماهيتـه. وهـو خيـالي لأن الواقـع لا يـروي غليله، أو لا يشبع حاجته إلـى الغرائـب والأعاجيـب المدهشـة، بينمـا يـأتي الخيـال ليمنحه برهة طازجة تصلح إجازة من الضيقات والمألوفات، أو مـن لعنـة التكـرار الممل الذي يضرب حصاره علـى الـروح دون فكـاك. وهـذا يعنـي أن الخيـال قـوة تحرير من اليومي الذي يشبه قفصاً يحبس النفس ويخنق الأنفاس.

ثم إن الذكورة تختلط بالأنوثة، والنزوع نحـو الأعلـى يصـاحبه نـزوع صـوب الأسفل، كما أن الميل إلى الاستتباب يرافقه ميل إلى الاضطراب. وكثيراً مـا يلـوح لـي أن أولـى وظـائف الأدب، ولاسـيما الروايـة والمسـرحية، هـي شـرح التعـدد الـرابض فـي الـنفس، أو فـي الشخصـية، وشـرح انشـطاراتها وتشـعباتها الكثيـرة.

وبسبب جملة هذه المثنويات والانقسامات كانت الفروق بين الأفراد هائلة حقاً. وربما جاز الظن بأن شطراً كبيراً من جهد المرء يبذل في سبيل إنجاز الفرق المؤسس للفرد، إذ لعل مما لا يخفى على الأنباه أن الفرد والفرق بينهما صلة اشتقاقية ناصعة. وهذا يعني أن الفرد لا ينفك عن الفرق بتاتاً.

فلا محيد لك عن أن تلاحظ في الحياة اليومية مسافة كبيرة تفصل بين فرد وآخر دون خفاء. وما من أحد يملك أن يدرك هذه الحقيقة المؤكدة كما يدركها معلم المدرسة، وهو من يتعامل يومياً مع أطفال يمتدون فوق مدى يتراوح بين النوابغ وبين أنصاف المعوقين من الناحية الذهنية. فالفرق الصانع للفرد هو بيت القصيد في هذه الدنيا، وذلك لأنه يخلق عدم التجانس بين الكائنات، وعدم التجانس، أو التمايز والتباين، هو الذي يكافح الرتوب والأحادية، أو النمط المتماثل. ولولاه لما كان هنالك سوى لون واحد فقط. ولهذا، فإن الفرق، أو التمايز، هو أقدر السمات على إيقاظ الطاقة الغافية في الأعماق ابتغاء دفعها نحو ملامسة الأشياء أو تجريبها.

* * *

الإنسان؟ ما هذا الكائن الذي يمحّي مع إمحاء الدقائق والساعات، وكلما طوى يوماً واحداً طوى شطراً منه أو من رصيد كينونته الخاص!؟ فهو كائن يموت في كل لحظة، وعمره كلما زاد نقص. وهذا يعني أنه منسوج من الزمن على وجه الحصر. وبما أن حس العدم يزلزله، أو يجعله يرتجف ويميد، فإنك تراه شديد الاهتمام بمثنوية الديمومة والزوال. إنه يتمنى البقاء في الزمان حتى ولو كان يكابد عضاته الناهشة ولسعاته الكاوية. ولهذا السبب، فإنك قد ترى بعض الناس وهم يحاولون أن يوهموا أنفسهم بأنهم أصغر سناً مما هم عليه حقاً، وذلك بأن يخفض المرء عدد سنوات عمره قليلاً أو كثيراً. ولكن هؤلاء الناس على درجة من الإغماء بحيث تحرمهم من أن يدركوا أن مثل هذا التزوير لا ينفع ولا يضر بتاتاً.

ومهما يكن الأمر، فإن الإنسان، هذا الكائن المشحون بالعناصر المتباينة، والذي تتعاوره الأطوار والأزمان الشديدة الاختلاف، هو مخلوق بغير أسانيد من شأنها أن تحمله على نحو مكفول. فهو كائن قصيم ربما لحق به عطب مفاجئ لم يكن في الحسبان. وتستطيع أصغر حادثة سوء أن تشعثه وتخرش شعوره الرقيق. ولا مراء في أن هذا المخلوق المولع بالتلألؤ كالشمس هو في حالة إدخال مؤقت إلى الوجود العيني، حتى كأنه سجين أبدي في سجن العدم، وقد استطاع أن يفر من حبسه ويغيب عنه ريثما يتم القبض عليه من أجل الإنابة به إلى مكانه السرمدي

مرة ثانية. ولكنه يفضل هذا الوجود وصولاته الفاتكة على الإقامة الجبرية في العدم الحيادي الذي يجهل السعادة والشقاء في آن واحد.

إنه مملوك للموت الذي لا يخطؤه، كما قال طرفة بن العبد في معلقته الرائعة. فهو مربوط بحبل المنية، ومن عادة المنية أن تثني الحبل بيدها متى شاءت، فتحصل على ما تريد. وفي الشباب تراه يدافع عن نفسه ضد الموت، أو ضد حقيقة الزوال الراسخة، بفكرة مؤداها أن الموت، الذي هو حتمية لا محيد عنها، يشبه الإشاعة أكثر مما يشبه الحقيقة. ولولا هذه الفكرة التخديرية لاستولت عليه رعشة النهاية فكف عن العمل، وإذا ما كف عن العمل هيأ نفسه للإنقراض. أما في الشيخوخة فتراه يدرك أن التأجيل ما عاد ممكناً إلا قليلاً وحسب. ولهذا، فإنه يعمد إلى الاسترخاء في كثير من الأحيان، ولاسيما داخل حيّز الصمت، حتى لكأنه قد استوعب الحقيقة المأسوية التي تتلخص بأن الزمان يفقّس الخلاء، أو يستقلب نفسه بنفسه ويستحيل إلى عدم.

وكلما تفاقم شعوره بدنو الأجل، ازدادت الأشياء شحوباً في نظره الذي قد يرمي على الدنيا لوناً كالحاً نتيجة لاقتناعه بأن كل ما تراه العين، حتى الشمس والقمر والنجوم، لا يزيد عن كونه رغوة آخذة بالتلاشي السريع. ولهذا شكا الإنسان من الشيخوخة في كل زمان ومكان، لا لأنها ضعف وحسب، بل لأنها تمهيد للزوال قبل كل شيء. ولكنه حين يفكر بالموت يجد نفسه إزاء مفارقة لا رفع لها: من اللامعقول أن يعيش إلى الأبد، كما أن من اللامعقول أن يموت أيضاً. ولهذا، فإنه مجذر في اللاعقلانية ومحاصر بها في الوقت نفسه. وما أن يولد حتى يكون قد تورط فعلاً، أو أخذ يرسف في أغلال الصيرورة وحصارها المرير.

وفي مقابل الموت، يتمتع الكائن البشري بطاقة جنسية قلما تتوفر في أي من الحيوانات الأخرى، ولاسيما إذا ما استثنيت القرد. ويبدو أن ذلك ليس من قبيل الصدفة، فالجنس هو الدرب الوحيد إلى الديمومة والبقاء، أعنى بقاء النوع لإبقاء الفرد. فهو يعوض الحياة عما أباده الموت وانتزعه منها. ولهذا السبب كانت كل خلية من خلايا البدن البشري موسوقة بشحنة الحب حتى درجة الاكتظاظ. فميزان الوجود له كفتان، إحداهما الموت وأخراهما الشبق أو الاغتلام الذي يوازن الفناء أو يعادله، فيجعل الحياة واقعة ممكنة. والشيء الذي هو بوزن الموت، أو ما قد صمم كي يشكمه ويمنعه من إزالة الحياة على نحو نهائي، لابد له وجوباً من أن يكون شيئاً ذا سلطة حاسمة، بل لابد له حتماً من أن يكون استيلائياً لا ينجو من سطوته سوى النزر اليسير من البشر. وهذا يعني أن ثمة صلة جدلية بين الحب والموت، أو علاقة تشاكم متبادل وديمومي في آن معاً.

ولكن هذا المذهب الذي تقبله البداهة السوية، أو غير المعطوبة، لا يعني أن مقولة الجنس تملك أن تفسر التاريخ والمجتمع والنفس والاقتصاد وجميع ظواهر الحياة، كما زعم فرويد وأشياعه في هذا الطور التاريخي الحديث. فالتجربة

البشرية، في رأيي، أعقد بكثير من أن تعنو للتفسير بعنصر واحد أياً كان. ولا يدفع الذهن إلى موقف كهذا سوى ضيق مساحته أو فتوره وعجزه عن التنقيب في المركب والمعقد. وربما جاز الزعم بأن الظواهر الكبرى، كالحرب مثلاً، تندّ عن كل تفسير مهما يك نوعه.

وعلى أية حال، لا مرية في أن الإنسان لا خلود له إلا عبر الجنس وحده.، أي إلا عبر التناسل. ويلوح لي أن هذه الحقيقة المؤكدة هي التي تجعل الكثير من الرجال يزدادون اشتهاءً للنساء كلما تقدمت بهم السن أو ارتفعت. ولا أدري ما إذا كان الرجال كلهم، أو بعضهم فقط، على هذه الشاكلة، كما لا أدري ما هو وضع النساء الشائخات من هذه الجهة. فمازال الجنس عندنا من المحرمات، يشتهيه الجميع بحرقة، ولكنهم يتحفظون حين يرتطمون بخطه الأحمر، وكأن الهروب من المشاكل هو الدرب الوحيد لحلها، مع أن الأصوب، أقله في نظري، هو مجابهة المعضلات المزمنة في العلن والصراحة الجهرية الناجية من الحياء، وذلك لأن الفكر الجاد ينبغي أن يتخلص من كل خجل أو تحفظ.

فما الجداء من أن تتحجب امرأة وهي تتضرم اشتهاءً لفعل هو من سلالة الظلام أكثر مما هو من سلالة النور؟ وههنا يجدر بالمرء أن يتذكر تلك الفكرة الصوفية النفيسة، أعني فكرة «الحجاب الباطني» الذي هو أجدى نفعاً من جميع الحجب الظاهرية أو المادية. فلا مراء في أن الالتزام بالحجاب الباطني أعسر بكثير من الالتزام بتلك الخرقة أو القماشة التي تضعها المرأة على رأسها وتسميها حجاباً. ومن الواضح تماماً أن مقولة «الحجاب الباطني» تعني أن يكون التحصين في داخل النفس حصراً، وذلك لأن أي حجاب آخر لا مردود له بتاتاً، مهما يك سميكاً أو كثيفاً. وربما كانت فكرة الاقتراب أجدى من فكرة الاحتجاب، أو الفصل بين الجنسين. فمما هو معلوم أن تعوّد النفس على شيء من الأشياء يملك أن يجعل الشوق إليه يفقد حدته أو عنفه وحرارته. وهذا يعني أن الاختلاط أنفع من المسافة والفصال.

ومما هو مؤسف حقاً أن أدب البوح والاعتراف لا تبيحه التقاليد والأعراف السائدة عندنا أو المرعيّة في أوساطنا حتى الآن. ولقد أتيح لي ذات يوم أن أقرأ سيرة ذاتية صنفها تنسي وليمز، الكاتب المسرحي الأمريكي المشهور، الذي أراه أكبر من أونيل، والذي يستحق جائزة نوبل بدلاً منه. وتبين لي الفرق من جهة الحرية الفردية بيننا وبين الغربيين عبر قراءة تلك السيرة الجريئة جداً. فلقد تحدث وليمز في ذلك الكتاب عن تجاربه الجنسية المتنوعة بإسهاب وتفصيل شديد، ودون خجل أو مواربة. أما عندنا، فإن في ميسورك أن ترى الوجوم معقوفاً على الوجوه إزاء هذه القضية الحساسة التي هي وسيلتنا الوحيدة لكي نشكم الفناء. ولست أدري ما الذي يجبرنا على أن نجعل حياتنا ضيقة أو فاترة إلى هذا الحد، وذلك بمحاصرة الحريات الفردية الممكنة، ولاسيما حرية التعبير. ولست أعرف سوى امرأة عربية

واحدة استطاعت أن تنوه، في سيرتها الذاتية، ببعض تجاربها الغرامية المحرمة.. تلك هي فدوى طوقان، أبرز شاعرة أنجبتها فلسطين في المائة السنة الأخيرة بل في تاريخها كله.

* * *

ترى، ماذا عساه أن يكون حجم أملنا، نحن البشر، في الخلاص من الشر إلى الأبد، ما دامت جذوره تشرش في عقر النفس حصراً، وتمتد هناك راسخة رسوخ الجبال؟ فالشر أصله الأنانية والرغبة في السيطرة والتفوق، ومن المحال أن تكون هنالك نفس بغير أنانية. ويصدق هذا المذهب خاصة على الشرور الكبرى التي تصنعها النفس. فالشرور التي تصنعها الطبيعة هي أحداث طفيفة الشأن إذا ما قورنت بأفعال البشر الشريرة، ولاسيما الحروب والمجازر. وبداهة، لن تكون حياتنا هنيئة أو سعيدة ما لم تضمحل الشرور وتتقلص إلى أدنى حد ممكن. وهذا لن يحدث إلا إذا استطاع الإنسان أن ينجز استقلاباً كبيراً في الوجود، أو أن يفجر كل شيء وينسفه ليعيد صياغته من جديد.

وههنا، أراني لا أبتغي سوى أن أصوغ منظومة فكرية متينة الصلة بالواقع التجريبي الحي، أو بما يعاش حقاً، وذلك لأن التجريد الأجرد، أو الكلام المكدود المعكور، هو شيء أشبه بالبحران أو الحذلقة الممجوجة منه بالمنطق السليم. ولما كان الشر هو الغالب على التاريخ الذي يحكمه العداء بدلاً من الإخاء، وبما أن الشر ينبثق حصراً من نواة النفس كما تنبثق نبتة من بذرة، أو نهر من نبع، فإن النفس في علاقتها بالحياة هي بيت القصيد في هذا الكون، أو هي الموضع الأول للدرس والتمحيص. فلقد أصاب الغزالي حينما أعلن أن «الحقيقة هي فقه النفس».

وكثيراً ما أتساءل عن سر السعادة التي هي حلم الإنسان ومطلبه النهائي مذ كان على الأرض حتى اليوم. ولكنني أرجح أنها، في جوهر أمرها، لا تزيد البتة عن كونها شعوراً يفرزه الباطن، ولكن ضمن شرط ليس بالشديد التوتر والاضطراب، وذلك لأنه ما من شيء ينفي السعادة أكثر مما يفعل التوتر القائم في الخارج الموضوعي. ولكن الإنسان الحساس قد لا يسعه أن يكون سعيداً في أي مكان على الأرض، وذلك بسبب الشرور أو التوترات التي تغمرها من قطبها الشمالي إلى قطبها الجنوبي. ثم أنّى له أن يكون سعيداً ذاك الذي يشعر دوماً بأن الزمن ينخسه أو يهمزه بلا هوادة كي يندفع باتجاه الزوال؟

فلقد وهم ابن عربي (ذلك المتفائل الكبير، وصاحب العبقرية النادرة) حين صرّح بأن العالم خلق للهناء لا للشقاء. لقد عاصر ذلك النابغ من الحروب الاستئصالية ما يؤكد أن عالمنا هذا هو التجسيد المادي لمقولة الشر حصراً. وإننا

لنشهد في هذا الطور الراهن، أو خلال السنوات السبعين الأخيرة (1939 ـ 2009) حروباً مثل تلك الحروب التي زامنها ابن عربي، ولاسيما في العراق وأفغانستان، وقبلهما في كوريا والفيتنام والجزائر. ومن المعلوم ان ثمة اليوم أربعة ملايين من الأيتام في العراق وحده. فعن أية سعادة يتحدث المتفائلون الذين يتخذون من تفاؤلهم ملاذاً أفيونياً يلوذون به هرباً من المصائب النازلة بهذه الدنيا، أو على رأسها المنكوب.

ولكن، لقد كان ابن عربي نبيلاً حين نادى بوجوب الشفقة على البشر دون استثناء. وحين نوه الشيخ بأن هذه السمة هي الأنفس بين جميع سمات الإنسان الطيب، فقد أشّر إلى أنه ينتمي انتماء مباشراً إلى الإنسانية في كليتها وشمولها.

وأنا أدرك تماماً أن بي رغبة في الإخلاص لشيء مبارك يصلح أن يكون مثلاً أعلى أو قيمة جلى، كما يملك القدرة على أن ينقلني إلى جوار الينابيع التي يتدفق منها ماء الحياة. ولعل في السداد أن يقال بأن عجز الإنسان الحديث عن ممارسة الولاء أو الالتزام بمبدأ كبير هو واحد من أكبر عيوب زمننا الراهن، بل هو أزمة أو جزء من الأزمة العميقة الناشبة اليوم، والتي أفرزها التطور التاريخي في العصر الحديث.

ومما هو مؤكد أن بلداناً كثيرة قد عانت من ويلات الحروب في هذا الزمن الذي تفتك به الصناعة وما اخترعته من أسلحة اجتثاثية فتاكة. وقد لا أجافي السداد إذا ما رأيت الحضارة الحديثة بوصفها نتاجاً لتآزر الذكاء والقسوة، أو الجبروت، واندغامهما في صيغة واحدة متينة، بل متراصة ولا تقبل التفكك. وربما جاز لي أن أزعم بأن هذه الحضارة الحديثة تكدن الذكاء في خدمة الجريمة والابتزاز، أو قل إنها توظف العقل في خدمة اللاعقل. وقد يدرك الحصيف بسهولة أن سعاراً لا يشبع قد حل بالأرض في هذا الزمن المرير.

ومما هو واضح تماماً أن هذه الحضارة الحديثة ذات الطابع الإجرامي الذي لا تخطؤه العين قد دفعت الشر أو العدوان حتى تخومه القصوى، فصارت فورة المغول التدميرية شيئاً متوسط الحجم إذا ما قورن بالهمجية الأورو ـ أمريكية. ثم إن حضارة الشراسة هذه من شأنها أن ترسخ في نفسي شعوراً فحواه أن التاريخ، أو الجنس البشري، آخذ بالاحتضار. أجل، إنه عالم يحتضر على المستوى النوعي، بل قل إنه عالم ميت هذا العالم الذي صنعته الصناعة. فثمة طوفان من حيث الكمية (البضائع، السيارات، البشر، القمامة.. الخ)، ولكن ثمة موت على مستوى النوعية أو الكيفية. إنه المال والتجارة وتحويل كل شيء إلى سلعة معروضة للبيع. وليس هنالك شيء من شأنه أن يهدهد الروح، ولاسيما إذا كانت مرهفة. لقد استحال العالم إلى سوق وانتهى الأمر، بل صار سوقاً ومرآباً للسيارات ومزبلة وغابة يأكل فيها الأقوياء الضعفاء.

والآن، أراني أتساءل: هذه المجزرة التي تجري على الأرض منذ أن أريق أول دم بشري قبل آلاف السنين، هل يتيسر لأحد أن يشكمها ويضع لها حداً نهائياً عما قريب؟ هل في المقدور أن يتمكن الإنسان من تخفيف حدتها وفتكها الذي يبذ فتك الصواعق، أو من شكم زخمها الذي يفوق زخم الأعاصير؟ ألا يشعر كل امرئ بإزائها أنه صغير، بل مغمس في العار حتى سمت الرأس، فضلاً عن أنه عرضي ونافل وبغير أية قيمة، ما دام لا يملك سوى عجزه عن التأثير والتغيير، ولا أستثني رؤساء الأرض أو ملوكها، مهما تك سلطتهم أو جبروتهم. فيالقماءة الذهن أمام القوة! أو يعقل أن يذبح البشر بعضهم بعضاً منذ أن وجدوا على الأرض حتى اليوم؟ وهل تستحق هذه الحياة الطفيفة الشأن ما يجري على الأرض من كوارث وفواجع؟

يقول غوته: «علمني هو مر أن علينا أن نصنع جحيماً على الأرض.» وأنا أقول علمني البودا والمعري وشكسبير ودستويفسكي أن الشر والألم والقلق والتوتر هي حقائق تحايث الحياة البشرية ولا تزايلها حتى تزايل الحياة الوجود. ومن السذاجة الطفلية أن يعتقد أحد بأن الشر عرض ألم بالحياة، أو بأن ثمة حلولاً على المدى المنظور. ترى، هل هنالك قسر يملي علينا أن نذهب إلى الجريمة والعار راغمين؟ فمنذ أحقاب وأحقاب والأمر على حاله دون أي غيار. ومن المحال أن تكون أصالة الشر قد فاتت النوابغ الأقدمين من أمثال البوذا أو سواه. وحين قال هذا الأخير بوجوب إدارة الظهر للحياة، بل حتى بوجوب اجتثاثها (وهذا محال)، فإنه ما فعل ذلك إلا من اقتناعه بأن الشر ليس عنصراً ثانوياً أو عرضياً، وإنما هو الجوهر، أو جزء من الجوهر، على الأقل. أما زردشت فقد أدرك أزلية المعركة، فأهاب بك أن تقف في خندق الخير ضد الشر.

ولكن، هب أن هذه المجزرة الدائمة قد أتيح لها أن تتوقف، ألا يحتمل أن تدخل الحياة في الكسل والرهل، بل حتى في الركود أو في الخمود؟ وههنا أجدني أطرح هذا السؤال: أليست عطالة الحياة، بل حتى زوالها، أنسب للوجدان من هذه الجريمة الشنيعة التي تجري على الأرض منذ بداية الدهر؟ أليس البركان الهامد خيراً من البركان الثائر؟ يقيناً، إن هذه المجزرة هي عار الجنس البشري كله، وهي الخطيئة الأولى، دون أدنى ريب. وإذا ما أضفت إليها الفقر والمرض اللذين يفتكان بالبشر دون رحمة، فإنك سوف تدرك ما يقاسيه الناس من بؤس وشقاء وهمّ وغمّ. ولكنني على الدوام أجنح إلى الظن بأنه لن يحدث البتة إلا ما هو مدخر في طبع الأشياء على نحو مضمر.

ولهذا، فإنني لا أشعر بالاغتراب والحاجة إلى الانشقاق أو الانفصال عما هو سائد وحسب، أو بالاختلاف والمغايرة وكفى، بل بأن ثمة هاوية لا قعر لها تحجز بيني وبين الآخرين. ويبدو أن مجمل الأزمة يتلخص في الفرق الكبير المنداح بين ما يحتاج إليه البشر وبين ما قد أنجزه الزمان بالفعل، أي بين المعطى والمطلوب

الذي أملك أن أوجزه بوجوب قيام مجتمع يحترم إنسانية الإنسان وكرامته، ويتخذه غاية وليس وسيلة إلى أية غاية. فأنْ تعامل الإنسان على أنه أداة يعني استغلاله واستعباده وابتزازه. ثم هل يمكن للحياة أن تتمتع بأية نكهة زاكية حين يحل العداء محل الإخاء؟

ومع أنني لا أعرف شيئاً سوى المادة والفراغ، فإنني أرفض ألا يكون هنالك شيء آخر غير هذين العنصرين التافهين وحسب. لابد من موجود ثالث يعلو فوقهما ويتجاوزهما بمسافة فلكية، بل بأمداء مفتوحة أو مطلقة، أي لابد من روح أو مثال لكي تصير الحياة طيبة وناجية من وطأة المنغصات الكبيرة.

إن هذا الثالث الغائب هو ما يقلقني، وهو بالضبط ما أنقب عنه منذ زمن ليس باليسير، بل منذ فجر الوعي الذي بزغ في باطني خلال النصف الثاني من الخمسينيات. ولئن كان العثور عليه محالاً، فلابد للإنسان من أن يبتكره ذات يوم. ومن العجائب في نظري أن الجنس البشري قد دأب على تطوير الأدوات طوال آلاف السنين ونسي روحه التي أغفلها وأهملها حتى صدئت في حمأة الانهماك بالحاجات المادية..

* * *

لئن كان لي مذهب يخصني وحدي من دون الناس فهو العكوف على اللغة في محرابها المقدس. ولست أذهب هذا المذهب كي أتخذ اللغة ملاذاً ألوذ به وأتحصن في جوفه من هجمات الزمن الصقرية وضراوته الوحشية التي تمللك أن تجعل الفؤاد ينكمش أو ينقبض. كما أنني لا أعتمده كي يعوضني عن حيف أو خسران حل بي في أي يوم من الأيام، فأنا لا أؤمن بأن الفن يصلح مهرباً نفزع إليه أو نلوذ به من ضغوط الحياة، ولا هو تعويض عن أي كبت أو جوع مهما يكن نوعه. ففي الحق أنني لم أصادق اللغة أو أعاشرها إلا لما تدخره من جمال لا يملك أن يراه أحد إلا أصدقاء اللغة وحدهم. وقليلاً ما هم.

فلا هدف لي من الاعتكاف على وثن الكلم سوى تطوير أسلوب مشبع بنسغه الحي ومأهول بنازع الإيراق والازهرار، حتى لكأنه ما صنع إلا ليؤنس الروح في عالم موحش، أو قل إن سمو الأسلوب وسمو الروح أسمان لشيء واحد بالضبط. فما انهمكت بهذا الأمر إلا لاعتقادي الجازم بأن الحقيقة لا تتجلى في أي مجلى كما تتجلى في اللغة المؤنسة. فمما هو مقبول عندي أن حيازتك لمعجم شاسع ومتنوع هو الأساس الأول لشخصيتك أو لتعاملك مع الواقع، وذلك لأن مساحة عقلك هي مساحة لغتك بالضبط. والأهم من ذلك كله أن النفس تلوب على

الأنس في هذا العالم الحديث الموغل في الهمجية، وأن اللغة، بما هي آداب وأفكار، شديدة القدرة على الإيناس والإمتاع.

ولأنني مغرم باللغة أيما غرام، فقد رحت أقرأ المعاجم العربية منذ صدر شبابي وحتى يومي هذا، وذلك لأن الألفاظ المدمثة الهيفاء تسحرني وتخلب لبي، وتمارس على مخيلتي ما تمارسه الحكايات والأساطير على مخيلات الأطفال. وانني أستمتع بقراءة المعاجم أيما استمتاع حتى جاز لي أن أزعم بأنني استوطن في اللغة مثلما يستوطن اليهودي في المال، كما أن روحي تشرب من سحر الكلمات مثلما تشرب العين من رونق النور. ولأن اللغة متعة وقدرة على الإنعاش، فقد صرت أحسب أنه ما من شيء كله خير سوى اللغة وحدها. أجل، اللغة بأسرها خير، كما أن لها جاذبية تشبه جاذبية الخير وبهجته ورائحته الطيبة. ولهذا صار المعجم في نظري بمثابة وثن أطوف حوله كما يطوف الوثنيون حول أوثانهم. ثم إن الإبحار في بحار اللغة قد يكون أسهل الدروب إلى مكافحة السأم والخواء، وكذلك إلى النجاة من الاستنقاع والتأسن في لزوجة الواقع وأوحاله الدبقة، فأنا لا أحسب أن الكلمة المفردة لها قيمة خاصة إذا ما أخذت على حدة، وذلك لأن الذي له أهمية بالفعل هو الخروج إلى سعة الدهشة، أو إلى برهة لم يكن لها وجود سالف قط، أي أن ما هو ذو بال ليس شيئاً آخر سوى الخلق أو الابتكار. وحين لا يعود المرء قادراَ على إنتاج الدهشة في باطنه الخاص، فإنه يكون قد مات في الحياة، أو شاخ إلى الحد النهائي، ولم يبق له في الوجود سوى معلف فارغ من التبن والزؤان.

* * *

ولكن، لعل أهم ما في أمري أنني أنشطر إلى عدد ليس باليسير من الأشطار، وعبثاً حاولت أن أنصب الجسور بين أجزائي المبعثرة، ولكنها أبت أن تلتحم إباء منسوجاً من الحرن والعناد. فظللت مثالياً وواقعياً في آن. وكيف يسع المرء أن يوفق بين هذين الطرفين المتطرفين؟ ويلوح لي ان طاقتي كلها تنبثق من سخطي على الشرور التي لا أملك أن أتصالح معها، بل لا أستطيع أن أهادنها بتاتاً. وربما انصب جل سخطي على الامبريالية والصهيونية اللتين هما التجسيد الأكبر لقوى الشر في الطور التاريخي الحديث. فمما هو منطقي جداَ أن تكون الشرور أقوى المنغصات التي تنغص حياة البشر في كل زمان ومكان.

ثم إنني أينما وجهت وجهي أشم رائحة شيء يتعفن إلى حد يثير الاشمئزاز. ولكني أشم في الوقت نفسه روائح كائنات تزفر وتتحرق حنيناَ إلى حب من شأنه أن يخلب ويأخذ إلى البعيد. إنها روائح لحم يشوى على جمر المسافة والفصال،

ولكنها تختلط بروائح تنفحها الأعماق، وتخلق في روحي نشوة أو ثملاً ينعش النفس ويبث فيها حلم السعادة، فتشد الرجل إلى رقة الأنثى على نحو لا فكاك له منه. ولعل في ميسور اللبيب أن يلاحظ ذلك المتاق في الوجوه ناصعاً قلما تخطئه العين. إنها رغبة الحياة في البقاء والاستمرار، ونفورها من الانقطاع والزوال. ويبدو أن في الأمر غشا، كما قال شوبنهور. قبصة من الجمال على الجلد يشبه الطعم الذي تلتهمه السمكة، ثم تجئ الورطة التي لا مخرج منها إلا في القليل من الأحيان.

بيد أن ثمة رائحة خاصة تبعث الأسى في قاع روحي. أجل، نهر بردى لا تصدر عنه سوى رائحة منتنة في هذه الأيام القاحلة الماحلة. ويا طالما سبحت في مياه هذا النهر يوم كنت دون العشرين من سنوات عمري. يقيناً، إنني مهموم بهمّه وهّم دمشق والغوطة اللتين أنجبهما هذا الجدول الفاتن الصغير منذ آلاف السنين. فمع أن دمشق لم تحمل بي، بل أنجبتني قرية في جبال الجليل الأدنى، أو تماماً في البقعة التي أنبتت السيد المسيح، فإنني أشعر وكأنها أمي بالفعل، وذلك لأنني قضيت في رحابها جل عمري الطويل. ولست إلا صادقاً إذا ما ادعيت بأن همها يخرش وجداني، بل يصدع كياني ويشعث نسيج روحي، ولاسيما حين أراها معكورة مثل أرملة بائسة، بل مستباحة حقاً. فيا لهذه المدينة التي كانت شديدة الجمال، بل باهرة الحسن بالأمس القريب.

ترى، كيف اضمحل هذا النهر اللطيف المحبوب الذي فقد شبابه على نحو مفاجئ تقريباً، وبالضبط عندما كنت أنا أفقد شبابي بالتدريج. لقد كان هذا النهر الأهيف الأملد، في سالف الأعوام، ينساب مثل النسيم العليل في ليلة حارة. ولكنه الآن جيفة مأهولة بالعفونة والأوحال والقمامة المنفرة المنتنة. ومع أن في الميسور إنقاذه بواسطة الضخ، فإن بذل الجهد ليس بالأمر اليسير. ولهذا قالت الرواقية: «بذل الجهد هو القيمة الأولى» فما من أحد إلا ويتذمر في هذه الأيام، ولكن دون أن يفعل أيما شيء إلا في النادر. ولهذا، فإنني كثيراً ما أتذكر هذا القول الذي قاله دانتي في «الكوميديا الإلهية»: «ما كنت أحسب أن الموت قد أباد هذه الكثرة كلها».

* * *

ولكن الأوقات تواظب على التدفق والتصرم معاً، وموكب الأيام لا يكف عن المرور أمام البصر دون كلل أو ملل. وتتكدس السنون وتتراكم الأزمان في الخلايا، فتشيخ الجملة كلها، ثم تهرم وتتمنى أن تزول. فالجنوح الدائم صوب الزوال هو الصيغة التأسيسية لخور الإنسان وهزيمته أمام سطوة الزمن وأمواجه

العاتية. ولكن ما هذا الزمن الذي لا وجود له قط، والذي يحضر، مع ذلك، حضوراً مرعباً في كل مكان!؟ ما هذا الزمن الذي يتصرم ويتلاشى بغير انقطاع، ولكنه لا يزول بتاتاً حتى لكأنه ينبع من نبع لا ينضب. ولكنه بانقضائه الدائم لا يخلف في قعر نفسي سوى نقاء الحزن وحده.

ثم إنني كثيراً ما أطرح على نفسي هذا السؤال: كيف يمكن لحياتي أن تكون، بل أن تطاق، لولا الكتب والمطالعة؟ لقد ساعدتني الكتب كثيراً، بل أكثر من أي شيء آخر، على تحمل حياتي المكروبة حتى درجة الاختناق. فأنا أعيش في مخيم للاجئين منذ عشرات السنين، ومخيمات اللاجئين، التي تعج بالناس وتغص بالسيارات والقمامة، هي أسوأ الأماكن في العالم، على ما أرجح. فحين أخرج من البيت في فوعة المساء الجنونية، وهذا ذنب لا أرتكبه إلا مضطراً تحت ضغط الحاجة الملحة، فإنني لا أكاد أن أصادف موطئ قدم شاغر لا يزاحمني عليه أحد. وعندئذ فإنني أستوعب بسهولة فحوى ذلك الحديث النبوي الذي تلخصه عبارة «غثاء السيل». ففي هذا المخيم المتورم كالدمل، بل في دمشق كلها، أشعر بأن كل شيء هائج مائج وله زئير صاخب لا يهدأ ولا يفتر ولا يرعوي قط. فالكائنات هاهنا تزمجر وتدمدم وتعربد وتهدد بأنها سوف تفترسني عما قليل. وعبثاً أبحث عن ملاذ، فلا مفر البتة من هذا الجيشان الهادر العارم المجتاح.

فكيف استطعت أن أتحمل هذا الشقاء كله؟ هل هي الكتب ساعدتني إلى هذا الحد أو ذاك؟ ومع أنني عايشت زمرة من النساء الطيبات اللائي وجدت في صحبتهن شيئاً من العزاء والسلوان، فضلاً عن أن بعضهن قد أطعمني، لقيمة غرام شهية منعشة، فإن الكتب قد ظلت المحور الأكبر في حياتي بأسرها، حتى صار في ميسوري أن أقول بأن مدار عمري كان على الكتب دون سواها من سائر الأشياء. فلقد طالعت منها الشيء الكثير، بل إنني طالعت كتباً لا تحصى ولا تعد، فضلاً عن كونها من أصناف شتى، أو هي متنوعة إلى حد من الحدود. وإنها لكتب شديدة التنوع تلك التي قرأت، أو أدمنت الاتصال بها منذ سنة 1950 وحتى يومي هذا، أو زهاء ستين عاماً مرت على هذه الدنيا مثقلة بالكوارث والنكبات.

وفضلاً عن الكتب، فقد كنت أهتم بالناس كثيراً، ولكن تلك الكائنات ما عادت تثير اهتمامي إلا لماماً في هذه الأيام. فهذه الجموع الغفيرة المتدفقة في الشوارع، والتي لا تجيد شيئاً سوى أن تصنع الوسخ والضجيج، قد لا تملك البتة أن تفرز فناناً أو فرداً فريداً من أي نوع كان في هذه الأيام. ولا أحسب أن أحداً من الناس غريب عنها كالشاعر والكاتب الأدبي بوجه عام. ولهذا لا يسع المرء إلا أن يشعر بالنفي، بل بالاقتلاع من الجذور، حين يكون على احتكاك بهذه الكائنات التي لا يعرف أحد أيما غاية لوجودها المجاني. وأياً كان حالها وهدفها فإنها محكومة بمفارقة تتحكم بمسارها وخلاصتها أن ثمة موتاً على المستوى النوعي، وهيجاناً دافقاً على المستوى الكمي الصرف. ولقد صدق الإمام الشافعي حين قال:

لم يبق في الناس إلا المكر والملق

شوك إذا لمسوا، زهر إذا رمقوا

وهذه مفارقة أخرى تجعل الملمس شديد الاختلاف عن المنظر. فها أنا أشعر بأن جل البشر في هذه الأيام العصيبة يفتقرون إلى الدفء الجواني، أو إلى الوجدان الحميم الذي من شأنه أن يفرز نازع الإخاء والصدق والإخلاص، فيجعل من الكائن البشري إنساناً أو ذاتاً على الأصالة. وأنى توجهت، فإنني قلما أصادف أناساً طيبين لهم جاذبية مثل جاذبية الخير. وكثيراً ما رأيت البشر، ولاسيما المتعلمين منهم، وهم يلتقون ليجلد بعضهم بعضاً، ليس إلا. فلا غلو إذا ما قيل بأن الإنسان جلاد الإنسان.

وحتى الطبيعة ما عادت شديدة القدرة على أن تدهش أعماقي، وذلك وفقاً لعادتها في سالف الأيام. فقد كانت رؤية نهر من الأنهار، بل حتى رؤية ساقية أو ينبوع، تثير في وجداني فرحاً عظيماً، وذلك لأنني اعتدت أن أراه ناصعاً أمام مقلة العين، بعد ما قرر أن يتخلى عن تواريه ولو مؤقتاً. أما مشاهدة جبل عال فكانت تفرز في باطني، يومئذ، شعوراً بالنزاهة والسمو ورغبة في أن أحوز نقاء الذرى وكبرياء الشامخات. ولكن مشاهدة غابة من الغابات، مثل غابة الفرلق، مثلاً، فكانت تخلف في قاع روحي شعوراً مبهماً لا أدري ماذا عساه أن يكون.

وعندي أن وردزورث، الشاعر الانجليزي المشهور، ورجل المشهد الخاص الذي لا يراه أحد سواه، هو واحد من نخبة شعراء الجنس البشري، وذلك نظراً لاتصاله بالطبيعة على نحو دافئ حنون. ففي صلب الحق أن الصورة التي رسمها للمشهد الطبيعي هي إنجاز فريد في بابه، بل لا مثيل له البتة في أية ثقافة من الثقافات الحديثة أو القديمة. ولكم تمنيت أن أترجم رزمة كبيرة مختارة من شعره الصادق الحميم، ولكن مشاغل هذه الدنيا قد حالت دون ذلك. فحبذا لو تطوع أحد الموهوبين واختار كمية كبيرة من قصائده ثم ترجمها إلى اللغة العربية الشديدة القدرة على احتواء العنصر الشعري وامتصاصه ثم تكييفه مع سماتها الخاصة. ولئن أنجزت هذه الترجمة المقترحة، فإن خدمة جلى سوف تكون قد أسديت للثقافة العربية التي تحتاج اليوم إلى تلقيح من ثقافات العالم كلها، وذلك إذا ما أريد لها أن تتأصل وتتعمق.

* * *

ولعل أهم ما في أمري كله أنني كنت على الدوام، وما زلت حتى الآن، أطرح على نفسي هذا السؤال دون انقطاع، وبكل قلق وتوتر: لماذا أعيش؟ وإنه لسؤال

بسيط في ظاهرة، ولكنه، لدى التأمل، قادر على أن يفلق الجمجمة ويهشمها لفرط ما ينطوي عليه من شدة وضغط عنيف، ولاسيما إذا ما استطاع المرء أن يتخلص مما فيه من اللاوعي الذي يملك أن يكيفنا مع الشرور ويصالحنا مع البؤس الذي قد يجعل الحياة وليمة من رماد، ليس إلا.

ما الجداء من وجودي على الأرض؟ وهل سيحل بالعالم أي سوء لو أنني لم أولد قط؟ وسأكون عرضياً أو نافلاً، بل سأكون زائداً عن حاجة الدنيا، إذا جاء الجواب على هذا النحو: إن العالم لن يمسه أي ضير لو أنني لم أولد قط. وفي تخميني انه ما من إنسان ـ ما لم يكن معتوها أو مخبولاً، أو من أهل الإغماء ـ إلا وينبغي عليه أن يطرح هذا السؤال إياه على نفسه، أعني سؤال السبب أو الغاية من وجوده، ولكن، هل من جواب مقنع يملك أن يطمس القلق أو الأرق؟ لا أحسبني قادراً على الاتيان بمثل هذا الجواب السحري بتاتاً. ومع ذلك، فإن كل امرئ يستطيع أن يحدد لنفسه مهمة نبيلة ينهض بعبئها في هذه الدنيا العسيرة. وأنبل المهمات عندي أن يكرس المرء نفسه لمساعدة البشر والتخفيف من آلامهم وأعبائهم التي ينؤون بها.

ولعل في الميسور الزعم بأنني تغيرت كثيراً من الداخل حتى صرت كائناً آخر مباينا أشد المباينة لذاك الذي كنته في أواسط العمر، بل صرت كائناً يختلف عن بقية الناس أيما اختلاف. فأنا أومن بحق الفرد في المغايرة حتى درجة الانشقاق عن النسق الإجمالي برمته. ولقد بت أشعر الآن بأنني مزود بملكة التحسس أو التوتر الذي يفرزه الذهن، وليس الاكتئاب ولا الاضطراب. نعم، إنه توتر ذهني أو وجداني. وإنه حزن نقي، يمليه عليّ الوضع البائس الذي يغّمس الأرض كلها، وهي التي يعذبها ألف شقاء وشقاء، ولا سيما هذا العدوان الذي تشنه تلك الأمة السافلة التي تتخذ من القرصنة والإرهاب وسفك الدماء مهنة لها. وقد بلغ بي الهم إلى حد الوسوسة، حتى صرت أحسب أنه ما من وجود تقريباً لغير هذين الكائنين: أنا والشر، أو الشرور بصيغة الجمع. ولهذا، فقد رحت أميل إلى الاعتقاد بأن القوى الابليسية تهيمن على الدنيا وتحصر رواسب الخير في بقعة لا تزيد مساحتها عن مساحة جحر الضب. وبهذا الحضور الكلي للشر الذي يجعله شبيها بالجائحة، فإن الجمال (ومعه الفن الذي حسبه شوبنهور عزاءه الوحيد) لا يزيد عن كونه أُلهية صغيرة لا تغير من الأمر أيما شيء.

وفي تقديري أن بعض الناس محرومون من أن يتذوقوا طعم الهناء وهدأة البال، وذلك بسبب توتر الوجدان واضطراب المناخ الداخلي. ولا أحسبني إلا واحداً من أولئك الذين حُرم بالهم من أي هدوء ما داموا على قيد الحياة. ويبدو أن هذه الحال المكروبة هي السبب الذي جعلني شديد الإعجاب بالمعري، وكذلك بالمتنبي الأكثر توتراً من تلميذه النجيب، ولكن دون أن يضاهيه في محتواه الإنساني النبيل. وفي الصلب من مذهبي أنه ما من نمط كاشف يملك أن يوضح

أصالة الذات، بعد الألم، سوى التوتر الناتج عن قلق متين الصلة بالوضع البشري حصراً. ويتلخص هذا الصنف من أصناف التوتر بهذا السؤال الحساس: لماذا كان الشقاء أغلب على الحياة البشرية من الهناء؟

ومما هو مؤسف حقاً أن الناس يتلهون بالمياومة وقشورها عن لباب الأمور وما تنطوي عليه الحياة من معضلات، وذلك لأنهم قلما يطرحون على أنفسهم أسئلة كهذا السؤال الجهم: لماذا أعيش؟ فهم في الغالب مشغولون بالتوافه والشؤون الطفيفة المقدار التي تنهش وقتهم نهشاً، فينسون بواطنهم التي ينبغي أن تكون غنية بالفحوى الروحي والعصارة اليخضورية الحية. وبذلك يحرمون أنفسهم من متعة الفكرة والزكانة حين تبزغ دفعة واحدة مثلما يبزغ البدر ليلة اكتماله. وربما كانت هذه المتعة نفسها هي السبب الذي يجعلني أحب مشاهدة البدر ساعة شروقه. إنه الكمال وهو يقدم نفسه في حضرة الوعي شبيهاً بإلهام يندلع في فضاء النفس على نحو مباغت عجيب فيسفر عن إنعاش للطاقة الداخلية وتجديدها.

فقد يجوز لك أن تعرّف السأم بأنه فقدان الشهية للحياة؟، انه الانحسار، أو ضمور العالم الداخلي وانكماشه، أو بكلمة أخرى، إنه الشيخوخة بغض البصر عن سن المرء. وفي هذه الحال تنظر النفس إلى الأشياء على أنها تافهة، وإلى الحياة بوصفها وليمة من رماد، أو من حيث هي عيش لا يستحق أن يعاش. ويبدو لي أن السأم حال عصية على التعبير، ولكن حدتها قد لا تندّ عن التخفيف بواسطة الفن أو سواه مما هو متوفر في حيز الواقع. فمع أن الفن لا يصلح عزاء، فإنه قد يصلح تسلية أو الهية يتلهى بها المرء عن هذا الجحيم الجاحم الذي يحيق بنا من جميع الجهات.

* * *

ومع ذلك، فقد ظلت النائيات تسحرني وتفرض صورها على خيالي، مع أن ما أتلقاه منها ليس سوى شذرات من الفحوى والإيحاء. ترى ماذا عساه أن يكون نهر الأمازون، أو نهر الغانغ، أو الأدغال الاستوائية ذات الأشجار العملاقة، أو هذا المحيط أو ذلك البحر المنداح؟ وهل تدلهم السماء في القطبين طوال الشتاء دون أن يخترق الفضاء أي خيط من شعاع الشمس؟ ويتزامن هذا التساؤل عن النائي القصي مع شعور فحواه أنني مقفوص في قفص الهنا والآن، أي محدود ومقيد في موضع صغير لا أغادره بتاتاً. ولهذا، لا بد من الشعور بأن حصار القريب والمألوف والعادي هو صنف من أصناف الركود الصانع للسأم والرتوب.

ترى، هل هنالك مفتاح في مكان ما، مكان بعيد أو قريب، إذا عثرنا عليه تمكنا من فتح كل ما هو مستغلق في هذه الحياة العصية على الفهم؟ إن هذا الحنين

إلى النائيات، وهو ما يومض على شاشة الوعي بين الفينة والأخرى، لا يقل عن أنه خلفية رومانسية، أو خندق أخير يمكن للمرء أن يتقهقر صوبه أمام نوبات القنوط وانفجاراته الحادة الممزوجة باللوعة والحزن في بعض الأحيان، او حين يستبد الشعور الخانق بالسأم والخواء وانعدام الغاية وإمحاء الاتجاه.

بيد أن ثمة في داخل كل منا ينبوعاً للطاقة السرية هو عندي أشد نفاسة من أي مفتاح يفترض الخيال أنه قادر على فتح جميع الأبواب، وذلك لأن هذا الينبوع الحقيقي له وجود في سريرة كل منا، كما أن له فاعلية وقدرة على الانجاز. إنه ينبوع الينابيع كلها، وإنه ليمدك، لا بالطاقة وحدها، ولكن بالعزاء أو بالتعويض عن كل مكابدة أو خسران أيضاً. أجل، ينبوع الينابيع فينا، وإن في ميسورنا أن نستفيد من مخزونه الثر الذي لا ينضب إلا إذا نضبت المحيطات. وفي مذهبي أن هذا الينبوع الباطني هو الحقيقة الأصلية، أو الحقيقة الأكثر نفاسة من جميع الحقائق الخارجية التي لا تخلو من بذاءة وتشوه (أسلحة، تلوث، إيدز، فقر، مجزرة، سعار المال... إلخ) ولعل مما هو جلي أن هذا الينبوع هو الموضع الأكبر للصوفية التي تبحث عن الحقيقة في سريرة النفس، قبل أي موضع آخر. فالصوفية تؤمن بأن الحقيقة هي التجربة التي يعيشها المرء في باطنه وليس في الخارج الذي هو خليط من الضحالة والبذاءة قبل سواهما من الصفات.

ثم إن هذا الينبوع الباطن هو مخزن الصور أو مصدر الفنون والأفكار. وإنها الصور الأصلية التي تأبى، في كثير من الأحيان، أن يكون لها وجود عيني في الواقع الخارجي، أو الذي تعيشه الحياة بالفعل. فهو يقدم للوعي شرارات الإلهام التي تشبه البرق اللامع المتألق فتنير الفضاء كله، وبفضلها تتمكن الزكانة من أن تخترق الأشياء لتعبر إلى ما وراءها، فتبلغ إلى حيث الكثافة والثقل، بل إلى حيث يرخم الفحوى وتستتب الدلالات. وتكون النتيجة فناً وأدباً وفكراً وعلماً، وما إلى ذلك من أنشطة معرفية بجلها الإنسان ومجدّها طوال مشروعه الحضاري الذي لا يقل مداه الزمني عن عشرين ألف سنة. وربما جاز لي أن أزعم بأن الطاقات المدخرة في نفوسنا لها حجم شديد الضخامة والغزارة معاً، بل هو أعظم بكثير مما نظن. فلعل في الميسور أن يقال بأن اللا نهاية فيكم. وبودي أن أضيف فكرة مؤداها أن التجربة الصوفية برمتها تتخلص في الاتصال بهذه الطاقات المدخرة عميقاً في سريره النفس المكتومة، والتي تتزلف إليها الحصافة كثيراً كي تحلب شيئاً من دسمها في إناء الشعور. ومما لا يخفى أن هذا الاتصال هو أمر وثيق الصلة بجدل الوعي واللا وعي.

* * *

في حسباني أن ما عرضته ههنا ليس شيئا أخر سوى أزمة العيش الذي لا يسعه إلا أن يكون مأزوماً على الدوام. فمما هو في البداهة أن يشعر الروح المرهف بضياعه في عالم اغترابي مرير، عالم يمضغه الشر الذي يفرزه من تلقاء نفسه كما تفرز الكبد الصفراء. أجل، إنها الحياة، هذه الأزمة الناشبة في كل مكان وزمان، وهي التي لا يعلم لها أحد أيما هدف منطقي أو مقنع للذهن الحي المتسائل أو المتفطن، وغير الخالي من التوتر والعناء. ولعل الإنسان الحسّاس ألا يرى فيها إلا وليمة من رمادٍ، أما الإنسان العام فقد يراها عيداً دائماً تنغصه بعض المنغصات أحياناً. وهي منغصات سرعان ما تزول فتنسى ثم تتابع النفس مسارها الرتيب.

ومما أعطته الممارسة أن أوقات السرور تنطوي على نقيضها في داخلها مما يجعل الصرف شيئاً أقرب إلى الخيال منه إلى الواقع. وهذه واحدة من تجاربي الذاتية الخاصة. حين أكون في ساعة من ساعات الفرح، فإنني أشعر كأنها سوف تزول بسرعة قصوى، ولكنني حين أكون في ساعة من ساعات الأسى، فأنني أشعر كأنها باقية أو مؤبدة. ويبدو أننا نحن البشر محكومون بالحنين إلى الحياة الحقيقية التي قد لا ننال منها سوى رشفات وحسب. كما يبدو لي أن بلوغ العبارة إلى الشعور الدقيق أو العميق هو أمر ليس باليسير، بل يحتاج إلى معاناة جدلية مضنية.

ومهما يكن الأمر، فإن الإنسان الحساس لا يسعه البتة أن يتصالح مع الاستغلال والعدوان وسفك الدم البشري المقدس، ولا مع هذه الحقيقة الرابضة كالطود، والتي تتخلص في أن العرب أمة مستباحة، بل مخصّية، وعاجزة تمام العجز عن كل دفاع. وفضلاً عن ذلك، فإن الشر العدواني يفتك يومياً بفلسطين والعراق وأفغانستان والصومال، وبكثير من البلدان الأخرى. أما الإنسان العام فقد يملك قدرة ليست بالطفيفة على تحييد نفسه ليتحصن داخل العطالة والصمت واللامبالاة، غير معترف بأن كل وعي أصلي هو وعي البؤس والشقاء. وأما الإنسان الخاص فله شأن آخر، إذ هو يؤمن بأن من لا يعي البؤس لم يبلغ إلى أفق الإنسانية بعد.

فالعقل الذي يضفي القيمة على كل ما عداه لا ينضج إلا إذا استصغر الكون بمجراته التي قد يتجاوز عددها مائتي مليار، حتى وإن لم يسفر هذا الاستصغار أو الإزراء إلا عن عذاب يكابده الوجدان. وهذه حقيقة سوف يرفضها كل من لم يصل إلى سن البلوغ العقلي، أو قل كل من لم ينضج بعد، بل إن آية نضجك هي قبولك لهذه الحقيقة حصراً. وهذا يعني أن الذهن هو القوة الوحيدة التي تتجاوز الوجود إلى العدم، بل تتجاوز الوجود وتزدريه، ولكن بصمت رزين، وذلك لأن صيغته لا تتجانس مع صيغة الذهن. وحين يتمكن الذهن من أن ينجز هذه المهمة بالفعل فإنه يكون قد بلغ إلى طور كما له الخاص. ولكنه يظل بغواً ما دام يقبل الوجود بوصفه

شيئاً حقيقياً أو أصيلاً قادراً على الاجتذاب. وهذا يعني أن درجة لذة العيش تتناسب طرداً مع درجة النقص الذي يعتور الذهن. فكلما كان الذهن أضعف كان العيش ألذ وأهنأ وأقرب إلى السعادة والسرور.

وقد يملك الإنسان أن يتجاوز الوجود بالنوم الذي هو غيبوبة الوعي، أو إجازة ينالها الذهن من الحضور. وهو لا يقل عن كونه محاولة لترسيخ صنف من أصناف الوساطة بين الوجود والعدم، أو لعله برزخ جامع لهذين النقيضين المتطرفين في التناقض، وذلك لأن الإنسان يكون موجود الجسد ومعدوم الشعور حين ينام، ولا سيما حين ينام بعمق وبغير أحلام، ولا كوابيس. ولو لم يكن النوم عطالة في الشعور والإدراك لا ستطاع النائم أن يخبر من خلال نومه نعمة امحاء الزمن أو توقفه وانعدامه. وربما كان امحاء الزمن أو توقفه أمنية من أعز الأماني على فؤاد الإنسان.

وأياً كان جوهر الحال، فقد بات في الميسور القول، على ضوء هذه الحقائق جملة، بأن التوتر الداخلي والقلق والشعور بالاغتراب والضياع والتشيؤ، وكذلك الشعور بالسأم والعبث، وبآلام البشر وبؤسهم، وباليأس والقنوط من هذه الحضارة الصناعية الخمجة المذرة، حضارة القراصنة ورعاة البقر، الذين لا يختلفون عن البدو إلا بالأداة، هي بعض من أهم الموضوعات التي ينبغي أن تهتم بها الآداب في هذا العصر الشديد التعقيد. وثمة موضوعة أخرى اراها في الصميم من اهتمامات الإنسان الحساس، وهي موضوعة الغبش المكثف الذي يعزل الحقيقة عن الذهن ويرسخ الكون بوصفه لغزاً لا يعنو في كليته لأي تأويل أو حوار أو استنطاق، وإن كان في ميسور الذهن أن يستشف نتفاً من حقائقه البسيطة المتناثرة المباشرة. ولكن هذا الاستشفاف الضئيل ليس من شأنه أن يؤدي إلى أية نتيجة حاسمة، لأن الكون سوف يظل مجهول المصدر والمآب في آن. وفضلاً عن ذلك فإن بؤرة النفس، أو أعمق غور بين جميع أغوارها، سوف يظل سراً مكنوناً طوال أحقاب واحقاب، وذلك لأن أنوار الذهن لا تنفذ إلى هذا القعر السحيق بتاتاً. ومع ذلك، فإن علينا أن نكون اقتحاميين صناديد، وان ندهم المجهول في عقر داره دون وجل أو فتور، كلما كانت هنالك فرصة سانحة.

أما كبرى المفارقات فهي حاجة الروح الماسّة إلى الحب والصداقة والإخاء من جهة، وتعذر الحصول على هذه المطالب الكبرى الملحّة أو الوصول إليها، من جهة ثانية. ولئن تحققت هذه المطالب فلا يكون ذلك إلا على ندرة، أو على نحو لا يخلو من تزوير. وفي مذهبي أن تحسس أزمات الحياة، أو حصراً حاجات الذات التأسيسية المحرومة من التلبية، أو أقله من الإشباع، هو فعل أولى من «نقد الذهن النظري المحض»، أو ما شابه ذلك من تجريدات سقيمة لا تسمن ولا تغني من جوع. وربما كان هذا السؤال أهم الأسئلة كلها: ترى، ما خير حياة بغير حب ولا صداقة ولا إخاء؟ وفي مثل هذا الشرط سرعان ما يشطأ سؤال آخر: هل في

ميسور كل كائن بشري أن يصير إنساناً بالفعل؟ وعندي أن تحول الكائن البشري إلى إنسان هو الغاية القصوى لوجوده على الأرض. ولما كان من المتعذر أن يتشكل الإنسان بمعزل عن الشروط، فهل يمكن لي أن أصير إنساناً كاملاً في هذا الشرط الموضوعي الناقص؟

بيد أن ناموس التناقض الأزلي، وهو الذي يتمتع بقدرة حاتمة لا نقض لإرادتها بتاتاً، من شأنه أن يملي على المرء ما فحواه أن حضور الجميل والمدهش والرائع، وكذلك الباسم والسعيد، في النصوص الأدبية هو الوسيلة الأولى من اجل استحداث توازن بين صور التعاسة والحظر والتحريم واللوعة وجميع أصناف الفاجع، وبين ما يناقضهما على نحو مكافئ أو مباشر. وربما جاز لي أن أزعم بأن أصناف السلب كافة لا تملك البتة أن تعطب وجدان الحنين في باطن الإنسان. (ما من كلمة في اللغة تملك أن تشدني بقدر ما تفعل لفظة «الحنين» الساحرة. فأنا أشعر بأنها ترتدي ظلاً خلاباً ذا سمة شعرية يضفي عليها جاذبية فاتنة قد تجعلها وثيقة الصلة بنقاء الجوهر الروحي.) فإما هذا التوازن الضروري، وإما أن يبحث المرء عن أي خلاص من بؤس الحياة فلا يجده بتاتاً، ففي مذهبي أن هذا التوازن هو الخلاص، وما من خلاص سواه. فكما تتوازن الحرارة والرطوبة في العالم المادي، أو قل كما أن كلاً منهما تعدل الأخرى فتجعلها مقبولة، ينبغي أن يتوازن الهناء والشقاء في داخل النفس أيضاً، وذلك لأن التطرف في الهناء بلادة بقرية ممجوجة، والتطرف باتجاه الشقاء كآبة أو مجاورة للفناء.

ومما هو صادق في ذهني أن هنالك أناساً في هذه الدنيا قد يمسكون بيدك ويقتادونك إلى ضريح يدفنونك فيه قبل أن تموت، أو ربما أما توك وتركوك حياً تبحث عن الموت فلا تلقاه. ويصدق عندي كذلك أن الغربيين قد خسروا ماهيتهم الإنسانية وارتكسوا في حيوانيتهم الدائمة عندما استلبوا الأمم الأخرى حرياتها وثرواتها، وأرغموها على أن تعيش في خصاء دائم، وذلك بقوة السلاح والمجزرة. ومع ذلك كله، فلا بد من فرح، لا بد من محبة، وذلك لأن الفرح حاجة نفسية من دونها لا يبقى في حوزة المرء سوى الرماد. وهذا هو الخسران المبين بكل تأكيد.

ولئن تأملت الديانة المسيحية أو تفحصتها، لاكتشفت أنها ديانة نبيلة ومأهولة بالحكمة العميقة، حكمة القبول بمبدأ التضاد السرمدي، ولاكتشفت أنها تتركب من هذين العنصرين المتقابلين: المأساة والفرح، الصلب والمحبة. إنها ديانة أصلية استطاعت أن تصون جوهر الوثنية في عمقها المستور. وفي تخميني أن إيمان الناس بديمومة هذا التوازن، وبأن السلب لن يطغى على الإيجاب إلا لماماً، هو ما يؤهل البشر للثقة بالوجود والعمل على استمرار الحياة حتى في عالم مشحون بالأسلحة الاجتثاثية المدمرة، وشديد القدرة على استثارة التوجس في لجة النفس، وكذلك الشعور بالخيبة أو بالإحباط الذي يحطم الفؤاد ويحيله إلى نثار. ولكن

الناس، مع ثقتهم بهذا العالم، ينبغي أن يستنفروا طاقاتهم الدفاعية ويضاعفوها، وذلك لأن الأخطار اليوم هي أضعاف ما كانت عليه في الأزمن السالفة أو السابقة لزمن الصناعة الخطير.

* * *

وربما جاز لي أن أدعي بأن سقوط الإنسان (وفكرة السقوط هذه بابلية، على ما أرجح، وقد انتحلها اليهود كما انتحلوا ألف شيء وشيء) لا يجد له تجسيداً أنصع من هذه الحقبة الصناعية الوارمة التي أحالت الروح إلى تابع ذليل للمال يلهث وراء ه طوال يومه دون توقف. ثم هل هنالك من يجهل أن قوى الفوضى والاضطراب قد انتصرت على قوى الانسجام والتناغم في هذا الزمن الراهن؟ ألا يعني هذا أن الإنسان هو الذي دحر أمام قوى الاستغلال والاستعباد؟ فجميع الأشياء اليوم تحتاج إلى نفحة من الروح كي تصير مقبولة عند الروح. ففي الحق أن العالم استحال إلى مصنع وسوق ومرآب للسيارات، وما عاد في ميسور البشر أن يتنفسوا الهواء النقي، وذلك لأن السخام قد ملأ الغلاف الجوي كله، مما أفضى إلى انتشار الأمراض على نحو لم تألفه الأرض من قبل. وربما كانت هنالك لعنات أشد من هذه اللعنة في طريقها إلى الجنس البشري الذي ما زال عاجزاً عن تحرير نفسه بنفسه.

ومما هو مدعاة للتأمل الفلسفي السابر أن العصور القديمة، وهي أقل بؤساً من عصرنا المتورم بالأشياء حتى درجة الاختناق بطوفان الكميات، قد أنتجت أدياناً مأسوية لها طابع التراجيديا: عبادة تموز في بابل، وعبادة أدونيس في جبيل، وعبادة أوزير في مصر. وكانت المسيحية، أو ديانة صلب الإله (وفقاً للمذهب المسيحي نفسه)، آخر المآسي الكبرى في الثقافة الوثنية. أما في هذا الزمن الذي يفتقر إلى أي فرح له طابع زفافي، فإن ثمة مأساة تجري يومياً في التجربة العينية، ولكن دون أن تتمكن عبقرية الإنسان من رفعها إلى مستوى التعبير الفني الأصيل. ترى، ألا تسمح طبيعة زماننا الموغل في الشراهة بإنتاج الأدب المأسوي العظيم؟ ألا تملك الحساسية أن تلتقط ذبذبات الحياة وتوتراتها الهائلة؟ هل انتصرت نزعة اللا شكل فصار النص الرفيع المستوى شيئاً بعيد المنال؟ وهل تم ذلك بمنأى عن استشراء توثين المال ونزعة تحويل السلعة إلى صنم معبود في الأرض؟ ألا يجوز القول بأن زمن الصناعة والاستهلاك مضاد للفنون والآداب والأفكار الكبرى، وعاجز عن ابتكار أيما شيء من الأشياء اللا مادية حتى لكأنه زمن الجدب الروحي بكل نصوع؟

ومما هو مائل أمام بصري أن المجتمعات العربية ينخرها تآكل يستطير يوماً عن يوم، بعدما أفلس رصيدها الروحي ونضب، وذلك لأنها أثبتت عجزها عن انتاج ثقافة الديمومة والاستمرار بسبب التزوير والانتهاز اللذين تصنعهما السياسة في هذه الأيام. ولست أعرف أحداً يفكر بإيقاف هذا التآكل عند أي حد من الحدود، ولذلك فإنني أعيش خوفاً على اللغة العربية من الزوال تحت التأثير التدميري الذي يمارسه تلاطم أمواج التاريخ. ففي زمن أدمن عفونته، فضلاً عن أنه لا تجدي معه أية مواجهة، لا يملك المرء أن يطمئن إلى أن الناس سوف يظلون متشبثين تماماً ببلادهم أو بتراثهم المنحدر إليهم من العصور الغابرة، مع أنه الركيزة الأولى لهويتهم الجمعية.

ولعل اول ما تحتاج إليه هذه الأمة العربية اليوم هو إنجاز نفيس من شأنه أن يبث الدفء في دمائها المقرورة. وربما كانت أولى الخطوات أن يقدم مفكر باسل رزين على إرساء شرح نابغ للأمل والجدوى، يملك أن يحل محل هذه الأصداء الفاشية في الزمن الراهن. والأمر بطبعه محوط بالعسر والمشقة، وذلك لأن كل أمل قد يتبدى هشاً قصيماً لدى احتكاكه بالوقائع التجريبية الشديدة الصلادة. ومع ذلك، فإن علينا أن ننجز، ضمن إطار المتاح، شيئاً ناجياً من الزيف والتزوير. ويمكن لخيط من ضياء الأمل أن ينبجس من فكرة مؤداها أن هذا الشر الساري في العالم كله لابد له من ان يفرز نقيضه من داخله، وأن انهيار الصناعة، حادث محتوم ولا محيد عنه بتاتاً.

* * *

أفلا تحل الشيخوخة في خلايا الجسم البشري بعد أن يكون في الريعان والعنفوان؟ ولا بد من اقناع الناس، أو غالبيتهم، بأن هذا الغيتو الصهيوني الطفيلي، الذي هو التجسيد الأول لهزيمة العرب، لا يزيد عن كونه قرية من قرى النمل، ولكنه لم يجد من يهدمه بتاتاً، بل على النقيض من ذلك، تألبت جميع القوى وتساندت لكي تشتغل على حمايته وتطويره دون كلل أو ملل. ثم إن طبع الأشياء يحتم ألا يكون هنالك غفران في المستقبل البعيد، وذلك بعد هذا الذي جرى كله، ولا سيما ما اقترفه الغيتو من مجازر أفضت إلى تشريد الناس صوب كل أفق وتحت كل سماء. أجل، إن الغيتو الصهيوني هش كالقش، ولكن حماته أكثر من أعدائه بكثير وأقوى بفارق شاسع البون. ولهذا السبب استطاع أن ينشأ وان يستمر في الوجود، على الرغم من أنه زائف ومصطنع ويعيش بفضل ما يضخ إليه من طاقات وثروات تأتيه من خارجه. وحين أنظر إلى شاشة التلفزيون وأرى ما قدمه

الغربيون للغيتو من أسلحة كثيرة وضخمة وفتاكة، فإنني لا أتوانى عن تعريف الإنسان الأورو ـ أمريكي بأنه الموجود من أجل اليهود.

وفي الحق أن ذلك الغيتو الصهيوني ثؤلول غرسه الغربيون القراصنة على خد بلاد الشام التي كانت جميلة قبل أن يدنسها أولئك المتسللون المتطفلون من ذوي القلوب الغليظة السوداء. فما من عاقل يرتاب في أن الغيتو، الذي تأسس على الجريمة واقتلاع الناس من ديارهم بقوة السلاح والمذبحة، هو صدع في بنيان الحق، بل لطخة عار في جبين البشرية كلها. وإنه لا يثير في داخلي سوى تقزز لونه أصفر، وذلك لأن له طبيعة يرقانية مريرة، تعبر عن ذاتها بولع الصهاينة بقتل الأطفال على نحو خاص. وهذا شيء لم أسمع بمثله في تاريخ الإجرام كله. وهو بكل وضوح برهان على أن الشخصية اليهودية السوداء الباطن مأهولة بعفن وقيح كئيبين، ولا برء لها من دائها هذا أبد الدهر. ومما هو شديد الأهمية أن ينتبه لهذه الحقيقة كل من يبحث في تاريخ القضية الفلسطينية وكل من يحاول أن يتعرف على حقيقة الشخصية اليهودية الكالحة اللون.

وما كان لهذا الصهيوني الدامس الصباغ أن يصير فرعوناً في منطقتنا إلا بسبب الخلل المستقر في بنية السلطة. فلعل أكبر عيب من عيوب هذه المنطقة (جنوب غرب آسيا وشمال أفريقيا) في الزمن الراهن أن يكون عجزها عن إقامة الدولة الحقيقية التي تملك أن تصير حاضنة للأصالة والنبالة وقادرة على إحلال الإنصاف محل الإجحاف. ففي الحق أن هذه المنطقة المعتدى عليها لا تحكمها سوى عصابات غاشمة طافحة بالنذالة ومساوئ الأخلاق. ومما لا يخفى أن هذه العصابات نوعان: سلطوية وتجارية أو مالية. ويبدو أن التجارية أحفر من السلطوية، وذلك لأن كل من باع واشترى نقصت إنسانيته أو مروءته بمقدار ما باع واشترى، وتقهقر باتجاه أساسه الحيواني بالنسبة نفسها.

وفي الحق أن هذه الصناعة الحديثة قد أحرزت نصراً مؤزراً للنذالة على النبالة، ووضعت الأوغاد فوق الأجواد دون أي أمل في الخلاص على المدى المنظور.

*　　*　　*

إنه لأمر لا يثير الاستهجان إلا بقدر ما يثير الاشمئزاز والشعور بالقرف، أن يتمكن الصهاينة من استنفار معظم بلدان العالم لصالحهم الخاص، ولكن من أجل هدف سخيف، وهو أن يؤسسوا هذا الغيتو القميء، أو هذه الدويلة الممسوخة والمتطفلة على العالم العربي، ولا سيما على نفطه الغزير، كما تتطفل الأشنيات على أشجار السنديان. ومن نوادر التاريخ وعجائبه أن اليهود قد تمكنوا من إرسال

جنود حلف الناتو إلى أفغانستان ثم إلى العراق ليموتوا هنالك بدلاً منهم وبالنيابة عنهم، ومن أجل ضمان كيانهم الهزيل الذي ما كان له أن يستمر في الوجود لولا حصوله على حصة كبيرة من نفط العرب.

وقد راحوا يحشدون الأسلحة حتى حصلوا على أكمل تسليح في التاريخ البشري بأسره، وذلك لكي يقهروا الشعب الفلسطيني الأعزل وغير القادر على حماية أرضه من نذالتهم المزمنة، ومن ضراوة حقدهم الأسود المحموم. فالصهيونية داء أصيب به الشعب الفلسطيني الذي لا حول له ولا طول. فمما هو معلوم أن ذلك الشعب الأعزل والفقير لا يملك سوى الحجارة ودماء أبنائه كأسلحة يقاتل بها ويقاوم. ولدى التأمل العميق، فإن المرء قد يلاحظ ما فحواه أن الصهيونية برمتها ليست سوى حركة بهلوانية مثيرة للسخرية. فقد حشدوا جميع طاقات العالم، ولاسيما أدواتهم الغربيين، وأترعوا الدنيا ضجيجاً، وصنعوا من الكوارث ألعنها وأكثرها قسوة، وذلك من أجل بناء هذا الغيتو التافه الذي لا يزيد حجمه عن حجم جحر الضب. إنهم كمن يحشد كنزاً ليبني كوخاً من القش والقصب. ولهذا، يجوز القول بأن الكائن الصهيوني يشبه الدون كيشوت أكثر مما يشبه الإنسان السوي أو الناجي من التشويه.

وفي الحق أن الجيش الصهيوني، منذ عام النكبة حتى اليوم، لم يخض سوى حفنة من المناوشات الطفيفة الشأن ضد الجيوش التي توصف بأنها عربية، ولكنها في الحقيقة لا تعدو كونها شطراً من احتياطي الامبريالية والصهيونية. فاليوم يفرض الجيش المصري الحصار على غزة تماماً كما يفعل الصهاينة. وهذا يعني أن «الجيوش العربية» ما كانت في أي يوم من الأيام سوى نمط من أنماط العار اللاحق بالعرب، ومما هو ناصع أن الأمة العربية لن تتحرر البتة إلا إذا دمرت جميع القوى المسلحة المهيمنة على وجودها، ولاسيما القوة الإنكشارية الجديدة التي تنامت كالفطور خلال السنوات الستين الأخيرة، والتي نهضت بمهمة هدفها إرغام البلدان العربية على الركوع أمام الإمبريالية، ثم تعهدت بضمان تدفق النفط العربي إلى أوروبا وأمريكا، ولا سيما إلى جيوب اليهود. فلو لا العرب الرسميون لما كان هنالك من وجود لهذا القيح الذي أسميه الغيتو الصهيوني.

وتتلخص خطة الصهاينة في أنهم سوف يظلون يضربوننا، نحن الفلسطينيين، على رؤوسنا بمطرقة شديدة الضخامة حتى نعلن قائلين بأن وطننا ليس وطننا، ولكنه أرض أجدادهم. ولهذا فإنهم يصنعون لنا حماماً دموياً بين الفينة والأخرى. ولكن، هيهات. فالشعب الفلسطيني سوف لن يذعن لإرادتهم الإبليسية في أي يوم الأيام، مع أن الغرب وراءهم بثقله المادي الهائل. وهذه ليست رغبتي، وإنما هي رغبة التاريخ حقاً. فكلما نكبونا أكثر أزداد رفضنا لوجودهم المقيت. ولكنني أظن أن اليهودي يضرب لسبب آخر، وهو حاجته إلى إفراغ شحنة حقده على الجنس البشري بأسره.

يقيناً، إننا شعب شهيد. ولقد ابتلينا بأكثر المخلوقات لؤماً وخسة ونذالة. فاليهودي من النذالة بحيث لا يتورع حتى عن استهداف النساء والأطفال والمشافي وسيارات الإسعاف ودور العبادة. إنه يقتل الأطفال ثم يدعي بأنه يشن حرباً على الإرهاب. ولا يخفى على أي عاقل أنه يصنع الإرهاب ويمارسه بشكل متطرف. إن شايلوك وحش ظامئ إلى الدم البشري. وهذا هو رئيس الأسباب التي تدفع اليهودي إلى القتل. أو يعقل أن يكون هذا العز كله ليهودي خسيس يحترف النذالة حرفة أبدية فيقتل الأطفال والنساء والعزّل من الرجال، بينما يقف الغربيون وراءه، يمدونه بكل ما يحتاج إليه من عتاد؟

ويكمن لب المعضلة كلها في هذه الحقيقة: إنهم مسلحون، أما نحن فبغير سلاح. ويقول المثل الشعبي «السلاح في يد النذل يجرح». ومع أنهم قد واظبوا على قتلنا، هم وأدواتهم الإنجليز، طوال السنوات التسعين الأخيرة، أو منذ صدور وعد بلفور حتى الآن، فإنهم كمن يخض الماء في القربة كي يحصل على الزبدة. ولولا هذا الاختلال في التوازن، أو قل لو أننا نملك الأداة المادية أو السلاح، لدفنا الصهيونية مرة واحدة وإلى الأبد. فمما لا يخفى على أي عاقل أن اليهودي لا يصلح للقتال، وهذا يعني أن وجود جيش لليهود هو شكل من أشكال المزاح التي يعتمدها التاريخ في القليل من الأحيان. ولعل أهم ما في الأمر أن قتالاً فعلياً لم يحدث قط في منطقتنا كلها منذ نشوء الغيتو الصهيوني حتى اليوم. ولم يحدث شيء سوى مناوشات وصدامات لها غايات شرحها طويل. وهم مقتنعون تماماً بأنهم قد هزموا سبعة جيوش عربية في عام النكبة. وهذا زيف ناصع لا يخفى على اللبيب بتاتاً. فالجيوش العربية كانت قادرة على التهامهم في شهر أيار من ذلك العام الحزين، لو أن الأوامر قد صدرت لها بأن تهاجمهم في مواقعهم. ولهذا، فإن على المؤرخ النزيه، أو الذي يطيق الموضوعية، أكان عربياً أم أجنبياً، أن يتصدى لهذا التزوير ابتغاء فضحه وتفنيده، وكذلك من أجل توضيح الحقيقة أمام أعين الجميع.

وإنه لأمر مثير للتقزز أن تذعن هذه الدنيا لرغبات اليهود وأن تضع نفسها في حوزتهم وتحت تصرفهم، ثم تقدم لهم أكثر مما يحتاجون بكثير، حتى لو طلبوا لبن العصفور لجيء به إليهم. ولا ريب في أن الدافعين الحقيقيين هم العرب، ولا سيما البلدان العربية المنتجة للنفط. فالغيتو يكلف تلك البلدان تلاً من الذهب في كل سنة. وعندي أن هذه الحقيقة، أعني حقيقة الدعم الكلي للصهيونية، هي المسوغ الكافي الذي يسوغ لي الاعتقاد بأن اللا معقول يحكم العالم. ولكن، ما من أحد يملك أن يزجر التاريخ، أو يأمره، أو يقترح عليه أيما اقتراح. فهو يسير في مساره الذي اختطه بنفسه لنفسه دون أن يأبه بأي فرد مهما بك عبقرياً أو صنديداً وذا إرادة حديدية. وههنا يحلو لي أن أطرح هذا السؤال: أو يعقل أن يكون هنالك على الأرض كلها من هو سعيد حقاً في وسط هذه المجازر والكوارث التي بدأت منذ

سنة 2001، أو سنة الهجوم الصليبي على أفغانستان، واستمرت حتى الوقت الراهن (2009)؟ أنها حرب صليبية بلا صليب، أي بلا دين. فللمرء أن يلاحظ ما فحواه ان معظم توترات العالم، بل جلّها، تجري في العالم الاسلامي وحده، وذلك منذ انتهاء حرب الفيتنام سنة 1975 حتى اليوم. ولئن كان هنالك أناس سعداء في هذه الدنيا التي يقتل فيها الأطفال بغير أي ذنب، وهم يعلمون بما يجري فيها من أحداث جسام، أو من مصائب وكوارث يندى لها الجبين خجلاً، فقد يجوز القول بأن سعادتهم لم تتم إلا بفعل موت ضمائرهم، أو ما يدخرونه من اللا عقل في بواطنهم الممرورة التي تتسع للكثير من القرف بسبب ما يأهلها من بلادة وبرودة وجدان.

وفي الحق أن حضارة أوروبا، التي ذقنا الأمرين على يديها قد أسستها الديانة المسيحية النبيلة التي ابتكرتها الأمة السريانية المجيدة، وذلك لأن المسيحية قد غيرت الانتماء فنقلته من العشيرة الوثنية إلى الشعب المسيحي الواحد. فحضارة العشيرة ليست مبدعة، أما حضارة الشعب فهي أنشط وأقدر على الحراك والإنتاج المتنوع. وينبغي ألّا ننسى اسهام العلم الذي ابتكرته مصر وبابل التي نهب اليهود ثلاثة أرباع شخصيتهم منها، ولاسيما النجمة السداسية والشمعدان السباعي. والعلم في أصله فرعوني بابلي. وله ثلاث نسخ قديمة: الهندية واليونانية والعربية. وقد استفادت أوروبا من النسخة العربية أكثر مما استفادت من أية نسخة أخرى.

بيد أن الإسهام الذي قدمته الثقافة الإغريقية هو إسهام تأسيسي دون ريب. فالفلسفة الأوروبية استمرار لفلسفة اليونان. وللشعر الأوروبي صلة بالشعر اليوناني، وكذلك المسرح. ولكن من المحال أن نستوعب دانتي وشكسبير وباسكال واليوت وكيركجور ومين دي بيران وأخلاق كانت بمعزل عن الديانة المسيحية. ومن المحال أن يكون لشكسبير وجود لو لم يشرطه السيد المسيح. ويصدق هذا المذهب على بعض الروس، ولا سيما دستويفسكي وتولستوي وبرديائيف وسواهم. ثم جاء ذهب العرب الذي ضخّوه من القرن الأفريقي الغربي، فكان ثالثة الأثافي في تأسيس الصرح الأوروبي الشاهق، ولا سيما بعدما شحنوه عبر الأندلس إلى شمال جبال الألب ابتغاء الحصول على الخشب والحديد والعبيد السلافيين. ولا يجوز للمؤرخ أن ينسى اسهاماً رابعاً قدمه العرب من أجل إنشاء أوروبا الحديثة، ألا وهو الخبرات البحرية التي تركوها في إيطاليا وإسبانيا والبرتغال، والتي أفضت إلى اكتشاف القارات الجديدة ذات الثراء الطائل. فلقد كان اشبنغلر شديد الفطنة حين لاحظ في «انهيار الغرب» ما فحواه أنه ليس من قبيل الصدفة أن تنهض بعبء الاكتشافات البحرية تلك البلدان التي احتكت بالعرب مباشرة دون سواها من بلدان أوروبا. ولكن العرب يومئذ لم يعلموا أنهم كانوا يؤسسون لذلهم الراهن الذي لا مثيل له في التاريخ كله.

يقيناً، إن أوروبا ما كان لها أن تستيقظ لو لم توقظها آسيا من سباتها الثقيل الذي ران عليها بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية في القرن الخامس الميلادي. فبعدما أيقظها العرب من جهتها الغربية، راح المغول والتتار يوقظونها من جهتها الشرقية. فقد أسهم مغول القرم أيما اسهام في تحريض روسيا على النهوض، وذلك وفقاً لمبدأ التحدي الذي يحّتم الاستجابة، أوردّ الفعل. أما مدافع الأتراك في أواسط أوروبا، ولاسيما بين حصار فينا الأول والثاني، فكانت بمثابة نواقيس ترن لتعلن خطورة الحال، ولتطالب الناس بأن يستيقظوا ابتغاء صيانة مصائرهم ودرء الخطر عن مستقبلهم.

* * *

ولكن هذا الأوروبي العدواني قد حوّل بحريته إلى قرصنة ونهب وإجرام. وبفعل هذه القرصنة العاتية التي ما زال يمارسها حتى يوم الناس هذا، فقد استطاع أن يطور بلاده على نحو غير مسبوق من قبل بتاتاً. وهذا كله يعني أننا نحن سكان مصر والهلال الخصيب، قد صنعنا أوروبا، أي صنعنا شقاءنا بأيدينا، فذقنا الأمرين على أيدي الغربيين، ولاسيما الأمريكيين المولعين بالحروب ولعاً لم يألفه التاريخ سالفاً، سواء في روما أو في آشور اللتين اصطدمتا باليهود، ولكنهما تركتاهم يعيثون فساداً في الأرض دون رادع أو وازع.

ولقد حسم مصيرنا، نحن الفلسطينيين، يوم راحت أوروبا تطور صناعتها في القرن الثامن عشر ولا سيما حين فجرت المحرك البخاري الذي زامله تطور كبير طرأ على المدفع والأسلحة النارية بوجه عام. يقيناً، إننا ضحايا هذه الصناعة الحديثة الفاسدة. فقد حدث اختلال في التوازن لصالح الغرب الذي أنشب اليهود مخالبهم في حنجرته وراحوا يتحكمون بأنفاسه. ولا أدري كيف تسللوا إلى سدة القرار في أوروبا ثم في أميركا. ويبدو أنهم قادرون على ممارسة نشاط ظلامي لا يستطيعه أحد سواهم. وهم لا يتورعون البتة عن ارتكاب كل خسة إذا ما اقتضت مصلحتهم ذلك. كما أنهم جاهزون لانتحال أية صفة مناسبة لوجودهم. ولهذا فقد انتحلوا اللغة الكنعانية التي تسميها توراتهم «شفة كنعان»، وسموها اللغة العبرانية زوراً وبهتاناً وافتئاتاً على الحقيقة التي لا يتورعون عن تزييفها في أي وقت يشاؤون. فاليهود هم الخساسة أو النذالة مجسدة على الأرض.

* * *

أما أن الحياة حقيرة وموجعة وتافهة، بل بغير أية قيمة بتاتاً، فهذه حقيقة يبرهن عليها وجود اليهود المجرمين في هذه الدنيا المصوّحة الصدئة المصفرة اللون. ولكن يبقى هنالك سؤالان لا يملك الذهن أن يجيب عنهما البتة حتى ولو عنت أو أنهك نفسه، فأصابه الكلال من شدة الإنهاك. أما السؤال الأول فهو هذا: من أين جاءت المادة، أو كيف أتت إلى الوجود، ومتى، وعلى يد من.؟ وأما ثانيهما فهو هذا: كيف استطاعت هذه المادة الخسيسة أن تفرز العقل (الروح، النفس، الشعور، الوعي)؟

ولعل في الميسور الذهاب إلى أن هذه الحساسية القلقة هي أس الذاتية أو قوام لبها وصميم أمرها. والذاتية هي التي رسخت علاقة الإنسان بالإنسان، كما حفظت صلته بالجمال الذي هو بيت القصيد في هذا الوجود البائس والمنكوب بعدد لا يحصى من أصناف النذالة والخساسة.

الفصل الثاني

الشعور والوجدان

مما هو صادق في ذهني أن مقولات الشعور والوجدان والضمير هي خلاصة محتويات الذات والعالم الباطني كله. ولهذا فإن شعوري هو أهم ماهية في هذا الوجود بأسره، وإن كل ما يعجز عن أن يلج إلى هذا الحيز الذاتي الأثيري فلا قيمة له إلا لماماً. وبسبب شدة حضور الشعور وثقله وأهميته، فإنني أعرف الأدب، بل الفن عامة، بأنه رؤية الحقيقة عبر الوجدان، ولكنه الوجدان الذي يخدمه الخيال في الغالب الأعم.

ولعل أول رعشة في شعوري هي أن الحياة ليست ملكي، وأنني نافل أو لا لزوم لي بتاتاً. ومما ينغّص عيشي أنني لا أكابد وحسب، بل أكابد دون أن أعرف لهذه المكابدة أيما هدف مقنع. وربما كان هذا الجهل، أو عدم الإحاطة بغاية العذاب، هو ما دفعني إلى الاعتقاد بأن العالم لا يصلح مضافة لروحي الملتاع، بل للروح في أي تجل من تجلياته الممكنة. ولا أحسبني إلا صادقاً إذا ما صرحت بأن جميع دروبي لا تفضي إلى أي مكان سوى وجداني الذي يبطن روحي من داخلها. ولعل الخلل الكلي أن يكون كامناً في صلب الطبيعة الإنسانية أوفي صميمها. ولئن صح هذا، فإنني أرتاب أشد الارتياب في أن يتقبل الخلل أيما رأب أو إصلاح.

وفي مزاعمي أن معضلة الإنسان الحساس هي، متنا وحاشية، افتقار الأشياء إلى الفحوى أو إلى المذاق. وهذا يعني أن السعادة، أو «الحياة الحقيقية»، ليست في متناول اليد إلا نادراً، بل لعلها ألّا تكون شيئاً آخر سوى الوهم الذي يتبدد بسرعة كما تتبدد الأحلام عند الاستيقاظ. ولهذا، لا تلوح الأشياء أمام عيني إلا بوصفها أطيافاً أو أشباحاً ليست مشبعة بالفحوى أو بالدلالة، فأحسبها تجريدات فقط، أو كيانات هي في موقع الوساطة بين الوجود والعدم، كما لو أن الجبال خسرت رسوخها وقدرتها على حفظ الأرض من أن تميد، فاستحالت إلى عهن منفوش.

ومما ينغص شعور الإنسان ويرنق وجدانه أنه لا يملك البتة أن يتخلص من نفسه، فلا مهرب ولا محيد، لا إلى الفن ولا إلى الخمرة والشهوات، بل ولا إلى أية برهة أخرى، حتى كأن شعوره لا يختزن شيئاً سوى التوتر والاضطراب. أما حيوية الاشتهاء وخصوبته وزخمه، وهي علامة صحة دون أدنى ريب، فلا تجدي كثيراً، وذلك لأن المرء يشتهي دون أن ينال، وذاك هو الجحيم بالضبط. أجل، إن جحيمك هو شعورك، كما أنه نعيمك أيضاً. ولكنني قانع بأن العنصر الإنساني النبيل الراخم طي وجداني، قلما يبرز إلى ساحة الوعي إلا إذا أشبعت اشتهاءاتي بعض الإشباع. ولهذا فإن المعضلة الكبرى تبقى على ما هي عليه تماماً. إنها لا نهاية البؤس البشري، لا نهاية الألم والتعاسة، أو قل لا نهاية الشر. وهنالك قول

شعبي مشهور: «ينتهي العمر ولا ينتهي الشقاء.» وكثيراً ما أسأل نفسي هذا السؤال المربك بعض الشيء: لماذا أكتب؟ أو لماذا أكتب بكثرة مفرطة؟

أما الجواب الذي أتلقاه منها فهو هذا: كي أفعل أيما فعل قد يخلصني من التشيؤ، او من الشعور بوجودي على الهامش، بعدم جدواي، بأنني لا لزوم لي، أو بأنني عرض زائل ينتسب إلى اللحاء وليس إلى اللباب. وربما كانت معظم أفعال الإنسان، حتى الذهاب إلى الحرب، أو إلى مغامرة من المغامرات الكبرى، لا هدف لها سوى التخلص من الشعور بالتفاهة أو بالعطالة. ولكن الكتابة ابتذلت أيما ابتذال في هذه الأيام فهزلت حتى سامها كل مفلس، ولاسيما الأميين ومن هم على شاكلتهم من أهل الجهل وقلة الدراية، وبخاصة اللصوص والهجائيين والأدعياء وأشباه المتعلمين. وصارت المناصب العليا في المؤسسات الثقافية في قبضة الانتهازيين. فمن الغرائب أنه ما من واحد بين رؤساء اتحادات الكتاب في العالم العربي يجيد الكتابة، ولاسيما الكتابة الحية الاستثنائية الجديرة بالتبجيل.

أجل، أنني أكتب وكأن الكتابة هي الخشبة التي يمكن لها أن تنجز مثل هذا الخلاص الذي قد يتعذر إنجازه أيما تعذر فلا غلو إذا ما صرحت بأنني قلما أجد شيئاً يناسبني كثيراً، أو يجعلني راضياً عنه إلى حد كبير، ولو أن تأجج الخصوبة، أو توهج الحيوية الربيعية، مازال يجتذبني بعض الاجتذاب، ولا سيما حين يندلع الاخضلال في الطبيعة، أو حين تعرم الأنساغ وتمور، فتخلق في النفس الدهشة أو الارتياح. وفي الحق أنني ما زلت أفرح بالمطر تماماً كما اعتدت أن افعل يوم كنت طفلاً غريراً لم يعطبه الزمن بعد.

وبسبب هذا النقص في المؤثرات الايجابية المبهجة، أراني على الدوام أعوم ببطء شديد على حواف الكينونة، وفي جو تفعمه غربة لا نهاية لها بتاتاً، أو يترعه حتى الجمام ضياع يجهل جميع التخوم، ولا يخفض من حدته شيء، ولا استثني مخاض الذهن المتكرر يومياً. ويبدو أن فوران النشاط الفكري الدائم هو علة من علل هذا التوتر المرير. كما يبدو لي أن فرط الشقاء من شأنه أن يجعل السعادة شيئاً يشبه الإشاعة، ليس إلا. وإذا ما تحققت ساعة من ساعاتها تحققاً فعلياً، فإن الروح قد يرفض الانخراط في متنها، وذلك لكثرة ما تعرض له من قهر وعذاب. وفضلاً عن هذا، فإن حضور الشعور بسرعة الزوال على نحو ثقيل الوطأة قد يحيل كل شيء إلى رماد في داخل النفس. فلماذا يقوم الإنسان بأي فعل ما دام كل فعل سوف يتلاشى مع تلاشي الأيام ويؤول إلى النسيان؟ وقد يخلف حسرة تترسب في قعر الوجدان مدى الحياة. فما من ريب في أن ما يبنيه الزمان يهدمه الزمان، وأن الشمس نفسها سوف تنطفئ ذات يوم.

ثم إنني لا أقول إلا ما أشعر بأنه الحق، أو ما أحسبه الحقيقة كما تتجلى أمام ذهني. وليست بي أية رغبة في التخلي عن الحقيقة، أو عن قوامها المدمث الأهيف، مهما يكن الثمن. فلا لزوم البتة لممالئة الذوق العام الذي يريدك، أياً كنت،

أن تداهنه وتدلس عليه، فتتفاءل تفاؤل السذج والخدج وأنصاف المعتوهين، مع أن الواقع المعيش من شأنه أن يدحض هذا الموقف المتهافت ويفنده بصدق يجهل التزوير. فكيف يسع أحداً ذا وجدان صافٍ أن يتفاءل أو يفرح والإنسان في العراق أو في غزة يذبح يومياً من الوريد إلى الوريد؟ وإني لأستهجن كيف راحت دول كثيرة تدعم أولئك الذين يمثلون الجانب المنحط في الشخصية البشرية. وها هم يحاصرون غزة ويجزرونها دون رحمة بتاتاً. فأي عالم هو هذا الذي نعيش فيه؟ فيلوح لي أن البشرية تمارس موتها بدلاً من أن تعيش.

* * *

ها أنا ذا مشغوف بملامسة شيء من الأشياء المشربة بالأصالة أو الناجية من كل تزوير. وها أنا ذا ظامئ إلى برهة فرح أصلي ينبجس من نواة الكينونة أو من مركزها الخصيب. ولكنني لا أحسب أن فرحاً غامراً سوف يندلق في فمي عما قريب، وذلك لأن شدة الشعور بشقاء البشر، ولاسيما شعبي المنكوب، تحرمني من البلوغ إلى أية برهة متوهجة سعيدة، على الرغم من قناعتي بأنني لا أملك أن أصنع شيئاً ذا بال لأخلص الناس من بؤسهم. وههنا أجدني أمام هذا السؤال الاستهجاني: كيف يسعني أن اتنفس وأنا مسكون بهذا الجحيم كله؟ كيف أملك أن أكون، مع أن الشعور بالخيبة والإحباط يقرضني كما يقرض الفأر الورق؟ فأنا أشعر دوماً بأن هنالك عواصف تعصف في فضاء نفسي، وصواعق تتفجر في المكان إياه. ويبدو لي أن ثمة أرواحاً متوترة مضطربة لا ترتاح ولا يهدأ لها بال حتى ولو وضعت في الجنة. وإني لأجنح إلى الاعتقاد بأن الجنة هي الصحة والشباب، وبأن الجحيم هو المرض والشيخوخة واضطراب الوجدان.

وبتأثير من هذا التوتر أراني أملك قدرة كافية لاستيعاء جميع الشخصيات المتوترة من أمثال الحلاج وهاملت وإيفان كرمازوف والمعري، وكل من هو في هذا الفصيل من قادة الاستثناء. كما تعودت على شدة الإعجاب بهذه الشخصيات وبأمثالها من المتوترين والعاجزين عن الاستتباب. وكثيراً ما خطر في بالي أن الحلاج ليس كائناً تحدر إلينا من التاريخ أو من الواقع، بل هو شخصية عاشت في رواية أو في مسرحية، ليس إلا. أما مزيته الأولى فهي كثافة وجوده وعمق هويته في مقابل ضحالة وجود الإنسان العادي ذي الصباغ الباهت. فأية مسافة هي تلك التي تفصل بين الحلاج وأمثاله وبين إنسان المال الذي قلما يأبه بالتطرف والتوتر الذاتي أو الجواني، بل الذي قد يجهل حتى بؤسه الخاص، فضلاً عن بؤس العالم، ولا يبالي بما يجري حوله، كأنه أرنب او دجاجة فارغة من كل مضمون. وكثافة شخصية الحلاج هي السبب الأول في نهوضه بالمهمة التي يأخذها عل كاهله، ألا

وهي إيقاظ الخيال على الأزل، أو على أغوار النفس وأعماق الوجود. إن شخصية الحلاج ليست شعلة خيال وحسب، بل هي كذلك قدرة هائلة على إشعال الخيال في باطن كل من يحتك بتراثه حتى اليوم.

وعندي أن هاملت الذي لم يكن له وجود في أي يوم من الأيام، والذي يعيش في الجحيم وهو على قيد الحياة، والذي أحسبه واحداً من أسلاف إيفان كرمازف، هو حي وحقيقي أكثر من مليون كائن بشري ممن يدبون على سطح هذه الغبراء دون أن يكون هنالك أي فارق جوهري بين وجودهم وعدم وجودهم. فأنت إذا تعرفت إلى هاملت فإنك قد لا تنساه ما حييت، مع أنك لم تره ولم تلتق به إلا على الورق. ولكنك قد تنسى أناساً عايشتهم حقاً، وربما لمدة ليست بالقصيرة، وذلك لأن حضورهم خافت ولونهم الداخلي شاحب أو باهت وفقير إلى الاستطاعة والقدرة على التأثير. ويصح هذا المذهب نفسه على إيفان كرمازف المنسوج من التوتر والشعور بالبؤس الذي يملأ الحياة. أما المعري فلا أعرف له نداً في أية ثقافة من الثقافات الغربية أو الشرقية. فماذا عساه أن يكون ذاك الذي يعتقد بأنه رهين ثلاثة محابس أو سجون: سجن العمى، وسجن البيت الذي لا يغادر جدرانه بتاتاً، «وأن النفس في الجسد الخبيث».

بيد أن المعري الذي أصدر على نفسه حكماً بالسجن المؤبد أو بالإقامة الجبرية، قد كان موالياً لقضية الإنسان بما هو إنسان. وهذا ولاء نبيل سوف يتبناه ابن عربي بعد أبي العلاء بمائة وخمسين سنة تقريباً، ولكن دون أن يكون متوتراً كسلفه هذا. وها أنا ذا أهجس دون انقطاع بوجوب الإلتزام الراسخ بقضية من القضايا الإنسانية الكبرى، أتخذها مرجعاً أفيء إليه على الدوام. ففي وجداني رعشة مفادها أن الولاء إسباغ للقيمة والأهمية على الحياة وعلى التجربة التي نعيش. ولا يسبغ القيمة على الحياة إلا الحيوية ونضارة الشخصية، أو صحة الكائن الحي المزود بالحيوية والحماسة من أجل العيش.

ومما قد لا يخفى على أحد أن الحي توتره لذيذ أو مريح، في الغالب الأعم، حتى وإن أفضى إلى كارثة مثل كارثة الحلاج. ولهذا، فإن الالتزام بقضية الإنسان لا يقل عن كونه أمارة على أن الحياة تعاش وفقاً للنحو الصحيح، وعلى أن الكائن الملتزم لم يلتهمه الموت في الحياة. فلا غرو إذا ما ادعيت بأن الولاء لمبدأ من المبادئ الكبرى يتخذه المرء مركزاً لحياته، هو الصانع الوحيد للوئام أو للانسجام الممكن بين المرء والوجود. ومن دون هذا الوئام، لن يكون هنالك سوى غربة أو اغتراب، أي سوى توتر مقيت من شأنه أن يجلد بغير رحمة، وأن يحيل الحياة إلى وليمة من رماد.

يا إلهي! ما أحوجني إلى موالاة أمر رفيع من شأنه أن يملأ حياتي بالقيمة أو بالمعنى. ما أحوجني إلى اتجاه سديد يوجه خطاي صوب هدف كريم قادر على

إيلاج القيمة في التجربة. فأنا لا أستطيع أن أنظر إلى إنسان المال إلا بوصفه كائناً عديم الأهمية، شاحب الروح، بل هو يشبه جثة محنطة.

وكثيراً ما شعرت بأن هذا العالم المكسوف الأنوار، فقير إلى حد يثير الشفقة أكثر مما يثير الاستهجان. ولهذا السبب، فإنه ليس من الانصاف أن تطلب منه أيما عطاء يتميز بالنفاسة والجودة، وذلك لأن فاقد الشيء لا يعطيه. ففي بداية العمر يظن المرء أنه مدعو إلى وليمة من لحم الغزال، ولكنه يكتشف بالتدرج، وبعد مرور زمن طويل، وربما بعد فوات الأوان، أنه قد أخطأ التقدير. فالوليمة من تبن وزؤان، ليس إلا. وربما أضيف إلى هذين الشيئيين بعض قطع صغيرة من الخبز اليابس المخضوضر لطول العهد.

ومن أبرز مظاهر فقر العالم الراهن أن العلاقات بين الناس، أعني صلات المحبة والجوار والصداقة والإخاء، قد صارت واهية في هذه الأيام إلى حد التشوه. ومثل هذا العالم لا يتمتع بأية قيمة جلى عند أي عاقل، وذلك لأن القيمة لا يصنعها إلا الوجدان أو العالم الباطني الحي، أي هي تنبع من الداخل وليس من الخارج. فلا يكون للشيء الخارجي قيمة إلا بقدر ما ترضى عنه الروح. فماذا يستفيد الإنسان إذا ربح العالم وخسر نفسه، كما قال السيد المسيح؟

وفي سواء هذا التفكك والتهدم والشح المدقع لا يظل هنالك سوى الروحي أو الوجداني، وكذلك الذهني والثقافي والميل إلى المعرفة والتنقيب عن كل ما هو من سلالة الصدق أو من شيعة الجمال. وبعد هذا الاهتراء الشامل الذي جاءت به الصناعة والمال، أقصد اهتراء الحياة الأصلية نفسها، تغدو وظيفة العقل الأولى أن يجدد اللفظة بعد ما استهلكها التداول وتصرم الأزمان. ويمكن لهذا التجديد أن يتم عبر شحنها بالدلالة والفحوى مرة أخرى، وذلك ابتغاء جعلها متألقة موحية لامعة. وفي البداهة أن تجديد اللغة هو تجديد للحياة نفسها، أو قل إن الصلة دائرية بين الطرفين، فلا يتم تجديد أي منهما إلا بتجديد الآخر. ولكن الحياة، إذا ما بلغت إلى طور الشيخوخة، التي هي برزخ بين الحياة والموت، فإنها لا تظل قابلة للتجديد بتاتاً.

* * *

ومما قد يجعل شعر الرأس يقف أن الشرور، ولاسيما الحروب والمجازر والمجاعات والجرائم، تنتشر على مدى العالم كله، بل هي تعربد وتخور وتعوي وتموء في كل مكان وزمان، ولكن دون أن يتمكن أحد من أن يضع لها أي حد يحدها أو يلجمها إلى الأبد، بل حتى دون أن يأبه بها الناس بقدر ما تستحق، ولاسيما أولئك الذين لا تمسهم مساً مباشراً له تأثير على وجودهم. ويبدو أن

الأنانية، أو التزام الفرد بأنانيته الخاصة، هو السبب الحقيقي لهذه اللامبالاة. ومما يثير استهجاني أن الناس لا يستوعبون ما تمارسه هذه الشرور عليهم من تشويه لإنسانيتهم وإهانة لكرامتهم، وما تجلبه إلى العالم من تخريب قد يحرم الروح من أن يشع أو يتألق.

وقلما يتبدى الناس مغمومين لما في هذه الدنيا من سقم وعنف وقسوة وكوارث، ولما تفتقر إليه من براءة وطيبة وحنان، مما يجعلها غير صالحة لاستضافة الروح. والناس لا يعبرون كثيراً عن استيائهم من غياب المؤنس والحميم، أو حتى مما يندرج في تجربتهم من خلاء وسخف وتفاهة. وها هم حولك يفرحون ويمرحون ويمارسون الأعراس والأعياد في سواء الحرب والمجازر والمجاعات والكوارث الطبيعية، وكأنه ما من شيء يملك أن ينغص عيشهم بتاتاً. ويبدو أنهم مفطورون على هذه السجايا الوثيقة الصلة باللا أبالية، ولاسيما على فوران غرائزهم وسرعة نسيانهم للكوارث. فكأن هذا الصنف من أصناف النسيان هو دفاع تلقائي ضد التوتر الذي قد يثيره البؤس في داخل الوجدان. فكثيراً ما يظهر الناس وهم مزودون بشيء من الحيوية الجياشة التي تبث الدفء والمرح في حياتهم الخالية من أي محتوى ذي بال. ولهذا، فإنك تراهم يترعون الشوارع صخباً وحركة، تماماً كأطفال في باحة المدرسة. ولكنهم قلما يتبدون مهمومين بكرامة الإنسان المهدورة في معظم بلدان الدنيا. كرامة الكائن البشري، انسانيته، هذه هي القضية الكبرى الشاملة لجميع القضايا التاريخية الأخرى.

وهم حين يفرحون ويمرحون لا يخدعون أنفسهم ولا يغشونها، كما أنهم لا يموهون بؤسهم ولا يبرقعون أحزانهم أو همومهم، ولكنهم ينصاعون لأمزجتهم أو لطباعهم. فما دام العالم لا يقبل التبديل بتاتاً (ما من شيء قد تبدل سوى الأدوات التي تطورت على نحو سحري فزادت العالم سوءاً وحرمت الإنسان من هدأة البال)، فلماذا لا يعيشون حياتهم بأصغر مقدار ممكن من الألم، وبأوسع مساحة ممكنة من السرور؟ وحين أراقبهم وهم يتحركون ويصخبون حتى في الشوارع الغاصة بهم وبأوساخهم، فإنني لا أصدق ما زعمته الفلسفة الوجودية التي ادعت بأن الوجود منسوج من الخوف والقلق الذي يفرزه الخوف. ففي حسباني أن القلق نتيجة شدة الحساسية، ولكن شدة الحساسية لا تكون إلا في الفرد الفريد وحده.

وكثيراً ما سمعت الناس يشتكون من الجوع إلى المال والحاجات المادية، ولكنني قلما سمعتهم يشتكون من الجوع إلى المعنى، أو إلى الهدف الكلي الذي ينبغي أن يعم الكون بأسره، وإلا افتقرت الحياة إلى العذوبة والنكهة الزاكية. أما خوفهم من وجودهم، إن كانوا يخافون منه حقاً، فهم يسكتون عنه، أو يغمغمونه بطريقة غامضة، أو يغلفونه بالغلاف الديني القادر على تحييده، بل على نفيه إلى أقصى المنافي.

كما أنهم قلما يشتكون من سوء التفاهم بينهم، أو من عجز المرء عن إقناع الآخرين بفكرة من الأفكار قد يراها الحقيقة التي لا يأتيها الباطل من أية جهة. ولكنهم حين يلتزمون بعقيدة تطالبهم بالتألب حولها، فإنهم يؤولونها بطرائق متباينة، أو وفقاً لهوى كل منهم ووفقاً لمزاجه. فمما هو بين أن الفرد، أو الفرق، له حضور موضوعي، شأنه في ذلك شأن المجتمع.

ولكي تدرك البون الشاسع الذي يفصل الانسان الخاص عن الانسان العام، فإنك لا تحتاج إلى فلسفة معقدة، بل حسبك أن تلقي نظرة على التلفزيون لتجد أعداداً لا تحصى من العوام تحتشد حول مطرب لا يطرب، أو تتفرج على مباراة من مباريات كرة القدم. وهذا يعني أن هموم الانسان العام صغيرة، بل طفيفة الشأن، بينما يأبى الانسان الخاص أن يُعنى بمثل هذه الاهتمامات. وبسبب هذا البون الشاسع بين الصنفين، قال ابن عربي:" أما العامة فلا كلام لنا معهم".

* * *

أتشهى أن أشاهد مكاناً جميلاً ونظيفاً يجاورني أو يحيط بي من جميع الجهات، بل أتمنى أن أرى شيئاً من الجمال في هذه الشوارع المكتظة بالناس والسيارات والقمامة التي تذروها الرياح في أي يوم عاصف بذيء، فتجوس الطرقات كلها وتملأ الجو غباراً يلوث كل شيء، ويصفع كل وجه بإهانة تزري به وبقيمته التي تنحدر مع الوسخ إلى درجة الابتذال.

ما من جمال قط أراه حين أطل من نافذة بيتي. وما قيمة حياة لا يزينها الجمال فيحيلها إلى سعادة وهناء؟ ولماذا يدفع الناس حاجتهم الجمالية إلى الهامش في هذا المخيم الغارق في البؤس؟ ولهذا أشعر بأنني منفي في سواء هذه الغوغائية الرثة، وبأنني مغترب عن هذه البيئة التي لا تربطني بها سوى أواصر واهية جداً، بل هي أوهى من خيوط العناكب. ويلوح لي أن ثمة من المؤشرات ما يكفي للتأكيد على أن الأمور سوف تكون أسوأ بكثير مما هي عليه الآن. وبسبب هذه الحال الشديدة السوء، أشعر بأنني محبوس داخل قمقم يحشرني ويختزلني رغماً عن أنفي، وما من دثار يدثر روحي سوى رداء من غبار وقبح وسماجة.

ما من جمال قط على هذه المزبلة التي تسمى مخيم اليرموك، والتي أرتبط بها «كما يرتبط ذيل الكلب بالكلب»، على حد عبارة بيتس في قصيدة له عنوانها «البرج». وإذ ما أردت ان أبصر الجمال وأعاشره فإن عليّ أن أخرج إلى الطبيعة، ولاسيما إلى الغوطة، أو إلى جبل الشيخ والمجرى الأعلى لوادي نهر الأعوج، أو إلى بلودان ووادي نهر بردى. ولكنني إذا ما فعلت ذلك تورطت بأزمة المواصلات التي لا تقل عسراً عن مقارفة السماجة والقبح في هذه الأزقة الخمجة

المذرة التي ابتلينا بها بسبب النكبة التي أنزلها بنا اليهود وأدواتهم الانجليز. ولكنني كثيراً ما كنت أغامر وأتورط في معضلة النقل، وذلك لأن الجمال حاجة ملحة مثل الطعام والشراب. وهذا يعني أن غريزة الفرح، أو الحاجة إلى السرور والابتهاج، يتعذر إرواؤها، بسبب بؤس الظروف القائمة، ولاسيما بسبب هذه المجازر المنتشرة في الكثير من بلدان العالم.

ومن الغرائب أن معظم الناس، بل جلهم، يستمرؤون هذه الحياة الشاقة، والخاوية أيضاً، وهي التي يعيشونها دون غاية أو هدف. فهاهم يرفلون في ديباج السعادة ومخملها، ويستهجنون أن يسمعوا من أحد أية عبارة متشائمة، ولاسيما إذا قال بأن الدنيا تخلو من العذوبة والروعة والنكهة الطيبة. وأما إذا ما صرح بأن الحياة لا تستحق أن تعاش سقط من عيونهم جميعاً، ورأوا فيه كائناً ناشزاً لا يرجى له أي إصلاح. والويل لمن يوغل في تفحص الأشياء وتمحيصها ابتغاء الكشف عن مثالبها وعيوبها أمامهم أو على مسامعهم. ولكنهم يقدرون لك جهودك إذا ما أبرزت لهم محاسن الازدحام والضجيج، كأن تقول، مثلاً، بأنهما من أمارات الخصوبة والحيوية والنشاط المتدفق الخلاق. ثم إن عليك أن تذم السكون أو الهدوء لأنه يذكرهم بالموت، أو بصمت القبور.

ولكن الناس ههنا ينامون حتى وقت متأخر جداً، ولهذا فإن مخيمنا يسوده الهدوء في الفترة الصباحية قبل أن تستفيق الكتلة الهائلة من سباتها الهنيء، وقبل أن تتحرك باتجاه الاضطراب مساءً. وفي البرهة الموغلة في السكينة أرى الكائنات وكأنها برزخ يتوسط بين المادة والفراغ، أو بين الوجود والعدم. ولكن الأشياء تضغط على ذهني وتهدر مدوية داخل ساحة الوعي في ساعات الجيشان المسائية، فأحسب أن كل شيء قد استحال إلى كابوس. فما لم أكن مضطراً تمام الاضطرار، فإنني لا أخرج من البيت في فوعة المساء، ولاسيما حين يشتد الحر أثناء تموز وآب، أو عندما يبلغ الصيف أوج استفحاله.

ترى، كيف أوفّق بيني وبين هؤلاء الناس الذين لا يزعجهم الوسخ ولا الضجيج؟ وما الذي يربطني بهم، أو يجمعني بجموعهم، مع أنهم لا يفحصون حياتهم التي يحيونها على مزبلة؟ إنها حياة لا نكهة لها ولا هدف ولا معنى. فما هذه المجانية، يا ترى؟ وأي لزوم لما لا يلزم قط؟ أي لزوم لهذا الذي يجري، بل لهذا كله؟ وما الجداء من هذا العبث العابث الخالي من كل ما هو ذو بال؟ ما هذا التشيؤ الذي لا يقبل الإحياء أو الانبعاث والحراك الحي؟ ومن المحال أن تكون لك قيمة بين هذه الكائنات الأليفة السادرة في عطالة لا مخرج منها على المدى المنظور. ففي البداهة أنه لن يعرف لك قيمة سوى من كانت له قيمة. ولعل مما يقبله الكثيرون أن عصرنا هذا له شخصية هلامية تشبه هيئة الرخويات. وفي مثل هذه الحال، فإن الكائنات البشرية لن تنال سوى قيمة مادية وحسب.

ولعل في الصدق أن هذه الحشود الغزيرة والمفككة في آن واحد، والتي اقتلعتها الإرادة التاريخية من جذورها، ثم طوحت بها إلى هوامش الحياة وأرصفتها المقفرة، فصارت بلا حاضر ولا مستقبل مرموق، لا يقيم أودها النفسي المتين الصلة بالهوية أيما شيء من مملكة اللباب سوى النزر اليسير. وهذا يعني أن الجموع الغفيرة التي تملأ أزقة مخيمنا هي كتل بشرية بغير أسانيد تسند وجودها الهش، أو بغير أصول تملك أن تؤصل هويتها في تربة الزمان. ومن شأن هذه الحال الناشفة أن تجرد الأشياء من مذاقها الذاكي، أو من ملمسها الدافئ الحنون.

وفي الماضي كان الكمال هو المقصود الأول لكل إنسان طيب، أو بغيته الأولى التي يعمل من أجلها بدأب ونشاط. أما اليوم، في زمن المال والاستهلاك وتوثين السلعة، فما عاد للبشرية أية مقاصد عالية، اللهم إلا أن تكون هنالك أهداف صغيرة تخص هذا الفرد أو ذاك، ولكن دون أن يكون لها أثر ذو بال. وفي الأمس القريب كان إحساس الإنسان بالماضي قوياً جداً، وذلك يوم كانت الدنيا لم تزل عذراء مأهولة بالبكارة والقدرة على الابتكار. بل لقد كان الجميع يتطلعون إلى مستقبل مفعم بالسعادة والهناء، وكذلك بالكرامة والعزة الوطنية. كما أن الإنسان لم يكن ينكر سوى الحاضر وحده. وقد يجوز الزعم بأن الفرد المتعلم كان يعمل، أحياناً، من أجل إنضاج غريزة التاريخ. وهي قوة ذاتية تنزع إلى تحسس الماضي بوصفه ينبوعاً من ينابيع الوجود. أما اليوم فلم يعد الناس يأبهون بالماضي إلا قليلاً، كما أن المستقبل ما عاد يهمهم أو يشغل بالهم، حتى لكأن الزمن قد صار بغير وجود. إنه المال والبضائع والاستهلاك. إنها البضائع، أفيون الشعوب، أو الأفيون الذي لا يرفضه أحد إلا من عصم ربك.

ترى، هل يتيسر للمرء أن ينجز أي انتماء أو ولاء في هذه الفترة الشاحبة العجفاء؟ ألا يشعر الوجدان بأنه مقتلع من جذوره حين لا يكون منتمياً إلى أية جهة من الجهات؟ إن عدم الانحياز إلى فئة، أو عدم الانتساب إلى قوة من قوى الزمان، يملك أن يخلق للحياة في ثغر المرء الحساس مذاقاً لا يختلف كثيراً عن مذاق الرماد. ولهذا، فإنني أشعر بالحاجة إلى موالاة شيء من الأشياء، حتى ولو كان حجراً، بل لو كان صنماً يدخر صورة مثالية عالية. إن الحاجة ماسة في هذه الأيام الموحشة إلى قيم رفيعة تملك أن تتجاوز السلعة لتبلغ إلى كرامة الإنسان التي امتهنت أيما امتهان. وعبثاً تنهر الصفاقة كي تصون شيئاً من القيمة، لأنك مهما تفعل فإنها سوف لن ترعوي بتاتاً.

ويبدو أن اللامبالاة التي يتصف بها الفرد في الزمن الراهن، والتي طورها لتكون بمثابة آلية دفاعية تقيه غائلة القلق الذي يستطيع أن يلحق به أذى كبيراً، هي قوة سلبية تملك أن تدمر الحياة الأصلية في نفوس الناس. فالحياد والتنصل والشعور بالعجز حيال الواقع، وإدارة الظهر لما يجري، والتلهي بالسفاسف

والترهات، هذه هي أبرز صفات الغالبية العظمى من الناس في وقتنا هذا. وعندي أنه ما من سلب إلا وتقف وراءه الولايات المتحدة التي أراها التجسيد الأكبر لجشع لا يشبع قط. وبفعل هذا الجشع المسعور صارت تلك الولايات الهمجية أكبر قوة إبليسية على الأرض، كما صارت قاعدة يصدر عنها إرهاب مغولي عارم يجهل الاعتدال، بل يجهل الحدود. ولهذا، فإن أعظم خير يملك أن يقدمه التاريخ للأرض، أو للإنسانية بأسرها، ولا سيما للأمم المستضعفة، في الحاضر أو في المستقبل، هو أن يفرز أمة خيرة تملك أن ترمد تلك الأمة الجحيمية التي تحترف القرصنة والنهب والعدوان والإرهاب.

ما أحوجنا اليوم إلى بذار وخمائر، ما دمنا نحبذ النمو الكيفي وليس الطوفان الكمي العديم الجداء، وهو يذكرني بمقولة «غثاء السيل» المشهورة. وهذا يعني أن من واجبات عصرنا الراهن أن يخلف للمستقبل شيئاً آخر سوى رماده الكابي، الذي تكدس حتى ملأ الدروب كما ملأ القلوب. إن عليه أ ن يورّث جمراً قابلاً لإشعال الوقود الذي سوف يكدسه المستقبل الخصيب، أو ما يرجى له أن يكون خصيباً ذات يوم. وهذه دعوة أوجهها لكل فرد فريد على نحو الخصوص، أو لكل من هو قادر على الابتكار والإبداع ومقاربة الفعل الأصيل الذي لا يقدر عليه إلا الروح الأصيل. وقصارى المذهب أن علينا أن نورّث الأمل للأجيال التي لم تولد بعد.

* * *

أما الآن فبودي أن أسجل ههنا جملة من الحقائق أسميها «الحقائق السبع الكبرى»، وأراها أبرز صفات الإنسان، بل أبرز الحقائق التي تخصه، علماً بأن حقائق الإنسان تتأبى على كل تحديد، وذلك لأن هذا الكائن بحر بلا شطآن. ولقد استخلصتها من التجربة الطويلة ومن ملاحظة الناس في الحياة الإجرائية، وكذلك من التأمل والنظر في بطون الكتب التي أطعمتها أنوار بصري خلال السنوات الستين الأخيرة:

أولاً: ـ هو كائن أناني يعبد القوة، ولا سيما المال وكل ما هو وثيق الصلة بالملكية الخاصة، وذلك لأن القوة من شأنها أن تشبع أنانيته التي هي كبرى صفاته على الإطلاق. وما من شيء سوى القوة يملك أن يجعله يشعر بأنه قد أكد ذاته بوصفه قيمة كبرى في الواقع المحسوس. ولكنه يرضخ للقوة ويهابها حين تتجاوزه، ولا سيما قوة السلطة وقدرتها على الفتك بالفرد. فإما أن تخيف الإنسان وإما ألا يقيم لك أيما وزن إلا لماماً. وهذا يعني أن هنالك فروقاً بين الأفراد ليست

بالطفيفة. فثمة من هو خامل أو خانع، ومن هو مصنوع من النار، كالمتنبي، مثلاً، وهو في نظري أشبه بروح يمتطي الريح جواداً من جياد الجن.

ومن شأن عبادته للقوة أن تجعل منه كائناً شديد النهم والطمع في كثير من الأحيان، مع أن «كل ذي أمل مكذوب»، على حد عبارة عبيد بن الأبرص. ويبدو أن هذا الجشع أمارة من الأمارات الدالة على أن الزمان في نظر معظم البشر فتي على الدوام، أو كأنه شاب غرانق لا يعنو للشيخوخة والهرم بتاتاً، وذلك لأن الجشع من عادته أن يحث المرء على الحركة الجادة ويبعد السأم عن نفسه. وكل من يتحرك بحرارة فهو شاب، وكل ما هو شاب من الداخل يرى الدنيا شابه ناضرة خضراء وذات جاذبية وزهاء. ومع كثرة الذين يعتقدون بأن «مال الدنيا يبقى في الدنيا» فإن الجشع يحرك غالبية الناس، فتراهم يتصرفون وكأنهم باقون إلى الأبد على هذه الارض، بل كأن الموت إشاعة أو أكذوبة، ليس إلا.

ثانياً ـ يتحمل الشقاء ويفضله على الفناء. ويرمز لعذابه برمز الصليب الذي قدسته شعوب كثيرة، لأنه إشارة إلى تعاسة البشر وعذابهم المرير. وعندي أن هذه الحقيقة هي أكثر الحقائق جدارة بالانتباه. إن النفس تفضل الشقاء على الفناء، وتؤْثر على الموت أسوأ أصناف البؤس والتعاسة. ويبدو أن الحياة هي كل شيء في نظر الإنسان العادي.

ثالثاً ـ ومع أن الإنسان يخاف العدم والموت، فإنه في كثير من الأحيان لا يحجم عن أن يموت دفاعاً عن وطنه، أو عن مثله وقيمه العليا. فالإنسان ظاهرة عصية على الإدراك الكلي الشامل، ولا يملك أحد أن يتكهن بردود فعله، ولا بسلوكه حين يوضع في المواقف العسيرة. فهذا الكائن الذي ينجبه الحب ويلتهمه الموت، والذي يقرضه تصرم الزمن كما يقرض المبرد الحديد، قبل أن يسلمه للفناء ليكون لقمة سائغة عاجزة عن كل مقاومة، فيعيش في قلق دائم من حصار الزمن جالب العدم، إن هذا الكائن الذاتي الوحيد على الأرض كثيراً ما ينسى أنانيته، بل يتنازل عن حياته برمتها، ويقتل في سبيل مبدأ، أو في سبيل قيمة عالية، أو دفاعاً عن وطن لا يكون له فيه مرقد عنزة. وهذا يعني أن ذلك الكائن الأناني هو في الوقت نفسه ذات تصنع المثل كما يصنع النحل العسل. وقصارى المذهب أن الإنسان قلما يستطيع أن يكون بغير قيم عليا تضفي شيئا من النكهة على حياته أو وجوده. إذن، الإنسان كائن مثالي، مع أنه في بعض الأحيان يبيع مثله مقابل المال.

ولكن، مع أن الإنسان كائن مثالي منحاز إلى الخير ضد الشر، في الغالب الأعم، فإن المثنوية الأولى في تجربته ليست هذه المثنوية الزرد شتية، بل هي مثنوية الوجود والعدم، أو تفضيل البقاء على الفناء، حتى ولو كان مغمساً في التعاسة من سمت الرأس إلى أخمص القدمين.

رابعاً ـ هو كائن مولع بالجنس الآخر، أي يحن إلى حب حميم عميق يلحمه بطرفه الثاني على نحو روحي، كما أنه يميل إلى الاتصال الصادق بأخيه الإنسان اتصالاً جوانياً خالصاً، وإن هو لم يستطيع أن ينجز هذه الرغبة في كثير من الأحيان. فالغرام والصداقة ينتسبان إلى منظومة المثل العزيزة على فؤاده. ويصدق المذهب نفسه على الإخاء الذي هو حاجة كبرى من حاجات الروح البشري.

خامساً ـ إنه مغرم بالمعرفة والتنقيب عن الحقائق والمعلومات، ولاسيما الأسرار والمجاهيل. ولكنه، للأسف الشديد، محروم من أي رائز يروز به الحقيقة ليتأكد من صحتها أو من زيفها. وحبذا الإشارة ههنا إلى أن الحقيقة الذاتية على نحو خاص يتعذر فيها اليقين الحاسم الجازم، فليس هنالك في هذا الموضع سوى الزكانة والاجتهاد. وكما أكدت الصوفية، إن الإنسان، أو معظمه، رابض في باطنه اللامنظور، أو الذي يحدس ولا يعرف.

سادساً ـ إنه مزود بغريزة يسعنا أن نسميها غريزة الدين، وهي قريبة من غريزة المثل الآنفة الذكر، والمختصة بإنتاج القيم الاجتماعية والأخلاقية، ولاسيما الالتزام بالأسرة والوطن والصديق والجار، وما إلى ذلك من قيم تضفي على الحياة نكهة طيبة. ولكن ثمة ما هو جدير بالتنويه في هذا الموضع، وهو أن هذه القيم كلها نسبية، أعني أنها تتغير بتغير الشروط. فالإنسان كائن مشروط دون أدنى ريب.

سابعاً ـ إنه مزود بغريزة ثانية أسميها الغريزة الذوقية، وهي التي من شأنها أن تجعله ينفعل بالجمال وينتج الفنون والآداب والأفكار، وكل ما هو متين الصلة بالحساسية والخيال والوجدان. وهو، من هذه الجهة، شديد الغنى بالممكنات، بل إن طاقاته الكامنة تجهل الحدود، وذلك لأن النفس بحر مفتوح على اللا نهاية التي لا يحاط بها بتاتاً.

* * *

قد لا تكون هذه الخلاصة جهداً كافياً لتوضيح صورة الإنسان أمام الذهن النهم الذي لا يكتفي بالعجالات، ولكنها، مع ذلك، تمنحه مطلاً يطل منه على المشهد النفسي، مما قد يمكنه من استيعاء جملة من الحقائق الجديرة بالانتباه. فمما هو في البداهة أن علم النفس أو علم الإنسان لا يقنعه ما هو أقل من مجلد ضخم يتألف من ألف صفحة أو زهاء ذلك. ولا مراء عندي في ان القول الفصل من اختصاص التجارب العملية أو الإجرائية، وإن كان لا بد من أن نمنح المستور، أو محتوى اللا شعور، مساحة ليست بالطفيفة.

فالإنسان لن يفهم إلا ميدانياً أو سلوكياً بالدرجة الأولى. فمثلاً، أليست مقولة الغيرة شديدة الأهمية في هوية الإنسان؟ ومع ذلك فأنا لا أعرف واحداً من علماء النفس المجدين قد أولاها ما تستحق من الانتباه، مع أنها تسهم أيما إسهام في تحريك سلوك الفرد، أو تحريضه على التصرف العملي. وهي تمتّ بصلة إلى نزوع المرء صوب حيازة القوة. فالإنسان من الأنانية بحيث لا يقبل أن يرى من هو فوقه، أو من هو أكثر منه نجاحاً، إلا على مضض. وهذا يعني أن الغيرة هي بنت الأنانية، إن لم تكن شكلها الآخر.

وفي مذهبي أن الإنسان لا يتيسر لك فهمه على ضوء مقولة واحدة أية كانت. فلا الجنس ولا الاقتصاد (أو حيازة القوة) ولا تصرم الزمن ولا عبادة المثال، بل ما من شيء بمفرده قادر على تفسير الإنسان، وذلك لأن هذا الكائن الذاتي متعدد الأوجه، أو قل إنه مركب من عناصر قد لا يحصيها الإحصاء. فهو حزمة كبيرة من الغرائز، بعضها قابل للخمود بفعل الشروط وبعضها الآخر مشتعلٍ دوماً. فغريزة الكفاح تتفجر في كل فرد تقريباً دونما عطالة. أما غريزة الوطن، أو غريزة الالتزام بالأقرباء، مثلاً آخر، فالشروط كفيلة بإخمادها، أو بانتزاع زخمها على الأقل.

وعندي أن أكثر الأفكار اعتسافاً هي تلك الفكرة التي تحاول أن تفسر الدين والفن والحرب تفسيراً جنسياً يؤسسه مبدأ الشبق. فهي في نظري سخف أو صنف من أصناف الشطح أو الشطط المتطرف الخارج عن تخوم العقل. ولقد كان من الخطل أن راحت إحدى مدارس علم النفس الحديث تخلط الجنس بالحب زاعمة أن هذين الشيئين هما شيء واحد بعينه، مع أن الفرق بينهما هو كالفرق بين الثرى والثريا. ترى، لماذا يختار الرجل امرأة يفضلها على ألف امرأة وأحياناً على جميع النساء؟ ألا تفي أية امرأة أخرى بالغرض لو كان الأمر يتعلق بالفعل الجنسي وحده؟ ألا تتدخل عبادة الجمال في هذا الموضع؟

إن الحب ليس الجنس وحده، بل هو الجنس وقد أضيف إليه عنصران آخران، وهما عنصر الجمال وعنصر السر أو اللامفهوم. فهنالك من أخبرني بأن بضع نساء قد راودنه عن نفسه، ولكنه رفضهن جميعاً، وذلك لأنه لم يكن يبحث عن فعل جنسي آني أو عابر،" بل عن حب صادق ودائم وحميم، أومن ذلك الصنف الذي يزود الحياة بالأصالة والنكهة المنعشة.

وفي الحق أن الفعل الجنسي قابل للشراء بالمال، أما الحب فشراؤه متعذر في أي مكان وزمان. فالجسد مادة تقبل التبادل، شأنها في ذلك شأن جميع المواد. وفي الصلب من عقيدتي أن من لا يميز الحب عن الجنس لا يفقه النفس ولا الحياة قط. فهو لا يميز بين السعادة واللذة الموقتة. وقد أحدّ الحب بأنه الالتحام الكامل بالمناسب أو الاتحاد معه في وحدة سلمية عليا من شأنها أن تناهض توتر الحياة. وقد يكون الحب امرأة تزهر في بالي على الدوام، حتى وإن كانت امرأة خيالية لا

وجود لها قط، أو هي من ذلك النوع الذي تحدث عنه ابن عربي في الجزء الثاني من «الفتوحات المكية» (الباب الثامن والسبعون)، وذلك حين قال بأن ألطف ما في الحب أن تجد عشقاً مفرطاً ولا تدري فيمن ولا يتعين لك محبوبك.

فبينما يهدف الفعل الجنسي إلى إطفاء توتر الجسد، أو إلى إطفاء توتر النفس بما هي طاقة جسدية، فإن الحب يعمل على خلق انسجام بيننا وبين العالم، مما يجعله شيئاً أثيرياً وثيق الصلة بالروح لا بالنفس، حتى كأن المرء حين يكون في ظله أو في كنفه الرحيب إنما يرضع من حلمة تفيض بالترياق الشافي من جميع الآفات والأوصاب، حتى ليجوز القول بأن المرأة بغية المرء كما أن النار بغية الفراشة. وهذا يعني أن الحب هو التناغم أو الوئام، بل الرضا الكلي عن الوجود وترسيخ الاعتقاد بأن الحياة تستحق أن تعاش. وفي ميسوري أن أصرح بأنني ما عرفت حالاً أشهى إلى قلبي من الحب. ولقد علمتني تجربتي أنه الفعل الوحيد الذي يستطيع أن يتغلب على السأم وخواء الأشياء ووحشة الكون أو رهاب الوجود.

ففي الحب ثمة حنان وثمة دهشة انخطافية حية لعل من شأنها أن تقرب الحياة من الحلم وتبث فيها نشوة الثمل. ولا يتوفر هذان العنصران في الفعل الجنسي الذي يمكن للإنسان أن يمارسه بغير حب، مثلما يمكن له أن يعيش حباً بغير جنس. ولئن توفر هذان العنصران، أقصد الحنان والدهشة، في الفعل الجنسي فإنه يستحيل إلى حب دون مراء. ومع أنني أوثر الحب على الفعل الجنسي، وأرى الأول أسمى من الثاني بكثير، فإنني لا أقلل من شأن الفعل الجنسي بتاتاً، بل أرى في الإيروس إلها خلاقاً تنعدم الحياة البشرية من دونه وتزول. ولهذا، فإنه معبود في الأرض شأنه شأن مامون، صنم الذهب والمال، سواء بسواء.

وفي الحق أن بعضاً من حالات الحب التي عشتها أنا شخصياً قد كانت مأهولة بنوع من الدهشة لا شهوة معها قط، فلم أفكر بأي اتصال جسدي أثناء تلك العلاقة الغرامية الدافئة والنافية للغريزة الجسمية، بل كنت قانعاً بأن الفعل الجسماني لو حدث لأفسد العلاقة الغرامية أو لأنزلها إلى مرتبة أدنى مما هي عليه. ففي وجداني أن بعض أصناف الجمال لا توحي للروح بأية شهوة غريزية، بل قد تنتج في داخله شعوراً روحياً بأنه أمام كائن خلق من أجل القداسة وحدها. وكثيراً ما وصفت ذلك الجمال الرائع، الذي قد لا تملك اللغة أن تصفه، بأنه الجمال الموحي، أو المحرض على السمو والعلو. وقد يتيسر القول، ولكن على سبيل المجاز وحسب، بأن هذا الصنف من أصناف الجمال، هو بقية من بقايا جمال الفردوس، أو رسابة من إرث حواء التي جاءت به من الأعالي الماورائية. كما أن لغة الحب الدافئة قد تكون مما ترسب على لسان آدم وحواء من لغة بعدما هبطا على الأرض. إنها من بقايا اللغة التي تعلمها آدم من الله مباشرة يوم كان في الجنان. ولهذا، فإنها لغة حنان وعطف ولطف ورقة وطراء، أي مما يتناسب مع ماهية

الفردوس وطبيعته اللدنة. وربما كانت الطبيعة السماوية للحب هي التي دفعت المجنون إلى هذا القول الأصلي:

لقد فُضلت ليلى على الناس مثلما على ألف شهر فُضّلت ليلة القدر

وفي هذا البيت ثمة برهان على أن الحب والجنس شيئان مختلفان تمام الاختلاف. فبينما يهدف الأول إلى السمو ورفعة النفس، فإن الثاني يهدف إلى إطفاء توتر الاغتلام.

* * *

لعل مما هو مؤكد تماماً أن الأدب ينال من اهتمام الناس أكثر مما تنال الفلسفة بكثير. وما كان لهذا الأمر أن يكون من قبيل الصدفة، بل لا بد له من سبب كاف حتم هذا الاهتمام والانتشار في العالم كله. فالأدب فعلاً ألصق بالحياة والواقع التجريبي من الفلسفة، أي إنه وثيق الصلة بالسلوك البشري الذي يقاس بالفعل.

وذات يوم ذهب الدكتور جونسن إلى أن معيار القيمة التي يستحقها أي نص أدبي هي قدرته على شرح التجربة التي يمارسها البشر. وكان ذلك الناقد الفذ هو أول من قال بأن على الكاتب الأدبي أن يجعل الحياة والمجتمع أفضل مما هما عليه، وذلك قبل ماركس بمائة سنة تقريباً. (ولكن هذه الفكرة هي شيء من فصيلة الشطط، بل من قبيل الشطح.)

ففي الحق أن شرح التجربة البشرية المعيشة هو من اختصاص الأدب قبل سواه. فالأدب أهم من الفلسفة لأنه يهتم بالحي وبتأثيره على الوجد والوجدان، بينما تنهمك الفلسفة بالتصورات والتجريدات التي قد لا تتناسب كثيراً مع الوقائع، أو مع الحياة المتدفقة النابضة. وهذا يعني أن للأدب هماً وللفلسفة هماً آخر. وهما شيئان متغايران، مع أن بينهما تداخلاً قد لا يخفى على الألباء.

فلعل مما هو مقبول أن الأدب العظيم يغلغل في نخاريب النفس، ولهذا فإنه يملك أن يزودنا بالجرعة الانفعالية الكثيفة، أو الغزيرة والشبيهة بعصارة سرية منعشة. وحين يملك الكاتب الأدبي، ولاسيما الروائي والمسرحي، أن يزوج الأحداث بالانفعالات الوجدانية، أو قل حين يتمكن من أن يحيل الفكرة إلى سورة انفعالية والسورة الانفعالية إلى فكرة، فإنه يكون قد بلغ إلى ذروة الابتكار. فهو

بذلك يلغي كل فرق بين الذهن والوجدان. وحينئذ، يكون قد استجاب للمسغبة الروحية الدائمة، وهي التي تجيء جميع الفنون والآداب ابتغاء سد حاجتها بما يناسبها من قوت، أي من أجل إشباعها قبل كل شيء.

وأما المبدأ الثاني فهو أن الحقيقة الباطنية النفيسة لا يحدد قيمتها وأهميتها شيء سوى سورة الوجد وعرام الوجدان، أو شدة زخم الاندفاع صوب البغية والمطلوب. إنه الهم، المؤسس الأول لشخصية الإنسان، ومحدد سلوكه وأولوياته كلها. وهذا هو أول درس تقدمه الصوفية التراثية لأي من المهتمين بها. أجل، إن اللهفة هي المعيار، أقصد معيار الجودة أو معيار القيمة والاهمية. وهذا يعني أن الباطن أو الداخل له الأولوية على الخارج أو الواقع. وهاهنا بالضبط يكمن الفرق بين صوفيتنا وبين الصوفية الأوروبية التي وضعت الشدة على غموض العالم وانبهام الأشياء.

ما من قيمة في المرتبة الأولى إلا للمؤلم والكارث، وإلا للتوتر وسورة الاحتدام. وهذا يعني أن القيمة كلها من نصيب ما يوقد شعلة الوجد والوجدان، أو هي تؤول إلى ما يتفتق عنه صميم النفس من أشواق عارمة دافقة غزيرة. أما الخير فهو أولاً ذلك القلق الذي تفرزه النفس حين تواجه بؤس الحياة البشرية، ولاسيما عندما ترى افتراس الأقوياء للضعفاء، وتدرك عدم وجود أية وسيلة فاعلة للحد من هذا الافتراس اللعين. ولهذا، فإنني لا أرى البتة أية قيمة تملك أن تبذ ذلك الإنسان الذي يبذل جهداً ملموساً كي يخفف من آلام الجنس البشري، وخاصة كي يحد من اضطهاد الإنسان للإنسان. وبإيجاز، إن القيمة كلها من نصيب أولئك العاملين في سبيل إنسانية الإنسان، وإن كل ما لا يكافح الشر لا يتمتع إلا بقيمة ثانوية وحسب.

ومما يؤرقني في هذا الشطر الخريفي من عمري أن الذهن عاجز عن الالتقاء بمركز للأشياء يسعني أن أفيء إليه دوماً، لأنه يملك أن يجعلها تتوضع قارة على محيطه الكبير، بحيث يصير مرجعها النهائي. وقد أكون على صواب إذا ما زعمت بأن عبادة الخير بأصنافه كافة، ولاسيما العطاء والتسامح، هي مركز المراكز كلها.

وأما أحقر الأفعال فهو أن يلحق إنسان أذى كبيراً بإنسان آخر قد لا يتعافى منه طوال حياته، وذلك من أجل مصلحة صغيرة يحققها الخبيث على حساب البريء. فلست أمقت أحداً كما أمقت ذاك الذي يتخذني وسيلة لغاية من غاياته، ولا سيما إذا كانت تلك الغاية صغيرة أو حقيرة. وعندي أن هذا الفعل الخسيس يدخل في أحط أصناف الشر وأكثرها لؤماً واستهانة بإنسانية الإنسان.

وأما مثلي الأعلى فهو الإنسان الذي يتحسس الشر والألم: البوذا والمعري وشوبنهور ودكنز. وما من شيء يرجّني، بل يزلزل كياني، كما تفعل حتمية الشر،

أو ديمومته وعدم قابليته للدحر. ولهذا، فإن على التربية أن تطور في كل فرد حاسة مختصة بالتمييز بين الخير والشر، وأن يكون من شأن تلك الحاسة النبيلة أن تجعل الروح تشمئز من كل شر، ولاسيما العدوان وإلحاق الأذى بالناس على وجه الخصوص.

لقد لحق بنا نحن الفلسطينيين أذى كبير على أيدي أولئك الأشرار المحترفين للنذالة، أعني اليهود. فلقد استطاعت حفنة من الكائنات شبه البشرية أن تسرطن العالم الراهن وأن تحيل الحياة إلى وليمة من رماد. وإنه لأمر مأسوي أن تكون أضحية، أو حتى فريسة، لكائن خبيث لئيم لا يتمتع بأية مزية مهما يكن نوعها. فحين أقرأ شطراً من التوراة، أكثر الكتب افتقاراً إلى النبل، بل الكتاب الذي يتألف من ثلاثة عناصر: الكذب والترهات والحقد، أو اللؤم، أراني أشعر بأن من العار والشنار أن يكون المرء يهودياً، أو ذا صلة بهذا الكتاب الخسيس. ولكنني أشعر بعار أشد حين أتذكر أنني أشترك مع اليهودي بالماهية الإنسانية.

وعلينا أن نركع لا رادتهم الإبليسية، وإلا فإننا مخربون وإرهابيون ندافع عن الشيطان، أما هم فملائكة جاؤوا من الفردوس الاعلى، ولم يأتوا من عشرات الآفاق، ولاسيما من أوروبا الشرقية. ويزعمون أنهم قد عادوا إلى أرض أجدادهم، وكأن أجدادهم ليسوا أوروبيين شرقيين. وأنزلوا بنا نكبة فاجعة لا نظير لها في التاريخ كله، وذلك بعدما أيدهم الغربيون المسعورون تأييداً لا عقل فيه. فلا يعرف التاريخ فئة خدمت فئة أخرى كما خدم الغربيون اليهود. ولقد ساندهم هذا العالم المسكين بأسره تقريباً، ساند القيح الذي يسمى اليهود والجرب الذي يسمى الصهيونية، فانحاز إلى القاتل ضد القتيل دون أي تبكيت من ضمير. وافتروا فرية كبيرة خلاصتها أن الحرب هي التي شردتنا من ديارنا. ولئن صح هذا، وما هو بصحيح، فلماذا لم يسمحوا لنا بالعودة إلى بيوتنا بعد انتهاء الحرب المزعومة؟

ولولا هذا التأييد المتطرف المفتوح، والذي أراه علامة انحطاط في تاريخ الغربيين، لطردناهم بالعصي والحجارة، بل لطماً بالأحذية المهترئة التي لا يستحقون سواها، وذلك لخسة أفعالهم ولتطرفهم في الإرهاب والإجرام الفاجع.

ومن العجائب أنهم قد هزموا ثلاثة جيوش عربية كان الانجليز قد أعدوها لمواجهة الألمان إذا ما وصلوا إلى قناة السويس، أو إلى آبار النفط في العراق. وإني لجازم، وذلك انطلاقاً من خبرتي العملية، أن الجندي العربي مقاتل ممتاز جداً إذا صدرت إليه الأوامر بالقتال. ولكن المصيبة هي هذه «الماكو أوامر» التي تشبه الشلل. كما أن من السخف أن يعتقد المرء بوجود جيوش عربية، سواء في عام النكبة أو في الزمن الراهن، وذلك لأن هذه الجيوش هي جيوش الإمبريالية التي أسستها بعد الحرب العالمية الأولى أو في غضونها.

وأيّا ما كان جوهر الأمر، فقد استطاع أولئك اليهود الأرذال أن يسرطنوا العالم بأسره، وان يسمموا كل ذرة من ذراته دون استثناء، فحايثته اللعنة من باطنه، حتى لقد استحال العيش على الأرض إلى صنف من أصناف العوم في جحيم جاحم لا يطاق، وذلك بعدما أرغموا الحياة على أن تخسر بكارتها وعذوبتها التي كانت لها قبل زهاء أربعين سنة. وما من ذريعة لهم سوى أجدادهم الذين تكرسهم توراتهم الشنيعة، بل الإرهابية إلى الحد المثير للاشمئزاز. وبودي أن أؤكد للقاصي والداني أنه إما أن تكون بابل وإما ألّا تكون التوراة، أي لولا بابل لما كان للديانة اليهودية أي وجود.

ثم إنني أتحداهم أن يبرهنوا على أن لهم أجداداً في أية حقبة من الأحقاب التاريخية، وفي أي مكان من أماكن الدنيا. يقيناً، إنهم ليسوا سوى طفيليات حقيرة ما جاءت إلى منطقتنا إلا لتلهط حصة كبيرة من عائدات النفط العربي. ولو لا ذلك لما شاهدهم أحد في هذه المنطقة برمتها. وفي تقديري أن الغيتو الصهيوني سوف يجف ويتلاشى، أو يضمحل، يوم يجف نفط العرب بعد مائة سنة أو مائتين، وربما جفت الحضارة الحديثة كلها في ذلك اليوم.

ولكن لا يكفي أن يكون اليهود لئاماً والغربيون من سلالة الشيطان لكي تحل بنا هذه الهزيمة المنكرة الشبيهة بالخصاء، والتي سحقت ماهيتنا وطوحت بها إلى هامش التاريخ. وهذه هي الحال التي تستحق أن تسمى خصاء العرب. كما لا يكفي أن تتحالف الطبقة الخائنة في العالم العربي مع الامبريالية والصهيونية، وأن تكرس جميع أنظمتها وأحزابها وأجهزتها، ولاسيما الجهاز الإنكشاري السيء الصيت، وكذلك مثقفيها العاملين على هدم موروثات الأمة العربية بشتى المناهج، لكي تتحقق هذه الهزيمة نفسها. ففي الصلب من مذهبي أن الأمة العربية ما هزمت هذه الهزيمة الشائنة والمريرة في الوقت نفسه إلا لأنها تفتقر إلى الإنسان أيما افتقار. وههنا بالضبط يكمن بيت القصيد. فالجسد القوي لا يفرز الجراثيم الفتاكة، كما لا تنتصر عليه الجراثيم الوافدة إليه من الخارج. فحيثما كان هنالك نصر أو هزيمة، صار لزاماً على الذهن أن ينقب في الشخصية العامة إذا ما أراد أن يعرف سبب النصر أو سبب الهزيمة. يقيناً، إن الإنسان هو كل شيء في جميع وجوه النشاط البشري. ولا غلو إذا ما زعمت بأن إنساننا، في الغالب الأعم، منسوج من الرخاوة والفجاجة والعجز، مما يجعله شبيهاً بالخرقة البالية.

وهاهم أولاء يجردوننا من هويتنا الإنسانية حين ينعتوننا بأننا مخربون وإرهابيون، وحين يرفضون أن يروا فينا بشراً نكافح في سبيل مستقبل أطفالنا، مع أنهم، بكل نصوع، قوة من اجل الإرهاب والإجرام. فلئن تأمل المرء ما جرى في العراق خلال السنوات السبع الأخيرة لاستهجن أن يكون اليهودي قادراً على ممارسة الحقد والعدوان وسفك الدماء إلى هذا الحد المفرط في الخساسة واللؤم. أما الهدف الأكبر من الاعتداء على العراق فهو تدمير البلد العربي الوحيد الذي

ينطوي على إمكانية اجتثاث الغيتو الصهيوني من جذوره في المستقبل. ولكن ما جرى في العراق هو تنفيذ لإرادة اليهود الذين يملكون كلاً من العرب والغرب ملك يمين. ولا أدل على ذلك من أن كل من أنكر المحرقة المزعومة، أقصد ادعاءهم بأن هتلر قد أباد منهم ستة ملايين، فإن أوروبا تزج به في السجن، مع أنها معقل الحرية، كما يزعم الأوروبيون. فيا له من بائس هذا الأوروبي الذي سخر عبقريته كلها لخدمة اليهود. ويا لهذا العالم الذي آثر لؤمهم على سذاجتنا.

إن هذا الشر الذي يسمى اليهود، والذي اعتدى علينا وشردنا من ديارنا بالمجزرة وقوة السلاح، وعلى نحو جنوني مثير للتقزز، هو ما قد جعلني أومن أقوى إيمان بأن تحسس الشر المقيت أو دحضه، ينبغي أن يكون الهم الأول لكل إنسان مطهم نبيل، ولكل نفس زكية تأبى العدوان وما ينطوي عليه من ثلب للماهية الإنسانية. إن مستوى موقفك من الشر هو معيار مروءتك والمحك الأول لإنسانيتك، أو لكونك من سلالة النور الصريح. وربما جاز لي أن أنوه باعتقادي بأن رواية «البؤساء» لهوغو هي واحدة من نخبة الروايات في العالم كله، مع أنها لا تخلو من عيوب فنية جسيمة، وذلك لأنها مختصة بتحسس الشر وبالكفاح ضده. وفي مذهبي أن تلك الرواية لا يتيسر لها أن تظهر إلا في مجتمع وثيق الصلة بالمسيحية التي تتخذ من عبادة الألم البشري بؤرتها المركزية.

وللسبب نفسه كان زردشت انساناً عظيماً جداً، فهو أول من نبه إلى وجوب دحر الشر، وأول من حث البشر على الانتساب إلى شيعة الخير. وعندي أن كل من جعل دحر الشر شغله الشاغل هو إنسان كبير حقاً، بل إنه الإنسان بأل التعريف. وههنا أراني أسأل: هل هي من الفصيلة الإنسانية هذه الكائنات التي تركت الفلسطينيين لقمة سائغة لليهود، محترفي النذالة واللؤم الكالح؟ أليس من العار على الجنس البشري كله أن تنزل هذه الكوارث الفاجعة بالفلسطينيين دون أن يتحرك أحد تحركاً عملياً بغية إيقاف شلال الدم النازف يومياً؟

ومن الشرور الكبرى في عصرنا هذا أن الامبريالية قد راحت تسرق ثروات العرب وتنفقها على الغيتو الصهيوني، وكذلك على التسلح والحروب، ثم على اكتشاف الفضاء الذي لا لزوم له بتاتاً. وفي السنة الأخيرة سرقت آخر ما تبقى للعرب من ثرواتهم وأنفقتها على الحرب في العراق وأفغانستان، فخلقت أزمة اقتصادية كبيرة، مما رشح ملايين الناس للفقر وربما للمجاعة أيضاً. وفضلاً عن ذلك فإن السياسة الأمريكية تمارس التخريب الممنهج في السودان والصومال وسواهما من أقطار العالم الإسلامي الذي يعرقل الغربيون نموه وتطوره بجميع الوسائل المتاحة.

ولأن الشر أكثر انتشاراً من الخير في الوجود، فإنني أصرح جهراً، ودون مواربة، بأن الجنس البشري، صانع الشرور، نافل أو زائد عن حاجة الكون، بل بأن الكون نفسه لا لزوم له ولا خير فيه بتاتاً، وعدمه أفضل من وجوده. إنه مادة

حقيرة بغير روح، والمادة إبليسية الطبع ولا قيمة لها في مركز العقل بأية حال من الأحوال. وليس للحياة عند الحصيف أية أهمية، وذلك لجملة ضخمة من الأسباب، وهذه بعضها:

1- كثرة الشرور المتنوعة، ولاسيما اعتداء الإنسان على الإنسان، حتى ليصح القول بأن العداء أكثر حضوراً من الإخاء.

2- الانبهام الذي يغلغل في الكون فيحرم الذهن من اليقينيات الكبرى.

3- افتقار الحياة إلى الهدف الذي من شأنه أن ينظمها ويزودها بالمعنى والنكهة الطيبة في آن واحد.

4- ندرة الأشياء السارة أو المشبعة للحاجات الداخلية أو الوجدانية. وهذا يعني أن السعادة منفية في مكان قصي دوماً، ولا تحضر إلا على ندرة وحسب.

5- إن هذه الدنيا تحايثها لعنة لئيمة لا فكاك لها منها ولا خلاص. ولعل الحرب والكدح من اجل العيش أن يكونا أبرز هذه اللعنات.

6- غالباً ما يكون العز من نصيب الأنذال والانتهازيين وذوي النفوس المنحطة الذين يجهلون الشرف والمروءة والإباء.

7- إن الشيخوخة وحدها، ولاسيما الشيخوخة المصحوبة بالأمراض، هي حال من شأنها أن تقنع الحكيم بأن الحياة تجربة بائسة لا لزوم لها بتاتاً، حتى وإن قضاها المرء في الترف وبحبوحة العيش. أضف الى ذلك ما يكابده المرء من آلام وأوجاع، وكذلك الموت الذي يطارده منذ البداية وحتى النهاية، حتى لكأنه هارب من وجه العدالة، أو لعله قد فرّ من قمقم العدم السرمدي في غفلة من القوى التي تحرسه، فراحت قوة التدمير تطارده لكي تعيده إلى بيت الطاعة، حيث يوصد عليه ويحبس هنالك الى الأبد.

والآن، هل في الميسور أن تتكيف روح الإنسان، أعني الروح النعناعي المطهم، مع دنيا تتصف بجميع هذه المثالب الخانقة؟ وما قيمة حياة تعاش في سواء هذا الجحيم الجاحم اللعين؟ وهل من أمل بعد استشراء الصناعة وما جاءت به من سخام لوث كل شيء، وما فرضته من توترات أقلقت سكينة النائيات، هل من أمل في أن تعود الدنيا إلى بكارتها التي كانت لها قبل فورتها الأخيرة؟

ولكن أهم الأسئلة عندي هو هذا: لماذا كان الواقع ملعوناً بألف لعنة ولعنة، وما من واحدة فيها إلا وتجهل القيلولة أو الإخلاد إلى السكون، ناهيك بالاستقالة والخروج من فسحة الوجود؟ ولماذا لم يكن الواقع هادئاً هانئاً رخاء وطافحاً بالسعادة وجميع أصناف البهجة والسرور؟

وقصارى المذهب أن الحياة الأصلية مسلوبة غائبة، حتى لكأن الغياب هو الشيطان المتسلط على كل ما هو أهيف أو أملد، بل على كل ما هو ذو قيمة أو

أهمية. فالسعادة غائبة، وكل ما هو من فضيلة النعناع غائب أيضاً، وإن حضر فإنه لا يحضر إلا لماماً وحسب.

الفصل الثالث

رسالة إلى سيدة

أيتها الروح السرية المستترة بالمسافة الفلكية، أيتها الماهية الحصينة تجاه كل عيث أو ابتذال، أيتها اللؤلؤة التي لا تنال ولا تطال، مهما يجهد الطالب نفسه ويكدها!

لسوف أحدثك عنك حصرا، حتى وإن حدثتك عن نفسي، أو عن أي شيء آخر مما يرى ومما لا يرى في هذا الكون الشاسع المنداح. فأنا أنت دون أدنى ريب، مندمجين في وحدة وجود حلولية لا تعنو البتة لأي انحلال، على الرغم من كل فاصلة أو مسافة. وأنت كل شيء آخر. أنت البحر والجبل والصحراء، والسهول والسهوب والنجوم والنار والنور والحجر والماء والنهر، وكل ما خطر وما لم يخطر على بال بشر. وهذا يعني أنك أنت اللانهاية التي لا تحدها الحدود ولا تقيدها القيود.

ولكن سوف يكون هناك شيء من الخروج على المألوف في هذا الحديث، وذلك لأن غيابك عن بصري ـ على الرغم من حضورك الدائم في بصيرتي ـ قد أحدث فجوة راحت تتوسط مساحة عقلي، كما رج باطني رجا عنيفا طوال ردح من الزمان ليس بالقصير. أو يعقل أنني لم أرك البتة، ولا كلمتك قط، منذ سنة 1972 حتى الآن؟ ومع ذلك فأنت لم تشيخي ولن تشيخي في بالي بتاتا، بل إنك مازلت زهرة يانعة، أو فتاة سمراء ذات ذوائب كثيفة.

ثم إنني يوم رحت أبحث عنك بلهفة، بل بشيء من اللوعة والحرقة، لم يخطر في خلدي أن لكل رؤية ضريبة لا نجاة منها ولا محيد عنها، ضريبة قاسية ربما كلفت الكثير من نجيع الجوف، أو من الأرق والاضطراب. ولكن أهم ما في الأمر هو أنك ملك لصميمي وحده (أعني صورتك أو طيفك)، مع أن ثمن الرؤيا قد كان باهظا بالفعل.

إذن، لا هجرة لي إلا إليك بالضبط. وحين أهاجر صوبك، حتى وإن ظننت أنني أهاجر إلى سواك، فإنني لا أكون قد هاجرت بتاتا، وذلك لأننا كلينا، أنت وأنا، أقنومان لماهية واحدة لا تقبل التجزئة أو الانفكاك. وإذا ما انفك أي منا عن الآخر فإننا سوف نموت معا بكل جزم وتأكيد. فأنا من دونك لا أقتات إلا بفلذات من ظلام دامس خاثر كالهلام. وأنت من دوني لا معنى لك ولا غاية لوجودك بتاتا. فماذا عساه أن يكون المرء من دون آخره الذي يكمله ويكتمل به على نحو تلقائي؟ ثم إن لغتي وحدها هي التي تستطيع أن تصون فحواك من كل تلف أو تبدد. وبغير هذه اللغة سوف تخرجين من الزمان، أو من قلب مجراه الحي، لتصيري فراغا لا هوية له بتاتا. يقينا، إن لغتي هي جسدك وهويتك الباطنية التي تتوافق مساحتها مع مساحة هذه اللغة حصرا.

وفي حسباني أنه ما من أحد سواي وسوى لغتي استطاع أن يقرأ كنهك النفيس، أو سورة روحك المأهولة بكل ما هو جليل وجميل، والتي تهب عليّ أنسامها في أوقات ليست منتظمة ولا ثابتة. ولهذا، فإن حنيني الدافق الحميم لا يملك أن ينصب أو يستقر إلا على وجهك الذي يشع بالمعاني الخصيبة، وينضح نبلا وجلالا لا مثيل لهما في أي مكان آخر. وبفضل هذه السمة الرائعة، فإنه يومئ إلى هدأة البال التي هي حلم أكثر مما هي إمكان.

أما الزهور التي تتفتح دوما في حقل روحك لتصنع رفها ودعة أو سكينة، فلا وجود لها إلا في جنة عدن وحدها. ولهذا، فإن خلاصة مشتهاي أن أعيش بالقرب منك أو إلى جوارك طوال ما تبقى لي من أيام على الأرض، وذلك لتتفتح أبواب الأسرار أمام بصري وبصيرتي في آن واحد. فلقد خسرت كل شيء تماما يوم خسرتك، يا أغلى الغاليات وأنبل النبيلات. ولكنني إذا رأيتك في هذه الأيام ـ إن كنت سوف أراك حقا ضمن رقعة شيخوختي ـ فربما شعرت وكأنني قد عدت إلى الحياة من جديد. أجل، إذا رأيتك فإن كل خلية في بدني سوف ترعش وتتماوج لشدة شعورها بجمال الوجود وعذوبته الهنيئة، كما قد أشعر بأن شراييني مترعة بيخضور ربيعي طازج، بل هو من مملكة المستورات.

ولهذا بالضبط، أعني بفضل هذا الاستهواء العارم والمحتدم كالعاصفة، فإن وهمي الحنون سوف يخيل إليّ أني أراك في جميع المرئيات، تماما كما كان يفعل ابن الفارض، ولا سيما في النور والماء والنبات، وبخاصة في الشجر ويانع الزهر الذي هو صنف من أصناف النور. وإني لأراك في الغمام والمطر والمروج والغابات، وفي النسيم حين يهب من مدرج الصبا، بل حتى في الأنغام وتغريد الطيور ولغو الأطفال وهم يمرون من تحت نافذتي ذاهبين إلى المدارس في الصباح الباكر.

لوجودك ألف مسوغ، أهمها عذوبة روحك وكمال شخصيتك الشديدة القدرة على الاستيلاء. فما خلقت، يا ذات المزاج الرائق، إلا لكي تؤثري في الأعماق أو تحركي ما سكن منها. ففي الحق أن حبك الثاوي في سويداء فؤادي إلى الأبد، من شأنه أن يضيء كل بقعة حالكة في داخل سريرتي. وتحت ذلك الضياء المتماوج أجد نفسي واكتشفها وأراها من نقطة الكثب. فأنا لا أملك أن استوعب وأفهم إلا بك، أعني إلا بواسطة حضورك الفاتن النشوان.

ولهذا، فإنني حين أكون في حضرتك الصافية صفاء الماس، أشعر بأن البهاء بغمر الأرض وما عليها من تفاصيل وعناصر أو مكونات، وبأنك ومضة من وحي لامع كالبرق، أو نفثة من إلهام يتألق في فسحة الخيال وحدها. ولم يأتني هذا الشعور بالصدفة، بل جاء من حقيقة مؤداها أنك قلما تنهضين بعمل لا يشبه الصلاة، ذلك الزورق الذي يهاجر بروح المؤمن من المنفى إلى الملكوت كل يوم.

* * *

لولاك، أجل لولاك، لولا وجهك النير المستدير استدارة البدر عند انتصاف الشهر، لما كانت حياتي سوى قفر أجرد ينداح وينداح إلى ما لا نهاية، وذلك لطول ما تمرست بمكابدة الآلام النازلة بهذا العالم البائس المسكين. وبما أن حياتي من دونك لا قيمة لها، فإن غيابك عن مقلة العين من شأنه أن يجعل الفؤاد يلوب على الحميم المفقود، تماما كما يلوب الفطيم على ثدي أمه. وفي هذه الحال تتبدى الكائنات بالية رثة ومأهولة بغثاثة لا تطاق.

يقينا، إنه لموجع، بل جد موجع، هذا الغياب وملوع، بل هو اضطهادي، يا روح المكان والزمان، يا كنه هذا الوجود كله. يقينا، إنني أشعر دوما بأنك هوية الكون بأسره، فلا وجود له إلا بك حصراً، فإذا زلت زال، حتى وإن بقي مرئيا بالعين المجردة، وذلك لأنه لن يكون عندئذ سوى جثة بغير روح. فلولاك لما ترسب في قعر الأشياء إلا وحول لا تصلح للملاحة نحو أي اتجاه. ولا ريب عندي في أن غيابك وغياب الحياة الحقيقية سيان. فأنت والسعادة دوما تحتلان حيزا لا أكون فيه بتاتا. ولهذا، فإن الاشتياق إليك والاشتياق إلى الغائبات هما شيء واحد بالضبط.

ولما كان الأمر كذلك، فإنني لا أراك إلا واحدة من أولئك النعناعيات اليانعات اللائي يرشقن على المرء نظرة خاطفة، ثم يتوارين خلف المسافات الفلكية إلى أبد الآبدين.

وإذا ما حضرت صورتك أمام خيالي، فإن المسرة الراخمة في داخل الأشياء تأخذ بالتكشف والمجيء من تواريها المكتوم. ثم إن موجة سرية من البهجة والفرح تستولي على سويداء الفؤاد المغرم المشوق، فأشعر بأنني أدخر في سريرتي قوة صوفية نبيلة لا ترضخ للإدراك، ولكنها تكثف في وجداني طاقة مستورة من شأنها أن تنشر داخل شراييني نشوة تند عن كل وصف. إنها سورة العشق، أو لنقل إنها موجة تمزج الغرام والخلق أو الإبداع في برهة واحدة. وحينئذ يكون الروح قد بلغ إلى برزخ يتوسط بين الأرض والسماء، بل إنه قد يكون قد بلغ إلى العمق الذي ما بعده عمق في أي موضع قط.

ولعل من شأن هذه البرهة النادرة أن تمد القلب بكل ما يحتاج إليه من الطاقة والحركة، تماما كما تفعل الشمس لكل ما يحيط بها من كائنات حية. وعندئذ تتفتح ينابيع الروح، ويزهر القلب، بل يزهر كل شيء ويخضوضر، وتقبل عليك النفس بكنه همتها وزاخر مضائها واندلاعها، لأنك التجسيد الوحيد للأنس في هذه الدنيا بأسرها. ومع غيابك توارى الأنس من حياتي حتى الآن. وإذا ما حضرت، فإن

وحدة الواقع وما يعلو عليه سوف تتحقق حتما. فبسبب غيابك لم تعد هناك سوى وحشة كريهة خانقة تلف هذا العالم المسكين.

وما كان لقوة الخلق أن تجعلك مختلفة عن جميع النساء إلا لأنها قد أناطت بك مهمة جليلة خاصة، وهي أن تمارسي الإيحاء على هذا الروح المدنف المشوق. وهذا وحده كاف للتأكيد على أنك من سلالة الصدق ومن شيعة الصفاء المتألق كالماس.

وفي الصلب من مذهبي، فإنك ما خلقت إلا لتكوني سيدة ذات حضرة فائقة. ولقد كرستك قوة الإنشاء لتكوني محبوبة لعاشق مرهف حنون. وإن لك أن تقرري، يا صورة الكمال على الأرض، ويا تجسيد الرفعة والسمو، ما إذا كنت جديرا بك أم غير جدير. وسواء أكان قرارك سالبا جدا أم موجبا كثيرا أو قليلا، فإنني سوف أظل أكن لك أدفأ العواطف وأصدق النيات.

ألا أنك أنت الزيت في هذا السراج المنير، سراج العالم المتألق الوهاج، أو سراج هذه الحياة الشاملة المتداخلة في كل اتجاه، وأنت لحن لا يملك أن يعزفه أي وتر قط. والأهم من ذلك أنه ما من لحن يملك أن يهدهدني سواه. ومما هو ناصع تمام النصوع أن إزميل الغرام قد نحتك تمثالا متناسقا يعجز عن مثله أي نحات، مهما يك بارعا أو حصيفا. وسواء أكان من المحدثين أم القدماء. وأظن أنه ما من شيء يملك أن يحرر نفسه من سطوتك المستبدة، أو أن يتسلل إلى خارج المجال الذي تهيمن عليه جاذبيتك الشديدة القدرة على السيطرة والتأثير. ولكن، من المحال أن يكون لك موطن أو مستقر سوى مهجتي أو جوف قلبي المدنف المتيم الملتاع، وذلك لأن هذا الكون المطلق المسرح المفتوح أضيق من أن يحتوي صورتك المتألقة، يا روح هذه الدنيا، ويا زبدة الأشياء، قديمها وحديثها.

أنا وأنت توأمان أنجبنا ربيع واحد، ورضعنا لبنا من صدر واحد، وفي شرايين كل منا ينساب يخضور واحد، نسغ واحد، بل يحمور واحد. ولهذا، فإن كل قيد مرفوض عندي سوى قيدك الماسي الذي أرى لزاما عليّ أن أرسف فيه إلى أبد الآبدين. ومع أنني مغرم بالحرية حتى درجة الهيام، فلست ممن يقولون تبا لكل عبودية، أو لكل أسر واعتقال، وذلك لأنني استثني عبوديتك الفاتنة اللذيذة. وجوهر مذهبي أن الحقيقة الكلية، الحقيقة الصلبة الملموسة، هي أنت، وكل ما عداك أوهام وظنون. نعم، الحب هو الحقيقة، وكل شيء آخر ليس سوى قشور. وما من قول يعلو على هذا التصريح الواجب الرسوخ: أنا أعشق إذن أنا موجود.

فما نجا من حبك ومكابدة الشوق لصورة وجهك إلا أشباه الأحياء. ولعل من شأن رعشة الحب أن تجعلني طافحا بحنين لا تملك اللغة أن تصفه بتاتا، حتى وإن كدها الذهن وأجهدها أيما إجهاد، وذلك لأن جميع اللغات لا تملك أن تنقل زخم

التوتر الداخلي وعرامه وشدة هيجانه. ولست لأبالغ إذا ما زعمت بأن لفظة «الغرام» حصرا قد تخلق في سريرتي نشوة لا يخلقها أعتق نبيذ على الأرض.

إذن، ها إنني معذب بالحنين إلى رؤية وجهك الكريم. ولا غلو إذا ما أعلنت بأنني احتاج إلى شراب يقطع كل ظمأ. ولا أحسب هذا الشراب شيئا آخر سوى فحواك والهالة التي تحيق بطيفك والتي تشبه الهالة المحيطة بالقمر. فهل لي بجرعة شافية من كل سقام، يا روح ما قد كان وما هو كائن وما سوف يكون.

ومما لا يخفى على الألباء أن الإنسان أو الروح يحتاج إلى مركز ليطوف حوله طوال عمره، أو لعله يحتاج إلى مثابة ومرجعية يثوب إليها على الدوام. ليتك تصدقين إذا ما ادعيت بأنك مثابتي السرمدية مذ عرفتك حتى يومي هذا. فخيالي يطوف حولك، أو يلوب عليك، مثلما يطوف الوثنيون حول كبير أصنامهم. فما أبصرت أفقاً يسيل كجدول من فضة إلا رأيتك تبحرين فوقه، وما شاهدت فجرا من حرير وقطيفة إلا شاهدتك تتفتحين في رواقه الهادئ الوقور.

وفي غضون كل نوبة من نوبات الحنين العسفية الجائرة، الحنين الذي تصنعه المسافة والحظر، والذي يتدفق على نحو متقطع، تعروني فترة ترغم قلبي على الانتفاض بين جوانحي التي براها التوقان إلى رؤية وجهك الصبيح. وإني لأبذل قصارى جهدي لأجعل هذا الحنين برهة من الصفاء الجواني الهادئ القرير الذي لا أعرف أيما حال أسمى منه أو أمتع أو أروع، مع أنه كثيرا ما يكون ملوعا إلى حد الاضطهاد، بل يسومني خسفا دون أن يرأف بفؤادي المعطوب. وأثناء ذلك، أثناء مكابدة اللوعة، أراني أتنصت على هواجسي بكل اهتمام وانتباه، لأعرف المبلغ الذي بلغه الهوى، أخو الهوان، من فؤادي المسكين.

ولكن هذا الحنين يخبئ في داخله الكثير من الشعر الفاتن المنعش الدفيء.. أجل، إن في الخسران والفقدان الكثير من الوجدان، أو الكثير من الشعر والشعور الفني، بل الشعور الشعري، إن جاز مثل هذا التعبير. فهو يذتج اللهفة والتحسر على ما لم يتحقق البتة، أو ما لم يتحقق إلا على نحو عابر، أو سريع الزوال. فيا للغبطة التي تندرج حتى في الاحباط والانهزام أمام قوى الكائنات الهائلة التي من شأنها أن تجعل الروح يغلي بالمشاعر المتباينة في طور الهزيمة النكراء. وبذلك تتكون ذات تناهض الواقع وتتصدى له ابتغاء الحصول على تعويض. وربما استطاعت الهزيمة أن ترصن الشخصية وأن تجعلها جادة ومترعة بالطموح. وبهذا فإنها تكون قد منحت المرء مردودا ليس باليسير.

فليتك تجتبينني كاهنا لأخدم هيكلك المقدس ما دمت أتنفس أنسام الحياة. فيا للطهارة التي ارتقت حتى وصلت إلى أفق البرارة الرفيع.

ولقد بلغني أنك لبست الحجاب مدفوعة بنازع القداسة والتقى. وبهذه المناسبة أود أن أؤكد ما فحواه أن الحجاب الخارجي لا قيمة له البتة، أما الحجاب الداخلي

فهو جهاد ضد قوى الفوضى والتهويش، ولا تطيقه إلا النفوس المطهمة. كما أود أن أؤكد أمرا ثانيا أراه أشد أهمية من الأول: في الزواج لا قيمة لأي صك مكتوب على الورق، لأنه شيء خارجي لا يؤثر في الفضاء الداخلي إلا قليلا. أما العقد الأصلي الناجي من كل تزوير فهو ذاك الذي نقش على شغاف الفؤاد حصرا. وما لم يكن الأمر على هذا النحو بالضبط، فإن الزواج لاغ أمام الوجدان بالضرورة. فالحكم الفيصل هو الضمير وليس القوانين الوضعية التي لا تزيد عن كونها حبرا على ورق.

* * *

لا يجود الزمان بمثلك إلا على ندرة فقط، وفي حسباني أن قوة سرية هي التي ألهمتني حبك ذات يوم من أيام غرارتي الباكرة، فانجذبت إليك طوعا أو كرها، أيتها السمراء ذات الذوائب الكثيفة الناعمة. ومع أنني لم أحاول قط أن أخلص نفسي من ربقتك الذهبية اللذيذة، فإنني لست أبتغي أي انفكاك عنك حتى لو أفضى ذلك التحرر إلى مروج السعادة، أو إلى أفيائها الظليلة الرطبة. فجميع الدروب التي أسير عليها تنطلق منك وتفضي إليك بالضبط، يا مركز المراكز، يا نقطة الدائرة التي تتراكز عليها جميع الدوائر دون استثناء.

ولعلني أصيب كبد الحقيقة إذا ما زعمت بأنك كنت نجمة القطب التي أرنو إليها على الدوام، فتوجه خطاي في الاتجاه السديد. أما أشواقي الحارة فهي الشراع والمجذاف والريح وقوة الدفع التي تدفع السفينة قدما نحو الأمام، باتجاه الحرم الذي تحلين فيه. كما أنني بحدس سري أعرف مكانك وأستدل عليه دون أن يدلني أحد.

فما انفك طيفك يزهر في البال مثلما تزهر وردة جورية في نيسان، بل مثل زهرة خرافية لا تعنو لسلطة الزمن وتند عن سطوة الذبول التي لا تنجو من تأثيرها أية حياة على الأرض. إن طيفك الذي يواظب على تجديد فؤادي وطاقاته المتحركة، كما يثابر على صيانة شبابه وحرارته من الفتور أو من الذواء، هو ما يزودني بالطاقة السرية التي توجهني صوبك أو صوب الحقيقة اليانعة، سيان. ولهذا فإن فؤادي المضنى لن يستقيل من ولعه بك في أي من الأيام.

أما استعيائي لماهيتي، أو معرفتي بنفسي، فلن تتم إلا بفضل حيويتك المتدفقة الرائعة، وكذلك عبر التأثر العميق بما تحتويه شخصيتك من أثير يفعل في النفس فعل السحر والفتون. فكان أن أوحيت إليّ بأنني أتيت من بلد لا وجود له البتة على الأرض، ولا على أي كوكب آخر، بل هو لم يكن ولن يكون له وجود في أي وقت من الأوقات. كما أوحيت إليّ بأنني أعيش الحلم ولا أكتفي برؤيته أو بتصوره في

الخيال. لقد جعلتني أفهم اللامفهوم، أو أتحرش به على الأقل. وبسبب هذا التأثير العميق الشبيه بإعادة الخلق، فإن صورتك دائمة الحضور في مخيلتي، شاخصة أمام بصري، حتى لكأنك ما فارقت ولا رحلت بتاتا.

تستوطنين السر وكهف العين والأفق البعيد، بل تحلين في كل شيء دون استثناء، ولكنني أود أن أخص الندى والنسيم وساعة المطر والشمس في لحظة البزوغ الشبيهة بالولادة أو بالمجيء من الغياب.

يا نسغ هذا الوجود وخلاصته وغزارة حضوره، أنت في الناس بمنزلة نيسان من السنة، أو بمنزلة الزهور من ممالك النبات. وحين تلوحين أمامي مشرقة مثل بدر أشرق للتو، حتى لكأنك فلذة افتلذت من نور خاثر يشبه الماس الصافي، ويعوم في فضاء هذا الكسوف الشامل، فإن موجة من النشوة تأخذ بالتدفق في الشرايين حتى تبلغ الشغاف. وحينئذ أشعر بأن سمرة وجهك أكثر نصوعا من اللؤلؤ والمرجان.

وحين تأتين إليّ مثل حورية يانعة، تحملين الأزلية نفسها وكل ما حبتك به قوة الخلق من مزايا وسمات حية دافقة، أحسب أنك قد جئت على دروب مسيجّة بالزيزفون والياسمين، وتجاورها الينابيع الشديدة العذوبة، والمحاطة بالورود من جميع الأصناف، ولا سيما الزنابق ذات الألوان المتباينة. فأنا أشم على الدوام رائحة الأريج تعبق من ثيابك، ومن شعرك الذي أنا مغرم به حتى درجة التتيم.

ولهذا، أراك في بعض الأحيان تشبهين تلك النبعة السحرية التي تهب الشفاء والعافية لكل ما هو سقيم، والتي إذا ما شرب منها المرء مرة واحدة نقلته من الوعي الفكري إلى الوعي الأسطوري، ومن الذهني إلى الخيالي أو الوجداني، ومن إدراك الواقعة إلى إدراك الصورة. وبذلك، فإنه يصير الرائي بامتياز.

لم تعثر الفلسفة على «الشيء في ذاته»، أما أنا فقد عثرت عليك حقا، ولكن بفضل حدس سري راح يوجهني نحوك مثلما تتجه البوصلة نحو الشمال من تلقاء نفسها. فما سألت أحدا عن مكانك، ولا أومأ أحد ولا أشار، وما قادني أحد صوب الدروب المفضية إلى مقامك الكريم، ولكنني اهتديت إليك بفضل ما ادخرته لك الضلوع من أشواق كاوية كانت تحثني على السراط اللاحب المستقيم، مع أنني أعيش في هذا المكان المتشنج الذي يجهل الفورية والبداهة وتلقائية الإدراك. فقد لا يخفى عليك أن كل شيء حولي لا وظيفة له سوى إخماد أنوار الفؤاد بدلا من إضرامها حتى درجة التوهج.

لم يلدك بشر قط، وأغلب الظن أن ملاكا قد تزوج حورية من حور الجنان اليانعة فأنجباك ذات ربيع مخضل يتفور بالأنساغ ويكتظ بالعذوبة والشذا. ألم تهبطي من السماء ذات يوم؟ هل هبطت إليّ «من المحل الأرفع»؟ لا شيء يملك أن يخلق في داخلي شعورا بالغبطة كما يملك أن يفعل ذلك علمي بأصلك النبيل.

فلا ريب في أن المعرفة بهجة، بل حبور. وربما جاز لي أن أزعم بأن العلم بك هو العلم بالخير نفسه. ومما هو عندي من فصيلة البديهيات أن العلم بالخير هو أفضل السبل المفضية إلى توليد الشعور بالنشوة في سريرة النفس، أو في القاع المؤسس لوجودها كله.

أو يعقل أن تسكني البال نصف قرن كامل أو يزيد، أن تفعمي حيزه الشاسع المنداح جيلا بكامله، حتى لكأنك تجهلين التغير والفناء، ولا تعرفين سوى الديمومة والبقاء؟ أو يعقل أن تغيبي عن بصري طوال مدة باذخة، مع أنك فلذة افتلذت من كبدي وشذرة نسلت من نسيج روحي؟ ولكن غيابك عن البصر لا ينفي حضورك في البصيرة والخيال والوجدان، بل ولا حتى استتبابك في الأشياء التي رأتك ذات يوم. وإني لأعرف استتباب فحواك في هذا الشيء أو ذاك، وذلك من النشوة التي تترع جميع ذراته، فتجعله قابلا لممارسة الرقص والغناء، بل أراه مبتهجا بوجوده حتى درجة الثمالة.

ولكن حضورك الدائم في وجداني هو الذي زود حياتي بالزخم أو بالشدة والتجربة الباطنية الكثيفة، وذلك لأنك قدمت للوعي غاية كريمة من شأنها أن تولج المعنى إلى جوف الأشياء. ولولا تلك الغاية التي خلقها غيابك وحضور طيفك في عقر البال لما كنت أنا نفسي سوى فراغ جاسد أعطي للعيان، ولا وظيفة له سوى أن يجابهني ويطالبني بالامتلاء على الدوام.

بيد أن تلك الغاية النبيلة أيقظت الاستطاعات الاحتياطية الغافية في قاع النفس، فكان أن أبصرت مفاتن الحياة وحلاوة مذاقها. كما تعزز شعوري وانتشر واتسع، وصار أكثر زخما وحضورا، وذلك لأن من عادة الغاية، أو الأزمة الناشبة في بؤرة روحي، أن تستنفر الطاقة وتحشدها لتنهض بخدمتها الجليلة الشأن. أما أولى نتائج هذا الاستنفار، فهي النكوص عن الاعتقاد باللاجدوى، أو بعقم الحياة. وهذا يعني فك الحصار عن الروح لينطلق باتجاه الانفتاح والاستقبال. فأنا لا أملك أن اختبر خصوبة الحياة وازدهارها إلا تحت أنوارك، يا بهية الأنوار. وهذه هي بداية التماس مع الخير والأمل، وكذلك بداية الكف عن كل حرن واستنكاف.

ولاعتقادي بأن جميع الأشياء التي اتصلت بها مازالت تدخر معناك في طياتها وتحنو عليه وتصونه، فإنني كثيرا ما رحت أبحث عن طيفك في المرآة التي وقفت أمامها ذات يوم بعيد، من أيام الماضي الغابر، وذلك لأنه مازال مخزونا فيها حتى الآن، نعم ما برح طيفك ساكنا هناك لا يريم. وربما نسيت أن تلميه بكفيك وأن تأخذيه معك حينما غادرت إلى أقصى النائيات والأقاصي النازحة في فسحة المجهول. وأكاد أجزم، أو لعلني أظن أن كل مرآة تحتفظ إلى الأبد بجميع الصور التي انطبعت على صفحتها طوال جميع الأزمان. أما الذي يلزم بالضبط فهو النظرة الثاقبة السابرة الشبيهة بالمغرفة، أو القادرة على نبش المتواريات كلها، وكذلك المدخرات أو المخزونات واستحضارها إلى حيز البصر قبل سواه.

ولكن هبي أن صورتك ليست في المرآة بتاتا، أما هي مرسومة على شغاف قلبي، بل قارة في سويدائه بالضبط؟ أجل، إنها هناك، وإنها تحادثني وأحادثها دون انقطاع، حتى صرت واحدا من المحدثين في قلوبهم. وهذا يعني أن غيابك يشع في داخلي حضورا أصليا كثيفا لا يبذه حضور الأطواد أمام مقلة العين. ولعل أهم ما في أمره أنه قوة تدفعني صوب كل فعل أصيل، أو صوب الخلق والابتكار وافتراع الرؤى الهيفاء والاستمتاع بنشوتها أو برائحتها الفاغمة. وعندئذ أشعر بأن الحياة أرحب بكثير مما كنت أظن وما كان هذا الشعور ليأتي لولا احتساء الجرعة السرية، جرعة يخضور العيش التي يقدمها الإبداع حين يبلغ أوجه الباذخ النبيل.

ولا مرية في أن هذا الوصف الذي نسجه المتنبي يصلح ليكون وصفا لعلاقتي بغيابك الشديد الشبه بالحضور:

ممثلة حتى كأن لم تفارقي وحتى كأن اليأس من وصلك الوعد

وحتى تكادي تمسحين مدامعي ويعبق في ثوبي من ريحك الند

فلا ريب في أن غيابك يحثني دون انقطاع لأكتشف الجمال في أي موضع من المواضع الدانية والقاصية، ولأنتج الفرح لي وللآخرين، ولا سيما أولئك الذين لا يعيشون الحياة نفسها، بل أشباحها أو أصواتها الخافتة. وهذا يعني أن أبذل جهدا كبيرا من أجل تخريج الإنسان الحقيقي والإفصاح عنه، أو جعله يظهر للعيان آتيا من كمونه إلى النور. وحينئذ أخال أن عصا سحرية (ربما عصا أرميدا) قد مستني فأيقظت في باطني بضعة أصناف من الطاقة الغافية، فأحالتني إلى كائن مزود بالكثير من القوى السرية القادرة على أن تجابه دمامة الواقع وشناعته العجفاء، أو حتى على أن تمنحني بعض شذرات من الكمال، فأشعر في تلك البرهة بأنني منذور لوجود رفيع يرخم خلف التجربة وخلف المعاينة، وقد لا تطاله اللغة بتاتا.

وفي تخميني أن ثمة سرا ما يرخم في سريرتك، أو طويتك النقية نقاء البياض الناصع كالثلج، ولكن هذا السر يشتهي أن يتخارج، أو أن يأخذ شكلا عمليا أو موضوعيا. ولكنك تشكمينه وتحولين بينه وبين العبور من الإضمار إلى الفعل. فأنت لا تريدين التصريح بما تكتمين وتزمعين التحفظ عليه إلى الأبد. ليتك تتوخين السير على الدرب المستقيم، وذلك لكي تعامليني على النحو المناسب تماما. فأنا أؤكد لك أن ارتباطك بي لا فكاك لك منه، حتى وإن عنت، وذلك لأن ميل القلب أو التزامه، وإن لم يحدث إلا مرة واحدة وعلى عجل، هو حبس لا خروج منه آخر الدهر. ولا يخفى عليك أنك في حالة انسياق لا تملكين أن تقاوميه بتاتا، أو لنقل إن مقاومتك له لا تجدي فتيلا. فنحن البشر كثيرا ما نفعل هذا الفعل، أو ذاك ونحن راغمون مع أننا لا نبغي أن نفعله، أو نتمنى الخروج من سياقه على الفور.

ولكن، أليست هنالك متعة وجمال في توترك هذا بين النعم واللا؟ فها أنت ذي تنوسين بين هذين الحدين، دون أن تتمكني من اتخاذ قرار ثابت مكين. تريدين أن تحتفظي بي وأن تطردينني في الوقت نفسه، أليست هذه الحال صنفاً من أصناف الشعر المتخصص بالانخراط في التوتر، يا سيدة الأصالة، بل يا سيدة نساء العالمين أجمعين. إنه الانشعاب الذي لا محيد عنه بتاتاً، أيتها الزيتونة الدائمة الاخضرار، أيتها السنديانة الجليلية الشامخة. والانشعاب هو البعد الرابع للأشياء، أو لكل ما هو موجود، مهما يك نوعه، لا يفارقه حتى يفارق الوجود إلى الأبد. ومع ذلك، فإنك سوف تظلين تلك الهالة إلى تحف بنواة الذات، أقصد بالضبط نواة روحي الملهوفة إلى رؤية وجهك الجليل.

ولا يراودني أدنى ريب في أن خيالك الواسع الخلاق، والقادر على أن يعانق من كل شيء فحواه او لبابه، سوف لن يعجز البتة عن إدراك اللمسة الحنون التي يقدمها لروحك هذا الاتصال الذي نعيشه معاً بين الفينة والفينة، والذي تزمعين أن تتملصي منه، فنحرم كلانا من الاستمتاع بلذته الفاتنة. ومع قناعتي بأنك ناجية من كل صفة إبليسية، فإن موقفك المثنوي المتردد هذا لا سبب له سوى أنك تريدين عشقاً شاملاً لا ينصب على كائن محدد بعينه، وذلك لأن التحديد قد يرغم الحب على خسران شطر كبير من حمّيته وحرارته وكثافة حضوره. وفي هذا نوع من أنواع الغموض الذي من شأنه أن يصوّف الغرام أو يحيله إلى واحد من المستورات الكبرى العصية على الاستيعاء والتأويل.

ولهذا، أيتها الأنثى السرمدية، لا ينبغي أن تكون لفظة <الغرام> نفسها غامضة وغارقة في الانبهام، أو غير مفهومة للذهن المتذهن الممحص، ومع ذلك، فإنني أتخيل أحياناً أن واحداً من أهداف هذه الدنيا يتخلص في أنها تبتغي أن تحيلك إلى إنجاز طافح بالقدرة على الاجتذاب والتأثير. فما أنت إلا مادة افتلذت من مادة الخير، على وجه الحصر والدقة. كما أنك، لا ريب، قوة سرية سامية كالنجوم التي لا تدانيها أية قوة أخرى، مهما تك زاخرة بالطاقات. وتحت تأثير هذا الاستسرار الذي هو سمتك الأولى، فإنني كثيراً ما أتخيل أن جميع الوجود يتكثف في شخصك الكريم، بل كثيراً ما شعرت بأنك لست سوى نداء يتوجه إليّ من عليين، حيث لا وجود لغير الأبرار والأطهار والملائكة الكرام. فلا مراء في أنك تأتين من الأقاصي والنائيات، ولكنك سرعان ما تؤو بين إلى البعيد، وتتوارين هناك، خلف الانديا ح النازح الفسيح، وطوال مدة هي من السعة بحيث تستنزف الصبر كله.

ولكنني بفضل قدرتك على الإيماء والإيحاء، قد يممت وجهي شطر الأسرار الهاجعة في الصمت والحلك، والتي تذوب أو تضمحل، بالضبط عندما يكاد الذهن أن يلتقطها بكامل رونقها وتمام معناها. فأنت تنتسبين إلى عالم السر الراخم في غور الكائنات، وتأتين من كتلة المجهول الذي قلّ أن يسمح للنور باختراقه حتى

الصميم. ولكنك تمتلكين القدرة الكافية على اكتناه السر ومشاطرته جميع ثرواته ومدخراته.

يا روح الأنوثة الأزلي، يامن يتجسد فيها صباغ المرأة الكلية التي لا يبلغ إليها الذهن إلا بالتصور والتجريد، إن شوقاً كشوقي إليك لم يبرّح بي في أي يوم من الأيام، وإن روحي مأهولة بظمأ إلى مياهك الصافية لا يقل حدة عن ظمئها إلى سعادة من شأنها أن تحيل الحياة إلى لذة دائمة. فلشدة درايتها بك وبمحتواك الشريف، فإنها تملك أن تتعرف على معناك في اي شيء، وذلك من النشوة التي تملأ جميع تفاصيله إذا مررت بالقرب منه ولو مرة واحدة، فتجعله تلك النشوة قابلا لممارسة الرقص والغناء احتفاء بحضورك الجليل.

فيا أيتها الحضرة المطهمة المضاءة بنور شعشعاني تبثه المستورات العصية على الإدراك، أنت في إحساسي نسمة لطيفة تهب على وجهي في الليالي التي يبستها شراسة الحر والجفاف.

يا امرأة تجسد العمق وسر العمق، أيتها الزرقة السماوية التي من شأنها أن تبث الرونق في المرئيات وغير المرئيات، يا لؤلؤة لا تكف عن التألق حتى وهي في جوف الحلك، أيتها اللطافة المحاطة بالجلافة من جميع الجهات، ماذا عساه هذا الوجود أن يعني إذا ما غبت عن بصري الآخذ بالإنطفاء في هذه الأيام؟ وماذا عساه أن يجدي نفث الحسرات على الخسائر التي لا تقبل التعويض؟

* * *

ها أنا ذا من بعدك أحلم بجزيرة نائية أشجارها زرقاء ونساؤها الفضيات اليانعات لهن لون الزنبق الأبيض وطراوة المخمل اللطيف. ولكنني في بعض سويعات اليقظة أذهب إلى الحديقة إياها، حيث المشهد لوحة أو قصيدة صافية باهرة، لأشكو لأزهارها ما أقاسيه من آلام الهجر والمسافة وتصرم الأوقات في غير طائل. فيا لهذه الجمرة التي لا تبوخ ولا تفتر وتجهل كل اخلاد إلى السكينة. وعلى مسامع حوريات الماء، اللائي أكاد أن أسمع حفيف أرديتهن، أسرد حكايتي المضنية، أو أبين ما فعله غيابك بنسيج روحي المتهتك الملتاع. أجل، غيابك الذي لم يترك في لجة نفسي من شيء إلا أن أحلم وحسب. ترى، أنى يتيسر لي أن أطيق غيابك المرير من دون أحلام لها القدرة على أن تأخذني إلى البعيد، أو إلى ما وراء المسافات الفلكية، حيث ترخمين، أيتها المرأة الماسية ذات الروح الأهيف الأملد الشفيف.

وعندما أصل إلى هناك، أعني إلى المكان الذي تعهدين، فإنني أجد كل شيء مازال على حاله تماما، ولا ينقصه أي عنصر من عناصره التكوينية سواك، يا روح المكان والزمان، يا أيتها البارحة التي لا تبارح قط، والتي تزول ولكنها ما تزال في الوقت نفسه.

ولئن كان حضورك قصيدة غزل تستولي على الوجدان الحساس، فإن غيابك مرثاة ترثي هذا العالم الذي سوف يظل ميتا ما لم تحضري أمام بصري بكامل بهائك وضيائك، يا قصيدة القصائد، بل يا أنشودة الأناشيد، ويا روح الشعر والنثر على السواء.

أما القمر الذي أفضلك عليه فمحاقه ليلة واحدة كل شهر، وأما أنت فأخشى أن يكون محاقك بغير نهاية. وبسبب هذا الكابوس الضاغط الراعب فإنني أجهل هدأة البال، ولكنني أغوص في الصمت حتى قاعه الصخري الكتيم. وها أنا ذا أنقب عنك وأبحث طوال هذا الغياب الذي يسحقني أو يعذبني كما لو أنني في جوف جهنم. بيد أني في بحثي هذا إنما أبحث عن نفسي واكتشفها في أعماقي التحتانية. فربما تعذر وجودي بغير وجودك وماهيتي بغير ماهيتك.

ولكنني لا أفهم لماذا آثرت التدثر بهذه المسافة الرعناء التي ترعف بؤسا وشقاء منهكين. ولماذا توخيت البين المحتدم المرير، وأزمعت هذا الغياب الدائم الشبيه بالأبدية نفسها؟ لماذا تواريت عن مقلة العين طوال هذا الزمن المديد؟ وهكذا، صار وجودي سدى، أو صار هباء منثورا، وذهبت أدراج الرياح جميع جهودي الرامية إلى استردادك من منفاك الطوعي القابع في الأقاصي والنائيات. ولا غلو إذا ما زعمت بأن هذا التدثر بالتواري خلف المسافات المنداحة، أو بالنزوح إلى أنأى الأقاليم والآفاق المجهولة، قد جعل حياتي كلها شكلا من أشكال الاعتلاف بالتبن والزؤان، بل حتى بالرماد الكالح الكئيب.

ومع ذلك كله، فقد ظل حضورك باهرا في صميم طويتي، وظل مغزاك المتوتر في سواء سريرتي المتمورة بالاضطراب يمارس الايقاظ والتحريض على ذهني الدائم التفطن لوجودك الحي، بل للغاية الكبرى بين جميع الغايات التي خلقت أنت من أجل انجازها أو تحقيقها بالفعل. وكثيرا ما أردد قول زهير «وأودعوك اشتياقا أية سلكوا..» أجل، لقد رحلوا وما خلفوا في القلب إلا الحنين.

أيتها النسوة اليانعات الغاليات، أيتها النعناعيات النازحات إلى الأقاصي النازحة والنازفة مزيجا من حنين وشوق وبؤس وشقاء، أما من شيء في الوهم أو في العيان، يملك أن يبشر بقدوم أي منكن إلى الهنا والآن، أو بعودتها إلى مجال بصري مثلما تبشر أسراب الطيور المهاجرة بقدوم الربيع؟ أما من إنابة إلى هذا الحيز الذي ابتدأنا منه تجربتنا الخاصة، وربما الفريدة من نوعها؟

ترى، هل في الميسور أن أقول بأن حنيني إليكن قد يكون ضربا من ضروب حنيني إلى سالف عهودي المندثرة، أو إلى شبابي الغابر المفقود؟

* * *

ما أشبهك بصورة حدسية لا تعنو لأي تجسيد أو امتثال. أليس في الميسور، إذن، أن تستحيلي إلى حضور فعلي، أو إلى كائن من ممالك التجربة؟ أمن المتعذر أن تغادري التجريد إلى المادة المرئية بالعين؟ ومادام الأمر كذلك، لم يبق سوى أن أشتاق لوجهك الأبيض الناصع كالياسمين. وبوسعي أن أجزم بأن ظمأك إليّ لا يضارع ظمأي إليك، فأنا صبر يتفحم، يا من تصنعين لي اللوعة دون انقطاع. وفي تقديري أن لو تعادل الظمآن لأتيت إلي تهرعين بسرعة البرق، بل بسرعة البراق.

شعرك الأسود الفاحم حقل من حقول الحنطة، سنابله التي هي كالذهب الأشقر تلمع بندى الفجر تحت شمس الصباح البازغة للتو. وعندي أن شعرك هو التجلي الأول لوضاءة روحك الناعمة كالقطيفة أو كالحرير الأملس. أما عيناك المتألقتان، فلا أملك من دونهما أن أبصر شيئا مما تراه الأبصار، حتى وإن كان ساطعا سطوع الشمس في رأد الضحى. لكأني أراك في كل ما يتنفس، بل حتى في كل ما يتحرك ويسكن. لكأنك خلاصة لكل ما يحيا على سطح هذه الكرة الأرضية التي لا قيمة لها من دونك بتاتا.

ولهذا، أراني دائم الأسف، بل دائم الأسى، لأنني لم يُقيض لي أن أعيش طوال عمري إلى جوارك، أو تحت ظلالك اللمياء الشديدة الكثافة والقدرة على الحؤول دون لسعات الحر العارمة. وبسبب هذا الفصال الرابض بيننا، أو الراسخ رسوخ الهاوية، صارت حياتي مثل أرض كنود لا تنبت أيما شيء يانع أو خصيب.

ولقد طاف الجمال ذات يوم على الأشياء ليستقر في واحد منها، طاف وأسرف في الطواف، ولكنه آثر أن يستقر في عينيك الصافيتين كوضح الظهيرة، فراحتا تشعان قوتا لروحي المدنف الحزين. ولهذا، فإنني بك، بتعبدي لحور مقلتيك ووضاءة وجهك والسر الراخم في سريرتك النقية، أملك أن أتخلص من هويتي الحيوانية، وأن أصير إنسانا لا هم له سوى الالتزام بمبادئ الجمال، الذي أراه تعويضنا الوحيد عن قسوة العالم وشراسته الوحشية.

إنني أربأ بك أن تنتسبي إلى هذا الجنس البشري، فأنت من سلالة الأسرار المكتومة، ومن شيعة الصدق والصفاء ونظافة الوجدان. ولئن كان الفحوى هو كل

شيء في هذا الكون الشاسع المنداح، فأي فحوى يسعه أن يكون هنالك سوى روحك المطهم النبيل؟

وبكل جزم أقول بأن هذا الذي بيننا هو الحب نفسه، أعني ذلك السر الذي هو خصيصة الروح الأهيف الأملد وحده. ولكن، ما الحب؟ ثغران يقتسمان رغيفا واحدا من قمح وتفاح. وإنه لرغيف عجنته الملائكة بالنبيذ بدلا من الماء وخبزته ببطء على شعاع قمر وضيء.

ولكن، ماذا؟ هل كف فؤادك عن النبض يا امرأة صاغتها الوسامة نفسها ذات يوم مشمس هنيء؟ أما أنا فكثيرا ما يشوقني ذلك الحب الخالص النقي الشبيه بشؤبوب مطر في نيسان اليانع. كما يشوقني حتى اليوم ذلك العشق الذي من شأنه أن يجعلني مترعا بحنين غامض عميق. فلقد تولت تلك الأيام الرائقة وتصرم شرخ الشباب، ولم يبق سوى هذه الشيخوخة المقرورة الشاحبة.

ولكنني لا أصدق البتة، أقله أحيانا، بأن لك أي وجود داخل الزمن، أو بأن للزمن أية سلطة على صورتك الزاهية أو المتألقة على الدوام والتي لا تعنو للتغير أبد الدهر. يقينا، إنك تشبهين زمردة شديدة الاخضرار، بل أكثر اخضرارا من الربيع نفسه، زمردة تند عن كل تبدل أو فساد.

أما أنا فما لبثت على الحال التي تعهدين. ومع شدة شعوري بمبرد الزمن وهو يمارس الحت على نفسي ويعريها من رداء النضارة والحيوية، بعدما نيفت على السبعين، أو بعدما تجاوزتها بقليل، فإن بسمة منك تطل عليّ من ظهر الغيب، كفيلة بإنعاش كل فتور يستقر في عظامي الموهونة.

حبذا لو هل طيفك من وراء حواجز البعاد، لأن من شأن ذلك أن يشحن بالدفء كياني الموهون. فيا لشمائلك التي تكسف بهرة النجوم البازغة في ليل بغير قمر. فأنا قد لا أعرف أحدا سواك يلتزم بالبراءة ويمارسها لأنها متعة لا تبذها أية متعة أخرى.

ولست أدري ما عساه أن يكون ذاك الذي يناديني أو يوشوشني في سري حين تطفر صورتك في ذاكرتي على نحو مفاجئ، سواء في سواد الليل أوفي وضح النهار. أتراه صوتك الرخيم يبشر بقدومك الوشيك، أم أن ثمة أصواتا تحدثني في قلبي لتنقل إلى بضعة أخبار عن رياك المنتشر في الجوار، وعن ذلك الشفق المتوهج على وجنتيك في خيالي المتشبث دوما بالماضي السحيق. فيا لهذه الوشوشة الشبيهة بوشوشة الأنسام للورود وأوراق الشجر، والمأهولة بعذوبة لا يبذها ما في صداح البلابل والعنادل من روعة وألطاف. وها أنا ذا أشعر كأنها بشرى تبشر بفجر جديد، أو بحرية تنداح على مدى الكون كله.

وحين تنهمر الهمسات في سويداء فؤادي مثل تغريد هزار في نيسان، فإن جميع البوابات المغلقة في العالم بأسره تنفتح على نحو مفاجئ، ولكنه منعش للنفس

لأنه يجلب إليها السعادة من جميع الجهات. فهل أصبت يوم قلت بأنني مسالم تعود على أن يجبه الغثاثة بالدماثة والخصومة بالنعومة والصفاقة بالحياء.

ما أجمل أقوالك! ما أمتع لغتك! وإنها لرصينة طريقتك في التعبير. وها أنا ذا أحن إلى سماع صوتك الشبيه بزقزقة العصافير، أو بغناء القبرات في أعالي السماء. ويا طالما أوحى لي كلامك العذب بأن في ميسور النابغ أن يتخطى عطالة اللغة، وذلك عبر تفجير طاقاتها المدخرة في نسيجها الرحيب. أفلا يجوز الذهاب إلى أن اللغة هي خليلة الإنسان الموهوب أو صديقته التي تلازمه على الدوام؟ ولكن اللغة تند عن كل ما يفتقر إلى الهيف واللدانة. وإنني لأرتاب في أن أكون قد أغرمت بشيء، أيا كان، أكثر مما أغرمت بكما، أعني أنت واللغة التي هي ماهية الإنسان ولبابه وقوام أمره.

فمن المفارقات أن هذه اللعنة الدائمة التي تسمى الحياة تنطوي على نعمتين فاتنتين: أنت واللغة (الحب والكلمة). وكلتاكما وصال، وكلتاكما رهف أو دماثة، وكلتاكما فرحة أو بهجة، بل ضرب من ضروب التعويض عن هذا البؤس المتفشي بين القطب والقطب الآخر.

بيد أن أهم ما يشغلني وينهك البال هو الحنين العارم إلى مشاهدة وجهك القمري البازغ كالصباح في يوم صيفي رائق. ومن دون وجهك الكريم لا يبقى سوى السأم وافتقاد الشهية للعيش. فماذا عساه أن يكون مذاق هذه الدنيا لولا حضورك المتألق مثل الشمس في رأد الضحى. فمن دونك لا يبقى هناك سوى عقم وخلاء. ولست إلا صادقا إذا ما زعمت بأنك في مخيلتي نفحة من «وردة الأزل»، وهي التي تخيل قوم بأنها نفحت هذه الأكوان كلها. ومع أنني أسفّه جميع المرئيات وأسخّفها، فأنا لا أملك إلا أن استثني وجهك الشريف الكريم.

ومما هو في الصدق أنني عندما أحن إليك فإنما أحن إلى الجدوى والهناءة والنكهة الطيبة، أو إلى الفحوى والأمل والخير والخروج من ضيق المياومة الخاوية إلى رحابة الوجود الحقيقي الأصيل. وعندي أن الحياة في لبابها الحية ليست سوى الحنين الدائم إلى كل ما يزود القلب بالحرارة والدفء المنعش. ولهذا، فإنني أحتاج إليك مثلما أحتاج إلى الماء والهواء. أجل، أنت والماء سيان، ولا فرق بينكما بتاتا. كما أنك أنت الهواء والضياء والغذاء والحرارة وجميع الحوامل التي تحمل هذا المحمول النفيس الذي يسمى الروح.

ولهذا، فإن الزمن في غيابك المضني يسير وئيدا بليدا حتى كأنه ساكن بغير حراك مهما يك نوعه. كما أن هذا الهجران الطويل، ذا اللون الرمادي الأبكم، قد جعلني أومن بأنك لست سوى حلم حلمت به ذات يوم. ولكنه حلم عصي على الإمحاء والزوال، بل هو يصر على أن يستوطن الذاكرة، أو في عقر البال، حيا راسخا خالدا لا يريم. آه؟ ما أكبر حجم النيران المستعرة في فضاء نفسي بسبب

غيابك الذي أصبح عنصرا ثابتا في نظام الأشياء. ولعلني أحالف السداد إذا ما أعلنت أن هذه النيران لن تخمد آخر الدهر. فلئن كانت قميص المتنبي مسرودة من حديد، فإن قميصي مسرودة من لهيب.

أفلا تملك أن تشرق على أرضي وفي فضائي، أيها الكوكب الوهاج ذو الأنوار الشعشعانية الساطعة؟

* * *

أيتها البراءة الكفيلة بأن تزود الحياة بالعذوبة والألطاف الحسنى، أيتها النسمة الشمالية في ليلة حارة، أيتها البسمة الشبيهة بافترار الصباح ساعة بزوغ الشمس في نوار الدافئ الحنون، أيتها الجرعة المسكرة التي يدخرها قدح الغرام، أما تذرين في عيني قبصة من أنوارك البهية التي تملك أن تغذي في الروح قوة الزكانة والاستشفاف.

فمما هو في صلب الحق أنك امرأة يحلم الرجال بمثلها، جلهم، إن لم أقل كلهم. ومن البديهي أن تكوني خيرا مني، ولولا ذلك، لما شغفتني حبا، أو لما قدستك حتى درجة العبادة. فالإنسان لا يقدس إلا كائنا يفوقه بمسافة لا تقبل العبور.

وأكبر فرق بيننا هو أنني أستوطن التراب، أما أنت فإن موطنك النور الذي لا تعرفين أيما وطن سواه. ولهذا، فإنني أتذوق عذوبة لا تطاق حين أشاهد صورتك أو طيفك الناعم وهو يهسهس في خلدي دون انقطاع. إنها لا تطاق بسبب من زخمها وعرامها وغزارة حضورها وقدرتها على الاستيلاء. وتندفع في داخلي نشوة مباغتة تشبه انفجار بركان مفاجئ. ومن شأن هذه النشوة أن تجعل الوجود الذي أمقته كثيرا، لما يندرج فيه من شرور وآلام، جميلا وجذابا ومحبوبا جدا، ولو لهنيهة عابرة. ولعلني صادق إذا ما زعمت بأن المألوفات كلها تمحي من أمام بصري في تلك الهنيهة اليانعة، حتى لا يبقى شيء سوى النور والدفء والهناء.

يقينا، إن الفراغ الذي سوف تسدينه إذا ما حضرت إلي في هذه الأيام المأزومة المنهكة، أو في المستقبل الداني إلى حد ما، له من السعة والضخامة ما يعادل جبل هملايا الذي يتجاوز السحاب. فإذا ما حضرت حقا، ولو لسويعة وجيزة، لأنجزنا معا نصرا مؤزرا على ثقل المادة وجلافة المحسوسات؟

ماذا؟ ألا تستجيبين لعطشي يا امرأة من نبيذ وزيزفون؟ ولكن، هو ذا السحاب الهائم في الأعالي قد عطف علي وكاد أن يمطر لي وحدي، وذلك لشدة الصدق واعتماد بذل الجهد مبدءاً للحياة؟

أما أنا فما زلت، وسأبقى، أكن لك ما كنت أكنه في سالف الدهور، أو ما كنت أكنزه لك من حب في بدايات لقائنا الأول قبل أكثر من خمسين سنة. وسوف تظل صورتك شديدة القدرة على أن تخلق في نفسي فرحا يمازجه السمو، أثمل به حتى أبلغ تخوم الدهشة، بل حتى ألج إلى جوفها الرهيف.

وما من شيء البتة سوف يوهن حنيني إليك، مع أنني مغلول إلى قيود المادة والمباومة التافهة. ما من شيء، أيا كان، سوف يفل رغبتي في الالتقاء بك ذات يوم من أيام المستقبل البعيد. وإنني لواثق تمام الثقة من أننا سوف نتصافح، لأن هذه المسافة المنداحة التي تضطهدنا كلينا سوف تمحي وتزول أو تضمحل ذات يوم مشمس دفيء. فأنا لن أكون محايدا تجاهك بتاتا، بل سوف امتد نحوك كما يمتد طريق عريض صوب مدينة عملاقة، وسوف يظل اقتناعي بجدواك متأججا أو متألقا لا يخبو ما دمت قادرا على التنفس المريح.

فما من مهماز ينخس روحي كما تفعل صورتك الراخمة في ذاكرتي حية لا تحول ولا تزول. وكلي أمل بأنك سوف تستجيبين لهذه اللهفة التي تمضغ كبدي على الدوام، يا امرأة أنجبها زواج الإخلاص من البراءة. بيد أن كل شعرة في جسدي الناحل القضيف تقف وتتشنج عندما يهيمن على نفسي يقين مفاده أننا لن نلتقي إلى أبد الآبدين. فمما يحزنني ويحز في نفسي أن تنداح بيننا هاوية لا تردم بتاتا، حتى لكأن الذي يفصل كلامنا عن الآخر هو اللامعقول نفسه.

* * *

فيا أيها الغزال الأهيف الغرير، يا أيها الحنان الرؤوم الراخم القديم، ها هي الأشياء تطلق ريعانها في هذا الربيع الفاتن الغضير، أما أنت وأنا فلا نتجدد ولا نتقاسم شيئا في طورنا الشائخ هذا، حتى لكأن الحياة قد جفت أو ركدت، بل تعطلت في خلايانا الآخذة بالتليف منذ زمن ليس باليسير.

وهاهي ذي الرياح تعصف بطلاقة واندفاع، وتصفع ذرى الجبال الشاهقة، وها هي ذي الورود تتفتح اكمامها في أودية الأنهار اليانعة، والطيور تحلق في الأعالي وتنشد أغاريدها مدائح لمجد النور. أما صغارها فتهجر أعشاشها باتجاه الفضاء الرحيب. وها هي ذي الأشجار تخضل وتخضر وتورق وتزهر وتطلع ثمارها الشهية الزاكية. وهذا كله يعني أن الحياة تثابر على تجديد نفسها بنفسها. فكل شيء على الأرض ينبض ويتحرك ويثمر ويواظب دوما على الانتشاء بسلاف يصنعه بيديه. أما نحن، أنت وأنا، فقد صوحت زهرة عمرنا ونشف نسغها ويبست بتلاتها ووريقاتها، ولن تخضل بعد اليوم بتاتا. فلا مرية في أن الزمن سيد الأشياء كلها. أجل، الزمن، الزمن، ولا شيء سوى الزمن.

فيا أيها الروح الطيب اللطيف، أيتها الدماثة المعادية لكل غثاثة، أيتها اللطافة التي تجسدت على شكل امرأة، أيها الهيف الكفيل بمناهضة كل جلف، ها أنا ذا أسألك: ما هذه الهمجية الرعناء التي تتحكم بالكائنات على هذا النحو الراعب المقيت؟ وهل ثمة من هدف وراء هذا الشقاء البشري كله، وبأصنافه الشديدة التباين؟ ولماذا كانت الأحوال والأمور على ما هي عليه ولم تكن على أية هيئة أخرى؟ لماذا لم تكن أنعم أو أرحم؟ بل لماذا لم تكن أخشن أو أفتك؟

ولا يساورني أدنى ريب في أن هذه الأسئلة هي شطر من أعسر الإشكالات التي تثيرها الحساسية البشرية في جميع الأماكن والأزمان. وإنها ليست أسئلة يطرحها الناس على أنفسهم، بل هي معضلات قد لا تجد أيما حل في أي يوم من الأيام.

وفي الصميم من مذهبي أن من يستحق أن يوصف عن جدارة بأنه فيلسوف هو ذاك الذي يملك أن يجيب عن هذه الأسئلة على نحو مقنع أو سديد.

الفصل الرابع

الشـــــعر فـــي دمشـــــق

منذ أن وطئت قدماي أرض دمشق لأسكن فيها بقية عمري، وذلك سنة 1955، أخذت أهتم بالشعر والشعراء كثيراً، وكذلك بالثقافة والكتابة الأدبية أياً كان نوعها. ومما هو جدير بالذكر في هذا الموضع أنني كنت قد كتبت أولى قصائدي قبل ذلك الوقت بعام كامل تقريباً. ولم أتوقف عن كتابة الشعر حتى أوائل السبعينيات، يوم غيرت اتجاهي فانتقلت من قرض الشعر إلى دراسته وتقييمه.

وربما جاز الزعم بأن دمشق خلت من الشعراء خلواً تاماً تقريباً منذ وفاة الشيخ عبد الغني النابلسي سنة (1143 هـ = 1731م) وحتى بدايات القرن العشرين، يوم راحت الحياة الحديثة تدب في هذه المدينة التي أخذت تولد وتنبعث من جديد، بعدما تقلص عدد سكانها حتى لامس حدود الاضمحلال.

وإثر وصولي إلى العاصمة السورية في شهر آب من السنة الآنفة الذكر، علمت أن شاعراً من كبار شعرائها، اسمه محمد البزم، قد توفي عن عمر يناهز الثامنة والستين، وذلك في أيلول حصراً. وبعد بضع سنوات، أو في عام 1959، توفي شاعر آخر من مشاهير الشعراء الدمشقيين، وهو خليل مردم الذي عاش زهاء أربع وستين سنة.

بيد أن هذه المدينة الحية قد ظل فيها أربعة من الشعراء المرموقين، وهم خير الدين الزركلي وشفيق جبري ونزار قباني وبدوي الجبل. وهذا الأخير ليس دمشقياً، وإنما هو من الساحل، أو من ريف اللاذقية. ولم يقيض لي أن أشاهد من هؤلاء الأربعة سوى شاعر واحد، وهو نزار قباني الجميل الوجه والقوام.

وقبل مضي أسبوع واحد على إقامتي في هذه المدينة اشتريت من مكتبة صغيرة جدا كانت في السنجقدار نسخة من أحد أعداد مجلة «الآداب» البيروتية. وكان ذلك العدد مكرساً للشعر، وقد صدر سنة 1954. فقرأت تلك النسخة من غلافها الأيمن إلى غلافها الأيسر، ووجدت فيها قصيدة لبدوي الجبل عنوانها «إلى خالقة»، فما كان مني إلا أن حفظتها عن ظهر قلب، وذلك نظراً لمناخها الجديد الذي رأيت فيه تنمية نوعية للغزل العربي. وهكذا تعرفت على ذلك الشاعر الجذاب لأول مرة في حياتي. وسألت عنه فقيل لي بأنه وزير في حكومة ذلك الزمان.

وفي شهر تموز سنة 1957، تشاجر أحد أصدقائي مع بعض الشبان في ساحة الشارع الذي صار يعرف باسم شارع فلسطين بعد مدة طويلة، فأنجدته ودخلت في الشجار، ولكن الشرطة اقتحمت المكان وطوقت الحادث واعتقلتنا وساقتنا إلى سجن القلعة في دمشق، حيث قضينا زهاء أربع وعشرين ساعة، أو أكثر بقليل.

وفي داخل السجن شاهدت غرفة واسعة لها نوافذ زجاجية تغطيها الستائر من الداخل. وقيل لي بأن فيها بعض السجناء السياسيين، بينهم شاعر اسمه بدوي الجبل، أو هو معروف بهذا اللقب اللامألوف. ولا أدري ما إذا كان ذلك صحيحاً أم كذباً. ولكنني بحثت ونقبت، فتبين لي أن رجلاً من ساسة ذلك الزمان، اسمه منير العجلاني، قاد سنة 1956 حركة هدفها ضم سوريا إلى حلف بغداد، وذلك ابتغاء إبعادها عن مصر. وأدخل رجال تلك الحركة السلاح من تركيا إلى اللاذقية، ولكن السلطة الساهرة قبضت عليهم وزجت بهم في السجن. ثم إن بدوي الجبل قد أفرج عنه بعد فترة من الزمن، ونفي إلى خارج البلاد لعدة سنوات. وربما غادر السجن في أواخر سنة 1956، أي قبل أن أدخله أنا ببضعة أشهر. ولكنه عاد إلى دمشق ليستقر فيها حتى وفاته، سنة 1981، عن عمر يناهز الخامسة والسبعين تقريباً، ولكن بعد ما نشر ديوانه كاملاً سنة 1974. وقد عاش محنة شديدة سنة 1968 يوم تعرض لاعتداء غير معهود في هذه الأيام.

ولقد اجتذبني بدوي الجبل كثيراً منذ أواسط الخمسينيات حتى اليوم. فلا ريب في أن شطراً كبيراً من شعره له علوق في كل فؤاد حساس، وذلك نظراً لرقته وجزالته وجودة معانيه أو محتوياته. ففي الحق أنه متربع بالقدرة على الجذب والخلب، بل إنه، في بعض الأحيان، شديد القدرة على الخطف والأخذ إلى البعيد، بفضل اسلوبه المخضل وما يختزنه من نزوع صوب الايراق والازهرار.

* * *

وفي فترة الخمسينيات نفسها بدأ جيل جديد من الشعراء يظهر في دمشق، وكان بين أفراده كل من سليمان العيسى ومحمد الحريري. أما في الستينيات فقد جاء إلى هذه المدينة عدد كبير من الشعراء، أتوا من المحافظات الأخرى، ولاسيما من الأرياف. وكان أبرزهم فايز خضور ومحمد عمران وعلي كنعان وممدوح عدوان وعلي الجندي الذي عشت وإياه برهة أو مدة ليست بالقصيرة، وذلك يوم كنت في أوج العمر أو في ريعانه. وقد صار هؤلاء الخمسة من أهم شعراء سوريا في الربع الأخير من القرن العشرين.

كما جاءت من اللاذقية شاعرة مهمة بعض الشيء اسمها عزيزة هارون (1923 - 1986)، وهي التي لم يقيض لها أن تبرز في فسحة الثقافة الدمشقية لتصير نداً لأي من شعرائها المشاهير. ولقد نشر ديوانها بعد وفاتها ببضع سنوات، كما أتيح لي أن أطالعه، ولكن منذ مدة وجيزة، فوجدت فيه نزعة أمومية من شأنها أن تلفت الانتباه. كما أنني قد كتبت عنه مقالاً نشرته احدى الصحف في دمشق، وذلك سنة 2008 على الأرجح. والجدير بالتنويه أنني التقيت بتلك الشاعرة في

أواسط السبعينيات، فوجدتها سيدة عظيمة الصقل والتهذيب. ولقد تلت على مسمعي في ذلك اللقاء الكثير من أشعارها، ولكنني لا أعرف لماذا لم يتكرر لقائي بها بعد تلك المرة اليتيمة.

وفي طور متأخر عرفت الكثير عن شعراء دمشق في النصف الأول من القرن العشرين، وذلك حينما وقع في يدي كتاب جيد لناقد سوري اسمه سامي الدهان، وعنوانه «الشعراء الأعلام في سوريا»، بطبعته الثانية الصادرة في بيروت سنة 1968. وفي الحق أن هذا الكتاب جيد بالفعل، وخاصة إذا أخذ ضمن إطار زمانه ومكانه. ومن مزاياه البارزة أنه يكشف عن المصادر التي تأثر بها الشاعر المنقود، كما أنه يهتم بالتفاصيل وبتحليل النصوص على نحو يثير الإعجاب.

ومما هو جدير بالتنويه أن دمشق عرفت من الشعراء ما لا يحصى بتاتاً خلال السنوات الأربعين (ولا سيما الثلاثين) الأخيرة، حتى صار المرء يتعثر بشاعر ما أينما اتجه وأينما حل. وهذه ظاهرة تبعث على الضجر والتأفف. ومما هو ناصع أن الإنسان لا يطيق وجوده المياوم الخاوي من كل ما هو ذو بال، ولهذا فقد راح يبحث عن علالة لاغترابه وبؤسه وخواء تجربته، أو قل عما يستجيب لهذه المسغبة الروحية التي يكابدها على الدوام، ولكن دون أن يجد لها أيما إشباع، أو أية تلبية من شأنها أن تروي ظمأه إلى اللامألوف. ومع ذلك فإن هذه الكثرة المفرطة من «الشعراء» هي أمارة اتضاع، دون أدنى ريب. ولقد أفلح أبو هلال العسكري حين قال في " كتاب الصناعتين ": " إن الذي قصّر بالشعر كثرته، وتعاطي كل أحد له، حتى العامة والسفلة ... ".

* * *

ولقد عاش في دمشق بعض الشعراء الفلسطينيين الذين كانوا يمارسون كتابة الشعر قبل النكبة التي حلت بنا سنة 1948 على أيدي الصهاينة الذين يحترفون النذالة، والذين طرودنا من ديارنا بقوة السلاح والمجازر. وكان أبرزهم عبد الكريم الكرمي المشهور بأبي سلمى، الذي أحب الطبيعة والمرأة واعتنى كثيراً بالصورة الشعرية، وبسبب شدة التزامه بفلسطين سمي شاعر النكبة. وكان حسن البحيري واحداً من الشعراء الذين نزلوا دمشق في عام الكارثة. وقد التصق اسمه بمدينته حيفا، فصار يعرف بشاعر حيفا التي وضعها «في سواد العين». وكان قد نشر ثلاثة دواوين شعرية قبل خروجه من بلاده.

وفي مطالع الخمسينيات جاء شاعر من الضفة، وهو يوسف الخطيب الذي عمل مذيعاً في إذاعة دمشق، والذي يتدفق شعره مشحوناً بحماسة وحرارة قويتين

جداً، حتى لكأنه يتخذ من هذا النهج المتفور رمزاً لسخطه على هذه الكرة الأرضية التي لا عمل لها سوى السهر على أمن الصهاينة، والتي تضطهد الشعب الفلسطيني على نحو لا عقلاني، بل لا مسوّغ يسوّغه قط.

كما برزت في دمشق خلال عقد الخمسينيات شاعرة فلسطينية متميزة، وهي سلمى الخضرا الجيوسي التي نشرت في بيروت، سنة 1960، مجموعة شعرية جيدة عنوانها «العودة من النبع الحالم». وقد أتيح لي أن أجتمع بها، عدة مرات في دمشق، أواخر العام التاسع والتسعين من القرن العشرين، فوجدتها امرأة استثنائية جداً، سواء من حيث الذكاء أو من حيث سعة التجربة والاطلاع.

وفي مطالع الستينيات ظهر شاعر فلسطيني آخر، وهو فواز عيد (1938 - 1999)، الذي التقيته لأول مرة يوم انتسبت إلى جامعة دمشق في شهر أيلول سنة 1960، والذي ظل صديقاً لي طوال ما تبقى له من عمر. ولقد لفت الانتباه منذ أن نشر، سنة 1965، مجموعته الشعرية الأولى بهذا العنوان: «في شمسي دوار». وسرعان ما صار ذلك الشاعر، بعد هذه المجموعة المتميزة يومئذ، ولعدة سنوات، نجم الشعر في دمشق بين الجيل الشاب من شعراء ذلك الزمان. وتعزز موقعه هذا يوم نشر مجموعته الثانية، أقصد «أعناق الجياد النافرة»، وذلك سنة 1969. وهذا عنوان لافت للانتباه، شأنه في ذلك شأن العنوان الأول. ولكن أهم ما في أمره أن شعره له مناخ خاص في تلك الحقبة الشابة من أحقاب عمره.

يتميز شعر فواز عيد بمزية ناصعة جداً وهي خياله التصويري الطافح بالحيوية والخصوبة والقدرة على جعل اللغة تتحرك برشاقة رائعة، فتخلق لنفسها ألحاناً داخلية كلها سلاسة وعذوبة، مما يضفي الرونق والزخم على النص الشعري. ويلوح لي أن تزويد اللغة بالحرية، أقصد حرية الحركة الرشيقة والانسياب التلقائي غير المعاق، الأمر الذي قد يخلصها من لزوجتها وهلامها، هو السر الذي جعل فواز عيد لافتاً للانتباه فور ظهوره في فسحة الشعر الدمشقية.

وقد يجوز الذهاب إلى أن هذا التماهي القائم بين اللغة والحرية هو فعل يهدف إلى حيازة الطهر والسمو، أو إلى تزكية النفس وتنقيتها ورفعها صوب أفق العلو الباذخ النبيل. وفضلاً عن ذلك، فإنه دفاع بغير هجوم، لعل من شأنه أن يصد عن النص الأدبي كل تهلهل أو تهتك قد يصيب نسيجه الذي يجب أن يحوز المتانة واللدانة في آن واحد، وأن يخلق صوراً أثيرية مرهفة أو شفافة، إذا أراد أن يجتذب إليه نفوس الناس.

ولهذا أراني جانحاً صوب الاعتقاد بأن المعيار الأول للنص الأدبي هو قدرته على جعلنا نخبر سمواً أخلاقياً رفيعاً. وربما تعذر إنجاز هذا المعيار بمعزل عن المكابدة. فالشاعر العظيم (شكسبير والمعري) يكابد هماً عظيماً دون أدنى ريب. أما معياره الثاني فهو شعورنا بأن فيه سراً يند عن كل استبار أو استيعاء. وفي

مذهبي أنه ما من إنجاز شعري يبذ «الكوميديا الإلهية» في الاستجابة لهذين المعيارين الأوليين.

وقد لا أزوغ كثيراً عن سمت السداد إذا ما زعمت بأن الفنون والآداب كلها تصلح أن تكون بمثابة تعويض عما يباطن الحياة من إسراف في الحقارة والخساسة والبؤس. فلئن كانت الحياة مختصة بصناعة الخساسة، فإن الفن مختص بصنع النفاسة والنبل. وهذا يعني أن للفن وظيفة أخلاقية لا تخفى على ذوي الألباب.

وعلى أية حال، فقد التقيت في هذه المدينة بجميع الشعراء الفلسطينيين البارزين الذين عاشوا فيها، وعلى رأسهم أبو سلمى ويوسف الخطيب وحسن البحيري. كما التقيت بشعراء من العالم العربي ليسوا فلسطينيين ولا سوريين. وكان بينهم الشاعر عبد الوهاب البياتي الذي التقيته عدة مرات كانت أولاها سنة 1974، أما آخر لقاء فكان قبل وفاته بعدد طفيف من الأيام. كما شاهدت سعدي يوسف يوم كان يقيم بدمشق وحاورته كثيراً. وشاهدت كذلك الشاعر الفلسطيني معين بسيسو وهو يلقي بعض أشعاره في المركز الثقافي العربي الواقع في شارع أبي رمانة، وذلك سنة 1977 على الأرجح.

* * *

بين الشعراء الدمشقيين الأربعة الذين ولدوا في أواخر القرن التاسع عشر، والذين أخذوا يبرزون مع بداية الحرب العالمية الأولى، استطاع خير الدين الزركلي (1893 - 1976) أن يلفت انتباهي، وأن يجتذبني على نحو خاص. ولعل في الميسور الزعم بأنه أول من استطاع أن يكتب نصاً شعرياً جديراً بأن يسمى قصيدة في دمشق الحديثة. وما كان له أن يبلغ إلى هذا المبلغ إلا بفضل عاطفته الصادقة وما تدخره من حرارة وزخم ووجدان حميم.

أما المحتوى الأكبر لهذه العاطفة الجياشة فهو الشعور بالاغتراب الذي أراه العنصر الأول في شعر كل شاعر كبير. فلقد عبر شكسبير، سيد الشعراء قاطبة، عن غربته في هذا العالم من خلال تصويره للشر بوصفه نسيج الوجود سداةٍ ولحمة. إن شكسبير قد جعل الشر جسداً قابلاً للمس والرؤية في آن معاً. وكل شر غربة وكل غربة شر.

ولقد تجلت جودة التعبير لدى الزركلي في متانة الصيغ وكذلك في الحركة الرشيقة التي تقوم بها الألفاظ داخل ساحة النص، أعني في تلقائية اللغة وسلاستها، ثم عبر إسهام اللحن الداخلي في نقل المعنى إلى سريرة المتلقي. وفضلاً عن ذلك،

فإن ثمة حيوية تغلغل في الأسلوب وتتجلى من خلال وحدة الرصانة والطراء في ملغمة واحدة. كما أن الرجل مرهف الشعور، يصدر عن وجد صادق دافئ شفيف. ولعل سمته الأولى أن تكون ذلك الشعور بالمرارة الذي ينخر صميمه فيحث الذات من الداخل كي تستقلب وجدانها إلى شعر جليل.

ومع أن ذلك الشاعر لم يستطع الإفلات من شبكة الأقدمين، شأنه في هذا شأن شعراء جيله دون استثناء، فقد كاد أن يبتكر أسلوبه الخاص الذي يكافح ابتغاء تجاوز التراثيين، وهم من يشكلون مثله الأعلى، بل كاد أن يبدع أسلوباً حديثاً، أو كاد أن يبلغ إلى الحداثة قبل أوانها، وعندي أن الشاعر، كل شاعر، يجتهد طوال حياته كي ينتج أسلوبه الذي يخصه وحده دون بقية الناس. فلئن نجح في هذا المضمار فهو شاعر أصيل مطبوع، وإلا فإنه لن يكون سوى عرض سريع الزوال، يشبه البرق الخلب، ولا يبقى منه على الأيام سوى الذرر اليسير. ويلوح لي أن كل امرئ يكافح طوال حياته كي يصنع فرقه الخاص، فرادته أو تفرده، أو ما يميزه عمن سواه. ففي البداهة، ما من فرد بغير فرق.

وأحسبني حليف السداد إذا ما زعمت بأن مطلع القصيدة التي يكتبها الزركلي يجيء، في بعض الأحيان، متيناً رصيناً ومثيراً للإعجاب، حتى تراه يذكر المرء بمطالع القصائد التراثية. وهذه سمة قد يتشابه فيها مع شوقي والجواهري اللذين يتقنان صياغة مطلع القصيدة في كثير من الأحيان. وهذا هو مطلع قصيدته التي خصصها لمعركة ميسلون سنة 1920:

الله للحِدْثان كيف يكيد بردى يغيض وقاسيون يميد

وبعد ذلك بأربع سنوات كتب قصيدة هذا مطلعها:

العين بعد فراقها الوطنا لا ساكناً ألفت ولا سكنا

كما كتب قصيدة أخرى في وقت آخر هذا هو مطلعها:

الأهل أهلي والديار دياري وشعار وادي النيربين شعاري

ولئن أضفت عنصر الاغتراب (وهو عنصر لا يجوز إغفاله لدى دراستك لهذا الشاعر) إلى جملة المزايا السالفة الذكر، عرفت لماذا كان الزركلي شاعراً متميزاً في دمشق الحديثة، ولاسيما خلال المرحلة الفاصلة بين الحربين العالميتين. ولعله أن يشكل مع بدوي الجبل ونزار قباني مجموعة الأقانيم الثلاثة للشعر في العاصمة السورية طوال السنوات الخمسين التي تبدأ مع بداية الانتداب الفرنسي على سوريا سنة 1920.

وللمرء أن يلاحظ المقبوس الثاني بين هذه المقبوسات الثلاثة التي سردتها للتو، كي يدرك مدى شعور الرجل بالاغتراب، وهو الذي عاش مشرداً في البلدان بعيداً عن وطنه لمدة طويلة. وفضلاً عن ذلك، فقد عبر عن شعوره بالاغتراب في قصيدة كتبها إبان إقامته في مصر، أو سنة 1920 حصراً، أي بعد أن غادر سوريا إثر معركة ميسلون اللامتكافئة الكفتين. يقول:

إن الغريب معذب أبداً إن حل لم ينعم وإن ظعنا
لو مثلوا لي موطني وثناً لهممت أعبد ذلك الوثنا

ولكنني قد أكون على حق إذا ما زعمت بأن الجملة التي يكتبها الزركلي أقرب إلى طبيعة النثر منها إلى ماهية الشعر، ولا ينقذها من النثرية الخالصة سوى ما يدخره مناخها من عاطفة دافئة صادقة لها قيمة الانبثاق من الوجدان. فعلى النقيض من الجملة التي يكتبها بدوي الجبل ذو الأسلوب الموحي والمزود بخيال تصويري من شأنه أن يلفت الانتباه، جاء أسلوب الزركلي فقيراً إلى الخيال الذي هو عنصر ماهوي في بنية الشعر الحامل للشعور النبيل. ولهذا السبب سرعان ما خمل صيت الزركلي ولم يعد معروفاً إلا لدى أصحاب الاختصاص. فلئن غاب الخيال تدنى مستوى الشعر إلى الدرجة الثانية أو الثالثة.

* * *

يوم أتيت إلى دمشق نزيلاً، فهمت أن ثمة شاعراً يجتاحها اجتياح الفاتحين. وسمعت الناس يلهجون بذكره ويثنون عليه أيما ثناء. ومن حسن الحظ أنني قد اتيح لي أن أراه بعد وصولي إلى هذه المدينة بشهرين أو زهاء ذلك.

هذا هو نزار قباني الذي يسعك أن تنعته بأنه شاعر الحب والمرأة، والذي استطاع فيما بعد أن يجتاح المجال العارم المنداح للغة العربية من المحيط إلى

الخليج. ومع أنني كنت في ريق العمر، أو في السن الذي يفتح القلب على الغرام يوم يكون المرء في مستهل الصبا، فإن نزار قباني لم يرقني بتاتاً، ولا اجتذبني، ولا حسبته شاعراً في أي يوم من الأيام. وربما كان السبب أنني جئت إلى دمشق مكتظاً بالمعري وجديته الصارمة، فضلاً عن همومه الكبيرة المتوضعة في الصميم من قضية الإنسان. كما أنني قد تعرفت في تلك السنة نفسها على ادغر ألن بو من خلال المركز الثقافي الأمريكي الذي كان في محيط السبع بحرات، والذي أغلق بعد مناوشة حزيران (1967) مباشرة. ومن شأن ذلك المأسوي الأمريكي العاثر الحظ أن يطرد من القلب كل لغو وكل لهو. ومع ذلك كله، فقد طالعت الكثير من نتاج نزار الشعري والنثري، ولا سيما في السنوات الاثنتي عشرة الأولى من إقامتي في سوريا.

ولقد لاحظت منذ ذلك الوقت المبكر أنه يبدي اهتماما بملابس المرأة إلى حد لم يألفه الشعر العربي منذ امرئ القيس حتى اليوم، فكأنما هو يستعيض عن الشيء ببعض لوازمه. ثم إنه قلما استطاع أن يرى الأنثى إلا بوصفها جسداً وكفى. أما أن تكون المرأة زوجاً، أما الصورة الباطنية للأنوثة، فهذا شيء لا يرى في تراثه إلا على ندرة وحسب. وهذا يعني أنه يفتقر إلى النزعة الصوفية التي يتمتع بها بدوي الجبل.

ومع ذلك، فقد هيمن نزار على معظم النخبة المتأدبة في العالم العربي كله، تماماً كما فعل المتنبي قبله بألف عام. وربما جاز الزعم بان واحداً من الأسباب التي اسهمت في شهرته يتلخص في أنه أعرض عن الخطابة حتى في شعره الوطني القليل الكمية، بينما غاص الشعراء الآخرون في لجتها حتى سمت الرأس، دون استثناء الزركلي وبدوي الجبل. والأهم من ذلك أنه عمد إلى الأوزان الخفيفة التي تصل إلى قعر النفس مباشرة. فلا أحسب أنه كتب قصيدة واحدة على البحر الطويل.

بيد أن ذلك الشاعر قد اهتدى إلى أسلوبه المخملي الخاص الذي لا يشبه أي أسلوب آخر بتاتاً، بفضل غريزة ماهوية ولدت معه، دون ريب. ولئن لم يعرف الكاتب الأدبي من أسلوبه، فإنه ما صنع شيئاً ذا بال. وعندي أن هذا الأسلوب الحريري الناعم كالرخام هو أهم عامل بين جملة العوامل التي أفضت إلى رواج شعر الرجل. ويبدو أن الناس قد ملوا الغزل التقليدي، أو التراثي، ذا الطابع المثالي الملتاع، فكان أن جاءهم نزار بغزل واقعي يتوجه صوب التجريبي أو العيني الملموس. وهذا شأن يتناسب مع شخصية عصرنا، وهي شخصية واقعية مادية تتعبد للبضائع والغرائز الجسدية. وبفضل هذين العاملين، أقصد مخملية الأسلوب وواقعية المحتوى، استطاع نزار أن يبذ جميع الشعراء في القرن العشرين من جهة الانتشار أو رواج النتاج.

ومع أنني لا أحب شعره الذي طالعت معظمه، فإن عليّ أن أكون محايداً وموضوعياً، وأن أدرك أسباب الظواهر التي تفقأ العين. فهل صار ذلك الشاعر المقروء جداً أشهر شاعر في البلدان العربية بأسرها إلا لسبب كبير؟ لقد أشبع في الناس، ولاسيما في الشبان والشابات، حاجة من الحاجات الأولية أو التأسيسية، فأقبلوا عليه إقبال النحل على الرحيق.

بإزاء هذه الظاهرة الناصعة يملك الذهن ان يزعم بأن معيار الشعر، بل ربما معيار كل شيء، هو اللذة الشعورية، أعني استمتاع النفس بالجميل أو بالموائم.

والشعر والشعور لفظتان تشتقهما اللغة العربية من جذر واحد فحواه الدقة. وقريبهما الشعر (بالفتح) هو شيء مستدق أيضاً. فكأن الشعر هو مارق أو استدق من محتويات الشعور والوجدان. ولهذا، فقد رأيت منذ زمن طويل أن العنصر الأكبر في كل أدب عظيم هو الوجدان المألوم قبل سواه. ومن المفارقات أن يكون التعبير الجيد عن الألم أسمى أنماط المتعة أو اللذة. ولعل هذه الحقيقة أن تكون السبب الذي جعل مسرحية «أوديب»، أو مسرحية «لير» وبضع مسرحيات جليلة أخرى، إنجازات فنية من شأنها أن تهيئ للنفس فرصة تختبر أثناءها رفعة قد لا تخبر مثلها في أية برهة ثانية بتاتاً.

لقد صار نزار مقروءاً لأن شعره لذيذ في ثغور الشبان والشابات، بل هو لا يخاطب فيهم سوى غريزة اللذة التي هي أخت لغريزة الفرح، إن لم تكن إياها.

ولكن الشعر لا يكون لذيذاً فعظيماً ونفيساً، على الأصالة، إلا إذا جاء من البعيد، من النائيات، من خلد قصي، أو من الأعالي السامقة. إنه العمق والشوط الطويل والمسافة النازحة، أو قل إنه ما يجعل الإنسان يصغي إلى راقته اللاواعية، أو نصف الجهرية ونصف السرية. وهذا هو السبب الذي وضع المتنبي أو المعري فوق نزار بمسافة فلكية. وعندي أن من قرأ هذين الشاعرين بإمعان، أو من قرأ دانتي أو شكسبير، فإنه سوف لن يأبه كثيراً بمعظم شعراء القرن العشرين، وذلك لأنهم، في الغالب، يأتون من لحاء الأشياء وليس من لبابها. ثم إن النص الأدبي العظيم يخلق في داخلك شعوراً فحواه أنك أمام فطرة فائقة لا تبذ. وهذا شعور لا يخلقه في وجداني أي شاعر من شعراء السنوات المائة والخمسين الأخيرة، مهما تك جنسيته.

ولكنني أميز بدوي الجبل والأخطل الصغير عمن سواهما من الشعراء، وذلك نظراً للمناخ الخاص الذي يتمتع به كل منهما، وكذلك للغنائية الفاتنة المبثوثة في بعض قصائدهما الطافحة بالروعة والعذوبة.

ولا يكفي أن يقال بأن شعر نزار يأتي من القريب، أو من سطوح الأشياء وقشورها، في الغالب الأعم، لأن ثمة أمراً آخر يشكل مثلبته الكبرى، وهو أنه قلما يكابد أي هم، أو قلما يتبدى منخرطاً في أي توتر ذي بال.

وفي الحق أن شعره الوطني أو السياسي يأهله فتور يجعل النسيان يسارع إليه فور الانتهاء من قراءته، وحتى الجنس الذي أخذ على كاهله أن يكون شاعره الأول، وربما الوحيد، في سائر البلدان العربية، لم يظهر في شعره مزوداً بحرارة الوجدان الكافية. فعبارته الجنسية تفتقر إلى أية رعشة باطنية أو جوانية من شأنها أن تجعل منه شعراً يؤثر في النفس تأثيراً أصيلاً. ولهذا أراني أتساءل عما إذا كان يستحق تلك الشهرة التي نالها طوال أكثر من نصف قرن وفي جميع أنحاء العالم العربي.

* * *

قد لا أبالغ إذا ما زعمت بأن محمد سليمان الأحمد (1906-1981) الملقب ببدوي الجبل، هو أكبر شاعر أنجبته سوريا الحديثة التي تبدأ مع بداية الانتداب الفرنسي إثر معركة ميسلون. فهو شاعر مطبوع وله خصوصية تجعله شديد الأصالة والعذوبة والنقاء، وناجيا من التكلف والاصطناع إلى حد بعيد، ولا يسرق سواء من الشعراء وغير الشعراء. وتأثره بمن سبقه أو عاصره طفيف حتى لا يكاد يرى. وأحسبه متأثراً بعض التأثر بالمتنبي، وكذلك بأحمد شوقي المتأثر بابن زيدون. كما يبدو عليه شيء طفيف من آثار لابن الفارض، شاعر الصوفية الأمهر.

أما أسلوبه الفريد في هذا الزمان، وذلك لقربه من الأساليب التراثية، فهو مزيج من المتانة واللدانة حقاً، كما أنه ينبع من ينابيع روحية مأهولة بالغزارة والحيوية. ويلوح لي أن أسلوبه، كأسلوب المتنبي، أو كأسلوب الشاعر التراثي بوجه عام، يتأسس على مبدأ فحواه أن الذات العالية لا يناسبها إلا لغة عالية، أو قل إن الذات العالية محمول للغة عالية، واللغة العالية محمول لحامل ماهوي هو الذات العالية أيضاً. وهذا يعني أن ثمة تشارطاً بين هاتين اللحظتين اللتين لا تنفك أي منهما عن الأخرى.

ومع أن لغته مفعمة بالينع والاخضلال في الغالب الأعم، فإنه يلجأ، أحياناً، إلى بعض المفردات القديمة المهجورة، أو التي لم تعد دارجة في القرن العشرين. كما أنه كثيراً ما يتورط في الضوضاء الخطابية التي أراها داء من أدواء الشعر في ذلك العصر المنصرم. ولكن بدوي الجبل لا يجيد ولا يؤثر إلا حين ينجو من الخطابة وصيغها الجوفاء. وعندئذ يشعر قارئ شعره بأن الجملة تنساب انسياباً رشيقاً لا يعيقه شيء.

وفي زعمي أن رشاقة شعره تنبع من خصوبة خياله المتحرر النشيط. ومع أن خياله أقرب إلى الماضي التراثي منه إلى الحاضر الحداثوي، فإنه شديد الحيوية

والنضارة والقدرة على الحراك الحي. وبوجه الإجمال فإن درايته باللغة العربية، أو حصراً بالمعجم العربي، هي دراية استثنائية قلما تتوفر لشاعر آخر في القرن العشرين. ولعله أن يشبه المتنبي في هذه الخبرة الشارطة لكل شعر عظيم (شكسبير، مثلاً). ولكن المتنبي يبذه حتى في هذا المضمار. ومما هو لازم أن أشير إلى أن معجمه واسع جداً، خصيب جداً، ملون جداً، أو شديد التنوع. ولا مراء عندي في أنه أغنى من معجم أي شاعر سوري آخر. ولا بد لهذه السمة، أعني سمة الثراء اللغوي، من أن تكون قد أسهمت في جودة شعره اسهاما ليس بالطفيف. فكل شاعر هو في المآل الأخير أسلوب وكفى، فرق أو فرد وحسب.

ويتواتر في معجمه عدد من المفردات الدالة، ولا سيما هذه الكلمات: النور، الشمس، النعمى، الحنان، الحنو، الحنايا. وأحسبها تزدلف جميعاً إلى معنى واحد بعينه. وأظن أن نزوعه الإنساني النبيل هو المعنى الذي تؤشر إليه كلمة «حنا» التي تتكرر في موروثه الشعري كثيراً جداً. ولعمري إنه قلما ينجح كما ينجح حينما يعبر عن حنان وجدانه المرهف النبيل. ففي الحق أن شعره يصدر من نبل روحه الزاكية: «جسدي آثم وروحي بتول». كما أنه ينجح أيما نجاح حينما يعبر عن مقاساته للشعور بالاغتراب في بلدان أجنبية لا يشبهها ولا تشبهه بأي حال من الأحوال. يقول في إحدى قصائده: «وعندي كنوز من حنان ورحمة» وهذا قول يندر أن تجد شاعراً آخر في هذا الزمن يفطن لمثله أو يهتم به. ولهذا، أعني بسبب نزعته الإنسانية الطبية، يرى قارئ شعره أنه لا يؤمن بالحقد إلا إذا كان وطنياً وحسب. بل هو يرى في إحدى قصائده الميمية أن الجنة هي المحبة وأن الجحيم هو الحقد.

وخلاصة القول إن بدوي الجبل هو شاعر أخلاقي مترع بالأريحية والنبل والمناقب الحميدة. كما أن معانيه تحلق أحياناً حتى لكأنها تجسد السمو أو تدخره داخل حروف ألفاظها. والشاعر الحقيقي عندي هو من يفعمك بالسمو ونقاء السريرة، ويعلمك المحبة والرفعة كلتيهما. ولهذا، فإنه يستحق أن يوصف بأنه شاعر طيب يرى الحب مثالاً والمثال حباً، وذلك على عادة الصوفيين التراثيين. ولهذا، فإن شعره ينطوي على فلسفة فحواها أن الفن من أجل الإنسان، أو من أجل لطف الروح في صراعه ضد همجية المادة وبؤسها وشرورها الساحقة للكرامة البشرية. وهذا يعني أن الفن من أجل الأخلاق. ولنقرأ هذا البيت الإنساني:

حب قد انتظم الوجود بأسره أسد الشرى وحمامة الأدواح

إنه يذكر بابن عربي عند ما صار فؤاده قابلاً كل صورة حتى صار الحب دينه وإيمانه.

ولقد تجلى نزوعه الإنساني أيما تجل في شدة اهتمامه بالطفولة والأطفال. وهذا موضوع قلما اهتم به الشعر العربي قديما وحديثاً. والقصيدة البائية الاغترابية التي أهداها من منفاه في سويسرا إلى حفيده محمد هي خير مثال على هذه السمة الحنونة النبيلة. ولا مرية في أن قائلها هو إنسان حقيقي، أو قد بلغ البرهة التي يصير فيها المرء إنساناً بكل ما في الكلمة من معنى. ولهذا فإن بدوي الجبل واحد ممن نلتقيهم عند ينابيع الوجود، أو ممن ينبثقون من أُسّ الكينونة حصراً. وعندي أن المتنبي وبدوي الجبل قد أضربهما حبهما للرئاسة وتوجههما نحو السياسة. فلو كرس كل منهما جل وقته للشعر لأتانا بكنوز لا مثيل لها في الشرق ولا في الغرب.

أما علاقته بالشام فلم أشاهد شاعراً واحداً قد عبر عن مثلها. وقصيدته البائية الشديدة الرقة والمكرسة لهذا الموضوع هي خير برهان على صدق ما أزعم. يقول:

يا شام، يا لذة الخلود، وضم مجدكما انتساب
من لي بنزر من ثراك وقد ألح بي اغتراب
أنا والربيع مشردان وللشذا معنا ذهاب
والنور يسأل والخمائل والجمال: متى الإياب؟

وفي الحق أنه في قصيدته التي عنوانها «إلى خالقه»، استطاع أن يجيء بلغة مدمثة هيفاء، ابتكرها ذلك الروح الحنون الأملد، الذي لا يقلد أحداً ولا يسطو على أتعاب الآخرين، كما يفعل بعض المتشاعرين، بل هو يشتق من الناجز ما لم ينجز بعد، أي انه يعرف كيف يستنفر مضمرات الأشياء ونواياها وطاقاتها المكنونة، وكيف يستدرجها لتجيء من الإمكان إلى الفعل أو إلى العلن. ففي الحق أنها لغة تنبع من ينبوع العذوبة حصراً. وعندي أن عصرنا الراهن، عصر فورة النفط وتوثين المال والسلعة، لا يملك البتة أن يبتكر أسلوباً كهذا الأسلوب. ففي مذهبي أن التواطؤ القائم بين المال والسلاح قد أنتجا زمناً شديد العجز عن انتاج الرفعة والنبل، أو عن الانجاب بشاعر ينتسب إلى شيعة الصدق والدماثة. فأولى مثالب المال هي قضاؤه على الروح الوثني الذي لا شع، على الأصالة، من دونه قط.

ولعل أهم ما في هذه القصيدة، أعني «إلى خالقه»، هو اهتمامها بصوت المرأة. وهذا عنصر قلما تنبه له الشعر في القديم أو في الحديث. فلقد جعل منه شيئاً صوفياً يشبه نبيذ الفردوس الذي يسكر دون أن يغول. فلا أحسبني أعرف شعراً مداره على صوت المرأة أنقى وأصفى من تلك الأبيات الأربعة التي جاءت

في الشطر الأول من تلك القصيدة الخالدة. إنها لغة لا يشبهها شيء سوى الماس، وذلك لشدة صفائها ونقائها. ولعل مما هو جد ناصع أن الخمرة المعتقة التي لم تعتصر قط والتي جاءت في لحظة صوت المرأة، هي الخمرة الصوفية المشهورة التي مجدها الشعراء الصوفيون، ولاسيما ابن الفارض، في ميميته المشهورة. وبذلك يكون الشاعر قد وثب من الطبيعة إلى الما وراء المحض. وهذا كله يعني أن بدوي الجبل قد جاء بقصيدة غزلية تجاوزت الغزل الموروث كله.

* * *

وعلى أية حال، فقد انحط الشعر بعد وفاة بدوي الجبل بدلاً من أن يرتقي مستفيداً من تجربته الثرة ذات النكهة الوثنية والصوفية في آن. ففي صلب الحق أن شخصيته الشفقية والقيثارية، أو ذات القوام الأهيف الأملد، لم تجد من يرثها ويدفعها إلى أوج النضج. ويبدو أن المثلبة الأولى للثقافة العربية الحديثة هي التضعضع، أقصد عدم الترابط والتضام أو الالتحام، أو قل عدم تبادل المؤثرات في العمق. فالتأثر عندنا يغلب عليه طابع الانتحال بدلاً من التمثل والتحويل، أو أن نشتق من الناجز ما لم ينجز بعد.

وفي صميم الحق أن الشعر في الغالب قد راح يرطن ويهذر ويتمتم ويغمغم حتى لقد صار أشبه بالهلام منه بأي شيء متماسك رصين، بل حتى جاز الزعم بأن الأمة العربية بأسرها تفتقر إلى الشاعر في هذه الأيام الماحلة البالية. وحين يفتقر المجتمع إلى شاعر ومفكر وفنان، فإن الحياة تكون قد استحالت إلى عبادة للمال بدلاً من الروح. ولقد رطن الشعر وهذى وهو يزعم بأنه يتبنى مبدأ الإيماء والايحاء والتلويح بدلاً من المباشرة والتصريح. وهذا يعني أن المسوغات في متناول اليد على الدوام.

وأسوأ ما في الأمر أن هذا الانحطاط الجديد قد تزامن مع السرقات الأدبية الدالة على القماءة والبذاء. فالسرقات توشك أن تحيل الثقافة كلها إلى انتحال وتزوير. كما تزامن هذا العكر والهذيان مع طوفان الكميات الشديدة الافتقار حتى إلى الحد الأدنى من الجودة، ناهيك بالرونق والزهاء. فالصحف العربية تنشر يومياً مئات القصائد، ولكنك قد لا تجد فيها قصيدة واحدة جديرة بالقراءة والصيانة، أو قادرة على إنتاج المتعة الأدبية في ذائقة المهتم بالشعر.

وفي هذه الشروط لا يملك الفعل الإبداعي إلا أن يخسر أسانيد وجوده، والا أن يتجه صوب الاضمحلال فالزوال بالضرورة. وههنا لا محيد للمرء عن التفكير بدرب تملك أن تفضي إلى الخروج من هذا المأزق المكروب والآخذ بالافتحال يوماً عن يوم، حتى لكأنه يتجه صوب اتضاع كلي شامل قد لا يكون هنالك، بعد

استتبابه واعتياد الناس عليه، أي نهوض فاعل نشيط من شأنه أن يعيد الأمـور إلـى سالف عهدها الذي رضي به الناس قبل جيل واحد وحسب.

الخاتمة

لقد سكتُ عن الكثير مما هو في صلب الشأن أو في صميمه، بل أغفلت عمداً رزمة من الأخبار الشديدة الأهمية في سيرورة حياتي. كما أنني صمت عن بعض صفاتي الشخصية، ولا سيما السلبية، التي هي جزء من ماهيتي. فلقد كنت نزقاً أحياناً، وأحياناً عنجهياً أو فجاً وبعيداً عن النضج وضبط النفس، أو عن الرجل الذي يوصف بأنه «راكز». كما كنت، ومازلت، فقيراً إلى الخبرة العملية، أو إلى حسن التعامل مع الأشياء. ثم أنني ساذج، أو سهل الانقياد، مطواع، سريع التصديق، وتنطلي عليّ الأكاذيب، بل ابسط حيلة واوضح خدعة. وفي بعض الأحيان أكون شجاعاً، ولكنني في أحيان أخرى أراني جباناً إلى حد يذهلني أنا نفسي. ولست أملك البتة أن أفسر هذه المثنوية بأي تفسير مقنع. ولهذا، يلوح لي أن نشوء علم بالنفس، منضبط ودقيق، هو صنف من أصناف المحال.

في بعض الأحيان يلقاني متسول في الشارع، فيبكي أو يتباكى شاكياً إليّ شدة جوعه أو فقره أو مرضه، فلا يكون مني إلا أن أمنحه مجمل المبلغ المالي الذي في جيبي، وهو عادة مبلغ صغير، بل طفيف، فأصير أنا بغير نقود بتاتاً.

وذات مرة جاءني فتى خرج من الصبا للتو، فهو أصغر مني باثنتي عشرة سنة، وقال لي: أريد منك أن تنتظم في حزبنا الشيوعي. فما كان مني إلا أن اتبعته كما لو أنني حواري يتبع السيد المسيح. ألم نكن ذاهبين لتحرير العالم من الظلم والفقر والبؤس؟ ولو قال لي بأن حزبه يقتضي من كل عضو أن يحمل صليبه على كتفيه ويسير في الشارع لفعلت ذلك عن طيب خاطر. وبعد عشر سنوات تقريباً، جاءني كويتب مبتدئ، وهو أصغر من الأول سناً، بينما كنت أنا في الرابعة والأربعين من سنوات عمري، وقال لي إن إحدى دور النشر طلبت منه أن يكتب مقدمة سوف تتصدر دراسة عن رباعيات الخيام في اللغة العربية، أو هي مكرسة للترجمات العربية الخاصة بتلك الرباعيات. وأضاف بأنه لا يعرف أن يكتب تلك المقدمة التي ستنشر باسمه. ورجاني أن أسدي إليه تلك الخدمة الأخوية، فما كان مني إلا أن كتبت مقدمة عنوانها «الخيام شاعر القلق والموت». وبينت فيها صلة الخيام بالمعري على وجه الخصوص، وهي صلة لا تخفى البتة على المتأمل الفطين. وأخذها ذلك الشاب ونشرها باسمه وهو فرح مبتهج. ولقد تنازلت له عنها، مع أنها ما زالت حتى اليوم نصاً جيداً، بل قلما أملك أن أكتب ما يبذه في الطور الراهن من أطوار عمري.

إذن، ساهمت في صنع هذا الانحطاط الشامل الغامر لكل شيء، ولذلك ما زال ضميري يوبخني على ارتكاب خطأ جسيم من تلك الفصيلة الممجوجة. وإني لأراه غلطة كبرى من أغلاطي الكثيرة جداً. ويا طالما خطر في بالي أن حياتي بأسرها ليست سوى سلسلة طويلة من الأغلاط الكبيرة والصغيرة، ولكنها جميعاً تجلدني كأنها سياط من نار، مع إيماني بأن على المرء أن يتسامح مع نفسه ومع الناس،

وذلك لأننا بشر مجبولون على النقص والضعف المفضيين إلى الخطأ بالضرورة. ففي الحق أن أذهاننا لا تسمح لنا بغير ذلك.

وكانت الكتابة للنش هي الكبرى بين جميع الأغلاط التي ارتكبتها طوال عمري، وهو الذي استطال حتى صار حملاً ثقيلاً أعتله على كاهلي المرهق. أقول إن الكتابة هي كبرى أغلاطي مع أنها جاءتني، طوال السنوات الست والثلاثين الأخيرة، بحفنة من الفراطة استعنت بها على حاجاتي المادية، ولاسيما على أدويتي الباهظة التكاليف إذا ما قورنت بدخلي الشحيح. فلقد أوجعت الكتابة رأسي، أعني أنها سببت لي مشاكل كثيرة مع الناس، ولاسيما مع المنتحلين والهجائين وأولئك الذين لا يطيقون أن يروك وأنت قادر على أن تكتب جملة مفيدة. ولكن لا جداء اليوم من الندم بتاتاً، فقد فات أوان التصحيح.

ولقد عاشرت الفلاحين في الحقول، وأجلاف الرعاة في البراري، والمهربين في الجبال، والجنود في المعسكرات، والمعلمين في المدارس، والطلاب في كليات الجامعة، والكتّاب في أماكن كثيرة، فلم أشاهد فصيلة بين فصائل البشر أسوأ من هذه الفصيلة التي تكتب للنشر فكثيراً ما تلاقي بين أفراد هذه الفئة من هو أناني ونرجسي وفقير إلى العنصر الذي من شأنه أن يؤكد ماهية الإنسان. ومنهم من يعتقد بأنه إله مجسد على الأرض وجدير بالعبادة، لو كان الناس منصفين. وهذا الصنف الأخير هو الأسوأ بين سائر أشكال الكتّاب.

* * *

وأياً كان الأمر، فإنني أرى الغربة ومقاساة الشعور بالبؤس قدراً محتوماً عليّ بحكم الشروط وبحكم طبعي الخاص. فأنا من ذلك الصنف المتوتر على الدوام، والذي يجهل الراحة الداخلية حتى ولو وضع في شروط معيشية تشبه شروط الفردوس. وقد لا أبالغ إذا ما زعمت بأنني من تلك الفصيلة البشرية التي لا تحيا ولا تموت. ولعل في الجواز الإدعاء بأن أفرادها المغبونين لأنهم لا يذوقون من الدنيا سوى مرارتها، بينما تمارس بقية الناس السراء والضراء معاً، أقول ربما جاز الزعم بأن أفراد هذه الفئة غير المحظوظة، لأنها محرومة من السعادة، تقضي عمرها في منزلة بين المنزلتين، أي في حالة من شأنها أن تتوسط بين الحياة والموت، ولا سيما في هذا العصر الذي يتألف، سداة ولحمة، من المال وحده. فنحن المغبونين، أو أهل الحنين الغامض، نتوق على الدوام إلى شيء ما لا وجود له قط، شيء سري مجهول، قد يرخم. وراء المادة، ولكن دون أن يمسها أو تمسه بأي حال من الأحوال. ولعله أن يكون الحرية المطلقة التي لا محل لها سوى فسحة العدم المطلق، أو إلا في عوالم خيالية وهمية، أو خرافية. وربما جاز الظن

بأننا، نحن المتوترين، لا نحن ولا نشتاق إلا إلى الموت وحده. فما أشد ولائي للعدم والفناء!

ولست أحسب أن في ميسور الإنسان الحساس الناجي من الوداعة البقرية، أن يعثر في هذا الكون كله على أية علالة لهذا الاغتراب الفادح المرير. فلا الحب ولا المجد ولا المال ولا المنصب الرفيع، أو أي زخرف آخر من زخارف هذه الدنيا الدنية، يصلح كي يصير تعويضاً عن هذا الشقاء الذي يكابده الناس يومياً، مع أن كل واحد من هذه الزخارف قد يجوز اتخاذه أُلهية يتلهى بها المرء عن بؤسه، أو عن بؤس العالم أيضاً. فالإنسان الحساس لا علالة له، أياً كان نوعها، مع أنه قد لا يعدم مخدراً من المخدرات يطامن به من هيجان روحه حين يطمو أو يعسف ويجور عن القصد.

وليس عجباً أن يقال بأن الإنسان الحساس، وهو روح مغترب بالضرورة، بل هو لا يرى الأشياء إلا بوصفها تجسيداً لغربة خانقة، لا يملك أن يسعد أو يهنأ في أي يوم من الأيام. إذا ما رأى إنساناً سعيداً، فإنه سوف يعتقد بأن الذي أسعد هذا هو الذي أتعس ذاك. فمثلاً، في ميسورك أن تشاهد الغربيين على شاشة التلفزيون وهم مبتهجون فرحون ويستمتعون بالرقص والغناء والرياضة. وما كان لهم أن يحصلوا على هذه البرهة المفعمة بالبهجات لو لم تكن جيوشهم منخرطة في حرب ضروس مع مجتمعات أخرى لا تقوى على منازلتهم بسبب الفرق في أدوات الصراع والنزال. وهذا يعني أن أفراحهم منهوبة من دماء الشعوب التي ينهبون. ولعل في الجواز أن أزعم بأن عرام الاغتراب في وجدان الإنسان الحساس قد يصير، في بعض الأحيان، مثل سيل زاخر أطلقته العاصفة. ولهذا، فإن كاتب هذه السطور يدعي بأنه من ذلك الصنف الذي لا يشعر بالسعادة أو بالهناء حتى لو وضع في أعالي الجنان. إنه طبع محتدم متوتر في الغالب الأعم. ولربما كان في ميسور نظرية الجينات أن تفسر لنا كل طبع وكل هوية شخصية خاصة.

وبسبب هذا التوتر الدائم تقريباً، فإنني لا أرى الحياة إلا بوصفها شأناً مقيتاً جداً، ولن تكون إلا كذلك في نظر الإنسان الحساس. ويكفي أن تكون الشيخوخة ضريبتها الحتمية كي تعد تجربة سيئة أو بغيضة عند كل من له عقل. وأقصد، بالدرجة الأولى، تلك الشيخوخة الممروضة التي هي وساطة بين الموت والحياة، والتي تكاد أن تكون احتضاراً طويل الأمد في بعض الأحيان. فبعد السبعين قلما يظل هنالك سوى حالة موهونة مقرورة، أو ربما عاوية نابحة تستحق الرثاء.

فحين تتفقد وضعك في أواخر عمرك، قد لا تجد شيئاً ترسب في القعر سوى الثفل الذي يسمى الشيخوخة، أو ذاك العبء الباهظ تعتله على كاهلك في طورك الأخير، يوم لا تعود قادراً على أن تحمل رأسك فوق كتفيك. فلعل في الميسور أن تعرف الشيخوخة بأنها ضريبة العمر الثقيلة الكريهة المجحفة، أو قل إنها احتساء الحثالة المترسبة في فنجان العمر. ويختلف هذا التعريف بعض الاختلاف عن قول

أرسطو بأن الشيخوخة هي «مساء العمر»، أي طوره المعتم الأخير، أو نقيض الطفولة التي هي صباح العمر.

أو يعقل أن أتكبد بؤس هذا التحلل العفن، وأن أتحمل جملة أوزاره الهائلة القاصمة للظهر، ولا سيما أمراضه العاتية المبرحة، من أجل تلك الحياة التفهة التي عشتها في الماضي الغابر، والتي تشبه «ظل الكرم» الزائل، على حد عبارة ذي الرمة؟ أليس ثمة إجحاف أو جور ظالم أسود اللون؟ أليس الثمن أكبر من السلعة بكثير؟ ألسنا جميعاً مغبونين؟

ثم أضف إلى الشيخوخة وتعاستها ما يعانيه الناس من فقر وأمراض ومصائب وويلات تجلبها الحروب والكوارث الطبيعية والأحداث الجسام التي تغث البال وتنغص العيش وتحرم المرء من كل هناء وابتهاج.

وربما استطاع المرض المزمن الحاد أن يرغم المرء على تمني الموت بوصفه خشبة الخلاص الوحيدة، ولكن في غير طائل. فالموت لن يجيء إلا إذا نضج شرطه تمام النضوج. (ومما هو جدير بالتنويه في هذا المقام أن المرض أنحلني حتى صار وزني ستة وستين كيلو غراماً عند بداية هذه السنة الجديدة، أعني سنة 2010. وأغلب ظني أن الحبل ما زال على الغارب) فمن نافل القول إن لا محيد عن عيش منغص معكور. وفضلاً عن ذلك، فإن الأقوياء يتغذون بالضعفاء ويضطهدونهم دون أي تبكيت من ضمير. وهذا مشهد قلما يفلت من عين الإنسان الحاضر النبيه يومياً. وحسب الحياة أن يكون فيها يهود كي تصير شيئاً خسيساً حقيراً يرفضه كل من يتمتع بالأنفة والإباء، بل كل من يتمتع بسلامة الطوية.

ثم أنظر إلى هذا التغير الدائم في الجسم وصورة الوجه صوب الأسوأ والأشنع، وكذلك إلى تحسر المرء على ما فات من عمره وشبابه، وإلى كفاح الإنسان المستمر من أجل الحياة الحقيقية الغائبة على الدوام تقريباً. أما انتظاره للموت عندما يشيخ فهو شيء منغص، وربما مثير للتقزز من الحياة بأسرها، إن كان ناجياً من بلادة النعاج والأبقار تمام النجاة. وإنه لوجود موحش يتسربل بالسواد هذا الذي لا يكون إلا من أجل الفناء، حتى وإن كان تجديد الحياة لا يتم إلا بالتجادل مع فنائها.

بيد أن ثمة تعويضات، دون ريب. فلقد ابتهجت أيما ابتهاج يوم جاء حفيدي يوسف ومعه حفيدتي ياسمين من السويد لزيارتنا هنا في مخيم اليرموك، وذلك في الأيام الأخيرة من سنة 2009. وقد مكثا لدينا حتى السادس من شهر كانون الثاني الجاري (2010). ومما زاد في البهجة أن يوسف قد صار شاباً طويلاً ممشوقاً وله لحية صغيرة سوداء. أما ياسمين فقد تبدت مشعة مثل بدر بزغ للتو في أفق شديد الصفاء. وهذا يعني أن العالم ليس بالصحراء الماحلة إلى حد صرف، بل إن ثمة

واحات ذات أشجار ظليلة باسقة تنتشر هنا وهناك، وتجعل الحياة شيئاً ممتعاً ولو لفترة وجيزة من الزمان.

ولا مراء في أن الحياة مبنية على مبدأ العجز والنقص والعوز والحاجة الدائمة، أي على الكدح من أجل الحصول على اللوازم الضرورية للبقاء وللمواظبة على التنفس. وحين يتأمل العاقل الحساس هذه التعاسات كلها، فإنه سوف يستهجن أن يتشبث الناس بهذه التجربة المضنية، فينجبون الخلف ويكدسون الأطفال ذرية من أجل استمرار المشروع البشري، مع درايتهم بالمشقة التي تغلغل في جميع تفاصيل وجودهم، ضاربين قول أبي العتاهية عرض الحائط: «لدوا للموت وابنوا للخراب».

ولكن، أليس العدم هو البديل؟ إذن، لا غرابة في أن يتشبث الناس بالحياة، فالإنسان لا يطيق العدم، ويكرهه أكثر مما يكره إبليس، ويفضل عليه العيش في خم للدجاج، أو حتى في نفق تحت الأرض مثل نفق الخلد.

ومع ذلك كله، فلا بد من الالتزام بمنظومة قيم لعل من شأنها أن تخفف وطأة الشقاء البشري. وما من قيمة في هذه الدنيا تروقني كما تروقني الطيبة والفعل الإخائي والالتزام بإنسانية الإنسان، ولاسيما قيم العطاء والسخاء وبذل الجهد في سبيل غايات خيرة، وعلى نحو أخص قيمة الإيثار الذي هو إعطاؤك ما أنت في أمس الحاجة إليه، والذي أراه فعلاً أصلياً لا يقوى عليه إلا كل ذي روح عظيم. بل إن الإيثار عندي هو الفحص القادر على الكشف عن جوهر أي فرد، فيتبدى أصيلاً أو نغيلاً دون أي لبس.

إذن، لا يمكن للقيمة الأولى أن تكون إلا العطاء المادي، ولاسيما العطاء الإيثاري، أي أن تهب شيئاً ما منحةً وأنت أحوج الناس إليه. وعندي أن من يفعل ذلك هو أنبل البشر في كل زمان ومكان. وأما القيمة الثانية فهي بذل الجهد من أجل مساعدة من هو بحاجة إلى جهدك. وإني لأتساءل عما إذا كان أرسطو قد أصاب حين وضع الشجاعة على رأس سلم القيم، وذلك لأن الشجاعة تقبل التوظيف في خدمة الشر. أما الإيثار فلا يكون البتة إلا عملاً من أجل الخير وحده.

ولئن كان العطاء، ولاسيما العطاء الإيثاري، وبذل الجهد من أجل غايات خيرة، هما القيمتين الكبريين في هذا العالم، فإن ثمة قيماً أخرى شديدة الأهمية في نظري. فكل ما يصون صلة الإنسان بإنسانيته، وكذلك كل ما يمتن علاقة الروح بالجمال والحق، هو قيمة جلى دون ريب. فالانخطاف الجمالي هو النشوة التي لا تبذها أية نشوة أخرى بتاتاً. (العشق نشوة جمالية.) والأهم من ذلك أنه كفيل بصيانة الكائن البشري من الداخل، وذلك لأن الجمال من اختصاص الإنسان وحده دون سائر الكائنات الأخرى.

* * *

وفضلاً عن أنني مهموم بالشرور حتى نقي عظامي، فإنه ما من شيء يسؤوني كما تسؤوني النذالة التي هي نقيض النبالة، والتي تتضمن الظلم والخيانة قبل سواهما. وفي تقديري أنها لا تنبثق إلا من ضعف الذهن وضموره وشدة حاجته إلى النضج. كما تزلزلني القسوة أكثر من سواها بكثير، ولاسيما إذا كانت على الضعفاء الذين لا حول لهم ولا طول، بل حتى على جميع أصناف البشر، وهم من أراهم جميعاً، حتى القساة والعتاة منهم، يستحقون الرحمة والشفقة. فكل واحد من هؤلاء في نظري لا تزيد مساحة عقله عن خرم الإبرة.

وفي ميسوري أن أوجز الأمر بالقول بأن جميع القيم المتوائمة مع السمو هي قيمي بالضبط، ولاسيما الحب والحنان والرحمة والإيثار والعدالة التي رآها أفلاطون ذروة القيم كلها. وعندي أن نظرة أفلاطون هذه أفضل من نظرة أرسطو إلى القيمة الأولى، وذلك لأن العدالة لا يمكن لها إلا أن تكون من فصيلة الخير وحده.

وليس مهماً ألا يجازيك أحد على التزامك بهذه القيم النبيلة، لأن المهم بالفعل هو التذاذك بها حين تمارسها أو تعيشها حقاً. ولكنك لن تلتذ بها التذاذاً عميقاً إلا إذا آمنت تماماً بأنها قادرة على أن تمنحك النشوة، كما لو أنها الخمرة المروقة أو النبيذ المعتق. وعندي أن هذا القول لن يفهمه الأوباش والأوغاد، بل لن تفهمه إلا النفوس المطهمة التي هي صفوة النقاوة الحاملة للجوهر الروحي أو الإنساني حصراً. كما اعتقد بأن اتضاع الزمن الجديد الذي جاء مع فورة النفط يتكثف في تنكره لهذه القيم التي هي النبل نفسه، بل في توجهه نحو تشجيع كل ما هو سالب لها، أو كل ما يعمل على إضعافها أو تهميشها.

* * *

وعلى أية حال، فإنه ما من موضوع يشغل بالي كما يشغله موضوع الشر المتفشي في هذا العالم كأنه وباء أو طاعون. ولقد كان الشر هو الهم الأكبر لشكسبير في مسرحياته العظمى. والحقيقة أن الشر أصناف متباينة. فالصهيونية التي هي قمة الشر في السنوات المائة الأخيرة لا تزيد عن كونها صنفاً واحداً من أصنافه. ولكن بعض الأفعال الأقل حدة من الصهيونية قد تشبهها في إثارة التقزز والإشمئزاز. فربما أغاظك إلى حد التفجر ذهن غاسق مد يده إلى أحد كتبك وانتحل منه فكرة عزيزة على فؤادك كأنها واحد من أبنائك، أو ربما سمع منك لصيص فكرة بالمشافهة وسارع إلى نشرها قبلك. إنني أرى في هذين الشرين حطة لا تقل عن الحطة التي تغمس الصهاينة حين يقتلون الأطفال في غزة وجنين وسواهما.

ولكن العام أكثر تأثيراً في النفوس من الخاص. أضف إلى ذلك أن العدو قد تطرف في الإجرام. فمما هو واضح أن الصهاينة الإرهابيين وحلفاءهم الغربيين العدوانيين يبتزون منطقتنا وينهبون ثرواتها دون أي شعور إنساني بتبكيت الضمير، بل قل إنهم قد التهموا البيضة وتركوا قشرتها للشعوب المغلوبة على أمرها. وفي شعوري أنهم أحالوا الحياة على الأرض كلها إلى جحيم جاحم لا يصلح لاستضافة الروح. فهم يقتلون الناس، بل يجزرونهم، ولاسيما في العراق وفلسطين، بغير رأفة أو رحمة. وهم يعيشون مفارقة حادة خلاصتها أنهم يمارسون الإرهاب على الدوام، ولكنهم يتهمون خصومهم المنافحين عن طعام أطفالهم، بأنهم إرهابيون ومخربون.

إنه لعالم ملوث باليهود الذين هم أخطر من الايدز والسخام، وكذلك من النفايات النووية. فلا يرجى لهذا العالم أي صلاح على المدى المنظور. وههنا أملك أن أؤكد ما فحواه أن شر البرية هو ذاك الذي يمارس عليك السحق والمحق من أجل هدف قميء ليس أكبر من قلامة أظفر.

ذات يوم قال لي أحد الغربيين بأن الامبريالية قد وظفت الثروات التي نهبتها من الأمم المستضعفة في مشروع تاريخي هدفه التقدم والحياة الأفضل. وكان ردي عليه أن التقدم ليس سوى تحسين للأدوات وحسب. وهذا ليس تقدماً البتة، وذلك لأن روح الإنسان ظلت مسحوقة تحت وطأة المال والاستغلال. فالتقدم عندي هو إعادة تأهيل الإنسان، أو إعادة صياغته أو تربيته وخلقه من جديد. وبإيجاز، إن التقدم هو تحويل الحيوان البشري إلى إنسان بكل ما في هذه الكلمة من معنى. ولهذا، فإنني أحتقر هذه الحضارة الحديثة التي تضع القيمة في الأداة وليس في الروح، أو في الخارج وليس في الداخل. وعندي أن الإنسان قد حكم على نفسه بالنفي والتشيؤ والاغتراب حين غادر الكهوف إلى الأكواخ منذ آلاف السنين.

وإنها لحضارة تعبد النار والمعادن، وهما أكبر رمزين للقسوة والشراسة. وهذا يستتبع ما فحواه أن من المحال أن يكون فيها أي خير. وهذه هي الفكرة المبدئية التي فاتت كارل ماركس، وهو من راهن على الصناعة الحديثة بوصفها القوة التي سوف تحرر البشرية من جميع أصناف بؤسها.

وعندي أن الذي اخترع الكهرباء هو من اغتال الإنسان وأحاله إلى جثة تتجيف في هذه العصور الصفراء العابسة وذات المذاق المرير. ولقد انطلت علينا ذات يوم، ولاسيما في الستينيات والسبعينيات، فكرة خلاصتها أن من يعادي الصناعة إنما يعادي التقدم. ولم يخطر في البال أن هذا الذي سموه تقدماً هو الانحلال المقزز، أو إحالة الحياة إلى مرارة وشقاء لا يحتملهما الروح إلا على مضض.

ثم إن هذه الأدوات الشديدة التطور، بل الشبيهة بالسحر، هي الشر حصراً، بل هي الحقارة نفسها في نظري، وذلك لأنها أرغمت الأمم ذوات الأدوات المتخلفة على الركوع أمام الأمم ذوات الأدوات المتقدمة. وهذا وضع ليس عادلاً بأي حال من الأحوال، وذلك لأنه أرغم النفيس على الركوع أمام حذاء الخسيس، أو قل أحال الإنسان من غاية قائمة بذاتها إلى وسيلة موظفة في خدمة غاية تتجاوزه أو تعلو عليه.

ومما هو ناصع تماماً أن هذا التطوير للأداة هو الذي أرغم الأمم المستضعفة على الاستخذاء أمام غزاتها. فهاهم الصهاينة يبنون الأحياء السكنية في القدس، بل في الضفة الغربية كلها. وهم يبنونها على أرض العرب وبأموال ابتزوها من نفط العرب. ومن الغرائب حقاً أنه ما من أحد في العالم يملك أن يشكمهم أو أن يفعل ضدهم أي شيء، مهما يكن نوعه. أن يصير الغزال الجميل غذاء لذئب متوحش، والأرنب اللطيف قوتاً لثعلب خبيث، فإن ذلك إجحاف لا يرضاه الضمير الحي، أيتها القوة العشوائية المتحكمة بالطبيعة.

فما من شيء يحز في نفسي كما يحز فيها أننا نحن الفلسطينيين قد خسرنا بلادنا وثرواتها، ولاسيما بحيرة طبريا بمشهدها الخلاب وسمكها الشهي، والتي نعتها المتنبي بأجمل الصفات، وكذلك برتقال يافا الذي لايبذه أي برتقال آخر في العالم بأسره. وما يزيد الطين بلة أننا خسرنا هذا كله لصالح اليهود، احقر المخلوقات التي تتنفس الهواء، بل الكائنات التي يسعك أن تنعتها بأنها قيح الجنس البشري دون أن يفوتك السداد.

ما هذا الجرب الذي أصاب الإنسانية منذ زمن طويل؟ فقد ابتزونا أرضنا واغتصبوها بقوة السلاح، مدعومين بأمم الغرب اللاحمة العاتية التي لا قبل لنا بمواجهتها بتاتاً. وقد خلق الصهاينة أغرب معضلة في تاريخ الجنس البشري. وهي معضلة فريدة من نوعها ولا مثيل لها في أي مكان أو زمان. فما هوية هذا اليهودي الآتي من أوروبا الشرقية ليزعم بأن فلسطين هي أرض أجداده، وكأن أجداده ليسوا أوروبيين شرقيين؟ أفلا يعد هذا ضرباً من ضروب العصاب والتعصب؟ أما اليهودي فيحق له أن يتعصب لتوراته التي تؤسس هويته، وأما سواه فلا يجوز له أن ينتسب إلى أية أُرومة من شأنها أن تصنع ماهيته التاريخية.

يقيناً، إن هذا الحادث اللئيم، أعني اغتصاب أرضنا التي أقمنا فيها منذ عصر الكهوف، إثر تشريدنا منها تحت كل أفق، هو برهان حاسم على أن الحياة السمجة قد اتخذت، منذ مطلع أمرها، قراراً محسوماً بأن تكون حقيرة وشرسة ومصابة بلعنة شاملة ودائمة، ولا برء لها منها دهر الداهرين.

وما كان لتلك النكبة الفاجعة أن تنزل بنا لولا الصناعة وما وفرته لأهل العدوان من أدوات شديدة التطور، ولا قبل للشعوب الفقيرة بمواجهتها. فما أخفق

المشروع الصليبي ونجح المشروع الصهيوني إلا لأن الثاني قد توفرت له أدوات وأجهزة مادية لا مثيل لها إلا في جهنم وحدها. كما أنه ما كان له أن يتم لو لم يوفر العالم كله (ولا استثني العالم العربي) للصهاينة جميع الأسانيد اللازمة لتحقيق غايتهم النهائية المنشودة، أي للاستيلاء أو للاغتصاب الذي جسد أشنع أنماط العدوان. فلو طلب الصهاينة لبن العصفور لجيء به إليهم، وعلى طبق من ذهب. ومعنى ذلك أن العالم، وهو المأهول بالنذالة والخسة، قد انحاز جهرة إلى القاتل ضد القتيل، ولكن بعد ما استنفره الصهاينة من قطبه الشمالي إلى قطبه الجنوبي. وعندي أن العرب الرسميين، ولاسيما قوات القسر الإنكشارية، قد خدموا الصهيونية أكثر مما فعل الغربيون والشرقيون مجتمعين، مع أن المشروع الصهيوني في أساسه مشروع غربي امبريالي وشديد الشبه بالمشروع الصليبي المعروف. وهذا يعني أن عالمنا الحديث تحايثه نذالاته ومثالبه، كما السموم تحايث جوف الأفعى.

وكثيراً ما خطر في بالي أن أكتب «رسالة إلى الشعب الفلسطيني» أطلب فيها ما فحواه ألا يبرم أي فلسطيني مع الصهاينة ايما اتفاق، مهما بك نوعه. كما أحث كل أمرئ على الانتظار والتربص ريثما تنضج الشروط المضادة أو الكفيلة بإنزال أشرس عقاب بتلك الطفيليات الصهيونية التي نكبتنا بواحدة من أقسى الكوارث في التاريخ البشري كله. فلقد شردونا تحت كل سماء في هذه الدنيا الدنية التي تهودت حتى نقي عظامها أو وضعت نفسها في خدمة اليهود على نحو غير مسبوق. ولو لم يكونوا الخسة جاسدة لما فعلوا بنا هذه الفعلة المتطرفة في اللؤم. فلقد أحالوا الوطن إلى غصة دائمة في الحلق، بل إلى غم يستتب في عقر النفس لا يريم. ويقع اللوم كله على هذا العالم الإبليسي الذي يسعك أن تحده بهذا الحد: إنه الموجود من أجل اليهود.

فلا يكاد المرء يصدق أن يكون أولئك الأشرار قد حشدوا هذه الحشود الكبيرة من القوى العالمية وألبوها ضد العرب والإسلام، وذلك لأن حجم العدو المستنفر أكبر من جبال هملايا وجبال الألب في آن واحد. وأحسب أنهم ما أحرزوا هذه الهيمنة على العالم إلا بفضل مبدأ التضامن والتكتل، أو التعصب الذي تتشبث به غالبيتهم العظمى. بيد أن هذا العالم لن يظل حماراً يمتطيه اليهود إلى الأبد. فلا بد من صحوة تجعل الناس، ولاسيما الغربيين، يفهمون أنهم ليسوا سوى خدم أذلاء لليهود.

أو يعقل أن يكون هذا العز كله لكائن ربوي نذل لا يساوي ملء أذنه بصاقاً؟

ومع يأسي من إمكانية استرداد فلسطين خلال الجزء المتبقي من عمري، فإنني قانع، بل جازم، بأن بلادنا سوف تستعاد كاملة غير منقوصة في المستقبل البعيد، وذلك لثقتي بأن تلك الرسابة التاريخية المنتنة التي تسمى اليهود المثيرين للاشمئزاز لا تستوطن ولا تستقر إلا في المال، وذلك لأن اليهودي لا يؤمن بأية

قيم ليست مادية. وهذا يعني أن تلك الطفيليات سوف تغادر بلادنا من تلقاء نفسها، وتتركها لنا عندما يشح المال الذي يضخ إليها دون انقطاع وبغزارة عارمة. ولكن هذا الأمر لن يتم إلا بعد أن يتم الصلح بين العرب والصهاينة، وهو صلح سوف يستمر حتى يتجفف نفط العرب، ولكن شريطة ألا يتدخل عنصر حاسم لا يسعك التنبؤ به في هذه الأيام.

ولن يتم الصلح بين الصهاينة وبين ما يسمى «منظمة التحرير»، أو فرسان أوسلو الذين باعوا الوطن وشربوا بثمنه أغلى أصناف الخمور، ولا بين الغيتو الصهيوني وبين بقية البلدان العربية المستخذية أمام الأعداء استخذاء الفئران أمام القطط، إلا بعد بضع عشرة سنة من الآن، أي إلا بعد أن يستكمل الصهاينة مشروع تهويد القدس الذي يسعون إليه منذ آلاف السنين، وإلا بعد تكثيف الاستيطان اليهودي في الضفة بحيث يصير وجودهم هناك مساوياً لوجود العرب تقريباً. وهذان مشروعان لا يتيسر لهما أن يتما بليلة واحدة، بل هما يحتاجان إلى زمن طويل جداً.

ولكن ما هو ناصع تمام النصوع أن العرب بلا استثناء، لا حول لهم ولا طول، وليس أمامهم إلا أن ينفذوا الأوامر الآتية من الخارج وهم أذل من النمال وما شاكلها من الحشرات الفاقدة لكل إرادة. ولا يستطيع الفلسطينيون الرسميون إلا أن يكونوا مطيعين داجنين، أو بلا براثن ولا أظافر، وعاجزين عن النهوض بأي فعل ذي بال. ففي الحق أن ما يسمى «منظمة التحرير»، وهي بنية خلب ومنخورة بالسوس من داخلها، قد ربت من الانتهازيين والأنذال أكثر مما ربت من الصناديد ذوي الأرواح المطهمة والقادرة على الفعل الأصيل، وهو الفعل النادر الذي لا يملك أن ينهض به سوى النفوس الأصيلة وحدها. ولعل إنقاذ المنظمة للصهيونية من الإدانة بواسطة تقرير غولدستون أن يؤكد ما فحواه أن تلك المنظمة ليست سوى أداة بيد الإمبريالية والصهيونية.

وهنالك فكرة منتشرة في هذه الأيام خلاصتها أن القدس سوف تصير عاصمة الدنيا بأسرها. وعندي أن هذه الفكرة سخيفة، بل جد تافهة، أو بغير أسانيد مهما يكن نوعها. فالغيتو كله قدره العلمي أن يظل قميئاً وطاقته تنبع من خارجه. وكل ما كان هذا حاله فوجوده موقوت أو زائل، طال الزمن أم قصر. فالأعلى لا يطيع الأدنى لولا تسلل اليهود إلى مراكز القرار في البلدان الأوروـأمريكية ذات الميول العدوانية الشرسة.

وعلى أية حال، فإن الصهاينة ما كان لهم أن ينزلوا بالفلسطينيين تلك الجملة من الكوارث الشنيعة لو أن ثمة بشراً على هذه الأرض المكروبة. وإنه لمن العار والشنار على جميع أهل هذه الدنيا أن يتعرض الفلسطينيون لتلك النكبات الجسام، بينما تقف بقية الجنس البشري تتفرج ولا تحرك ساكناً عن ساكن، حتى كأنهم

جمادات أو أموات. وأغرب الغرائب أن جميع جيوش العالم تستطيع أن تقاتل باستثناء هذه الجيوش التي تسمى الجيوش العربية.

ولكن، لا لوم ولا تثريب إلا على العرب وحدهم. فنفطهم هو الينبوع الرئيس للحضارة الحديثة بأسرها. ومن نفطهم يتغذى الغيتو الصهيوني ويضمن استمراره في الوجود. فلو أحرق العرب نفطهم لأحرقوا العصر الحديث كله وأعادوا الدنيا إلى القرون الوسطى. وعندئذ فإن الصهاينة سوف يغادرون فلسطين من تلقاء أنفسهم. ولكن النفط محروس جيداً، وهو مشترك بين الأعداء وبين أصدقائهم من العرب المعادين للعرب. وهذا يعني أنه منهوب وتتقاسمه حفنة من الذئاب المفترسة والمنتشرة في الغرب والعالم العربي أيضاً. ولهذا، فإن مما هو مؤسف حقاً أن الأمة العربية لم تفرز من القوى الوطنية الثورية إلا ما هو أقل من القليل بكثير. ويلوح لي أننا ما هزمنا على هذا النحو الشائن إلا لأننا نفتقر إلى الإنسان.

بيد أن الواجب الأول لكل فلسطيني هو أن يسجل مسلسل الكوارث التي حلت بشعبه على شغاف قلبه، وأن يظل يتربص وينتظر، فالزمن دوار، وهو مفتوح على الأبد، وإغلاقه صنف من أصناف المحال. وهذا يعني أن يوم العقاب حتمية تاريخية لا محيد عنها بتاتاً. ثم إن علينا، نحن الفلسطينيين، أن نلتزم بمبدأ الغضب ومبدأ الاحتقار. ولكن ماذا نحتقر ونزدري؟ إن علينا أن نحتقر الأوروبتين والأمريكتين والإفريقيتين (البيضاء والسوداء) واستراليا والهند والصين واليابان، وأن نمعن، بالدرجة الأولى، في احتقارنا لهذا العالم الإسلامي البليد، ولاسيما العربي، الذي لم يعد صالحاً لأي شيء بتاتاً. وهذا يعني أ ن نحتقر عالماً ساقطاً يلعق أحذية اليهود يومياً، دون أن يشعر بأي خجل أو حياء، ودون أن يدري بأن ذلك الفعل الزري هو أمارة اتضاع في تاريخ الجنس البشري كله.

أليس هنالك تناغماً وتعاضداً بين مصر والعدوان الصهيوني المضروب على غزة؟ وهل تفعل حكومة مصر الراهنة شيئاً سوى أنها تساهم في خنق الشعب الفلسطيني، شأنها في ذلك شأن بقية الحكومات العربية، بل شأن كل حكومة أخرى في العالم؟ إذن، أليس الاحتقار هو أول أسلحتنا في كفاحنا من أجل استرداد وطننا المغتصب؟

* * *

وأياً ما كان جوهر الأمر، فإنني مازلت أحن إلى المنزل الأول، أعني إلى لوبيا التي ما برحت تمثل «سرة الأرض»، أو مركز الدنيا، في وعيي أو في مخيلتي، مع أنها لم يعد لها أي وجود قط. فقد خربها المخربون الصهاينة منذ عام

النكبة حتى أضحت أثراً بعد عين، كأن لم تغن بالأمس. ولهذا، فإنني كثيراً ما أكرر قول الشاعر:

كأن لم تجاورنا أمام ولم نقم بفيد الحمى، إذ أنت بالعيش قانع

ولكنني جازم بأن لوبيا سوف تبنى من جديد، ولو بعد ألف سنة.

وبسبب شدة اشتياقي إلى تلك القرية الجميلة والشابة في ذاكرتي على الدوام، والمأنوسة في خيالي حتى كأن صورتها لا تفارقني البتة، وبما أنني ولدت في منتصفها تماماً، أو تحت ذروة تلتها بمائة متر، على وجه التقريب، وبسبب حنيني المتوهج إلى حاراتها، وأزقتها وبيادرها وكرومها وحقولها وحواكيرها، وكذلك إلى عنبها وتينها وصبارها، وجملة فواكهها وخضراواتها التي يرويها الندى في أشهر الحر، ولاسيما المشمش واللوز في كروم جدي علي ، الذي أظنه أطيب إنسان عايشته في هذه الحياة، فإنني سوف أظل أردد بين الفينة والأخرى، هذا البيت اللطيف الذي قاله أبو تمام:

كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبداً لأول منزل

ولكن، ما أشد حنيني إلى الموت، في زمن العطالة هذا!

مخيم اليرموك،

كانون الثاني، 2010